صور وبحوث من التاريخ الإسلامي

عصر الدولة العباسية والمغرب والأندلس

تأليف

عبد الحميد العبادي

[الطبعة الأولى]

١٩٥٣

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)



al-ʿAbbādī, ʿAbd al-Ḥamīd

صور وبحوث من التاريخ الإسلامي

عصر الدولة العباسية والمغرب والأندلس

Ṣuwar wa-buḥūth

تأليف

عبد الحميد العبادي

العميد السابق لكلية الآداب بجامعة الإسكندرية ،
وعضو مجمع اللغة العربية ، وأستاذ التاريخ العربي
بمعهد الدراسات العربية العالية

[الطبعة الأولى]

١٩٥٣

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

تقدمة وإهــــداء

من خمس سنوات مضت نشرت لى الجمعية التاريخية لخريجى كليات الآداب بجامعة الإسكندرية مجموعة من المقالات تتصل بالعصر العربى الإسلامى القديم ، وكان ذلك فى كتاب عنوانه « صور من التاريخ الإسلامى : العصر العربى » .

واليوم تنشر لى مكتبة الأنجلو المصرية مجموعة أخرى من مقالات و بحوث نشر بعضها مفرقاً و بعضها الآخر لم يسبق نشره ، وذلك فى كتاب عنوانه « صور و بحوث من التاريخ الإسلامى : عصر الدولة العباسية والمغرب والأندلس » .

والمقالات والبحوث المنشورة فى الـكتاب الجديد يدور أغلبها على بعض أعلام الإسلام فى العصر المذكور فى العنوان ومسائل أخرى علمية ، إلا أن الناظر المتوسم لا يعدم أن يلمح فيها إشارات تكشف عن بعض جوانب الحياة الإسلامية القديمة من النواحى السياسية والاجتماعية والأدبية . فهى من أجل ذلك لا تخلو من الفائدة للجيل الجـديد من طلاب التاريخ والتاريخ الإسلامى بوجه خاص . ولعل هـذا المغزى هو الباعث الأول على جمعها ونشرها فى كتاب .

وقد جرت عادة كثير من الـكتاب والمؤلفين أن يهدوا تآليفهم إلى بعض من يحبون أو يجلون ، فجريا على هذا السنن اللطيف والعرف المألوف أهدى هذا الـكتاب إلى الذين أهديت إليهم كتابى السابق : أهديه إلى أصحابى من خريجى مدرسة القضاء الشرعى والأزهر الشريف ، ودار العلوم وكليتى الآداب بجامعة القاهرة والإسكندرية ، ودار المعلمين العالية ببغداد . فالحق أن الـكتابين كليهما من وحى الدروس والمحاضرات التى سعدت بإلقائها عليهم ؟

رمل الإسكندرية فى { ١٩ سبتمبر سنة ١٩٥٣
١٠ المحرم سنة ١٣٧٣

عبد الحميد العبادى

القسم الأول

عصر الدولة العباسية

[illegible]

[illegible]

أبو العباس «السفاح»*

هل تلقب بالسفاح وهل كان سفاحاً للدماء حقا ؟

كان أبو العباس الملقب بالسَّفَّاح أوّل خلفاء بنى العباس ؛ وَلِىَ الخلافة عام ١٣٢ ، وتوفى عام ١٣٦ ، وكان شاباً لم تزد سنه وقت أن توفى على ست وثلاثين سنة على أكثر تقدير . جميل الخلقة ، وسيم الطلعة ؛ يقول فيه الطبرى إنه « كان ذا شعرة جعدة ، طويلا أبيض ، أقنى الأنف ، حسن الوجه واللحية » . ويروى ابن الأثير أنه « نظر يوماً فى المرآة ، وكان من أجمل الناس وجهاً ، فقال : اللهم إنى لا أقول كما قال سليمان ابن عبد الملك : أنا الملك الشاب ، ولكنى أقول : اللهم عمرنى طويلا فى طاعتك ممتعاً بالعافية ! »

وكان أبو العباس متصوناً عفيفاً ، حسن المعاشرة لأهل بيته . روى المسعودى أنه كان قبل الخلافة فقيراً مملقاً ، واتفق أن رأته أم سلمة المخزومية ، أرملة سليمان بن هشام بن عبد الملك ، فأعجبت به ، ورامت التزوج منه ، فاعتذر بضيق ذات يده ، فأرسلت إليه من المال ما وفى بحق الصداق والهدية . وقد حلف لها ألا يتزوج عليها ولا يتسرى . فلما صارت إليه الخلافة ، وسيقت إليه الدنيا ، وفى لها كأشد ما يكون الوفاء ، والبر بالعهد .

وكان أبو العباس مقتصداً فى معيشته ، لم تخرجه أبّهة الملك وعظمة السلطان عن حد البساطة فى مأكله ومشربه وملبسه ؛ وقد أحصوا ما خلف من الثياب ، فإذا هى تسع جباب ، وأربعة أقمصة ، وخمسة سراويلات ، وأربعة طيالسة ، وثلاثة مطارف خز . تلك ثياب رجل ملك مشارق الأرض ومغاربها نحو خمس سنوات !!

---

* الثقافة : عدد ٤٧ سنة ١٩٣٩ أثار هذا المقال جدلا ونقاشاً فى الموضوع وقد سجل كل ذلك فى مجلتى الثقافة والرسالة فى السنة المذكورة .

وكان أبو العباس كريماً معطاء ، يقول فيه المسعودى : « وكان إذا حضر طعامه أبسط ما يكون وجهاً » ، ويقول فيه : « وكان لا ينصرف عنه أحد من ندمائه ولا مطربيه إلا بصلة من مال أو كسوة ، ويقول لا يكون سرورنا معجّلا ومكافأة من سرنا وأطربنا مؤجّلا » .

وكان طروباً « يطرب من وراء الستر ويصيح بالمطرب له من المغنين : أحسنت والله ! فأعد هذا الصوت ! » . (المسعودى) .

وكان أشد الخلفاء حباً لمسامرة الرجال ، وكان كثيراً ما يقول : « إنما العجب ممن يترك أن يزداد علماً ، ويختار أن يزداد جهلاً ، فقال له أبو بكر الهذلى : ما تأويل هذا الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قال : يترك مجالسة مثلك وأمثال أصحابك ، ويدخل إلى امرأة أو جارية فلا يزال يسمع سخفاً ويرى نقصاً » . (المسعودى فى مروج الذهب) .

* * *

فهل صحيح أن هذا الخليفة الشاب الجميل العفيف ، الوفى ، الكريم ، الطروب ، المقتصد الحريص على مسامرة الرجال ، كان قتّالا للناس سفّاكاً لدماء البشر ؟ وهل صحيح أنه إنما لقب بالسفاح لكثرة ما سفح من دماء وأزهق من أرواح ؟ وهل صحيح أن الطبيعة البشرية تتسع للتناقض والتباين إلى هذا الحد ؟ إن الجواب عن هذه الأسئلة بالإيجاب ليثير الدهش ويستنفد العجب ؛ ومع ذلك فهذا ما أجابت به روايات تاريخية كثيرة متأخرة وحديثة . وقبل أن نعرض لتلك الروايات التى تصور أول خلفاء بنى العباس فى تلك الصورة البشعة ، نبين المعنى الاصطلاحى واللغوى للفظ « السفاح » ، ثم نعرض للروايات القديمة والمعاصرة لأبى العباس ، لنرى كيف تصور شخصية هذا الخليفة .

إن لفظ « السفاح » وصف عربى قديم جرى مجرى العَلَم ؛ فثم السفاح التغلبى الذى كان رئيس تغلب فى يوم الكُلاب الأول . ويقول فيه ابن دريد فى كتاب الاشتقاق : « وإنما سمى السَّفّاح لأنه سفح المزاد أى صبها يوم كاظمة ، وقال لأصحابه : قاتلوا فإنكم إن هُزمتم مُتم عطشاً . قال الشاعر :

وأخوها السفاح ظمأ خيله حتى وردن جبا الكلاب نهالا »

وهناك السفاح بن عبد مناة الشاعر ، ويعلق ابن دريد على اسمه بقوله : « والسفاح فعّال من سفحت الماء سفحاً إذا صببته » . فالعرب إذاً لم تطلق هذا الوصف اصطلاحاً على من يسفك الدماء كما يتبادر إلى الذهن ، وإنما لحظت فى إطلاقه معنى آخر منصوصاً عليه .

وأما لغة فهذا الوصف يقع على جملة معان ، منها السفاك للدماء ، ومنها المعطاء ، ومنها الفصيح القادر على الكلام . (اللسان مادة سفح) . فعلى أى هذه المعانى نحمل لقب أبى العباس ؟ إن الرواية التاريخية وحدها ، هى التى تعيِّن هذا المعنى . فهم يقولون إن أبا العباس لقب بالسفاح أخذاً من قوله فى خطبته المشهورة التى خطبها أهل الكوفة غداة بويع بالخلافة .

« يا أهل الكوفة ! أنتم أهل محبتنا ، ومنزل مودتنا ، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ، ولم يثنكم عن ذلك تحامل أهل الجور عليكم ، حتى أدركتم زماننا ، وآتاكم الله بدولتنا ، فأنتم أسعد الناس بنا ، وأكرمهم علينا ، وقد زدتكم فى أعطياتكم مائة درهم ، فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المبير ! » فنلحظ من هذه العبارة أنه يخاطب أهل الكوفة الذين أفاض عليهم من الأوصاف الكريمة ما أفاض ، وأنه قد زاد فى أعطياتهم ؛ فهل يتأتى له أن يقول لهم بعقب ذلك إنه سفاك للدماء ؟ هذا بعيد ، والأقرب إلى البيان والبلاغة أنه إنما أراد أن يقول لهم إنه لأوليائه كريم معطاء ولأعدائه ثائر مبير . والعارف بأساليب العرب الخطابية يعلم أنهم فى مثل هذا المقام ، مقام الترغيب والترهيب ، كثيراً ما يوردون المعانى المتقابلة ؛ وهذا من قبيل قوله تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » أضف إلى ذلك أنه لا يجمل بخليفة إسلامى يقول إنه تحدر من أكرم أرومة ، واشتق من أشرف نبعة ، أن يصور نفسه تصويراً جاهلياً منفراً دون محاشاة ولا تحفظ . وعهدنا بألقاب الخلفاء الإسلاميين كلها أنها ألقاب جميلة وأسماء حِسان توحى بمعانى الإيمان واليُمن والهداية والرشاد .

ولكن هذا التدليل البيانى لا يكون شيئاً إذا كانت الرواية التاريخية القديمة والمعاصرة

تسند إلى أبى العباس من الحوادث الفظيعة ما يسوّغ أن يوصف بالسفاح على معنى السفاك للدماء . والواقع أن الرواية التاريخية القديمة والمعاصرة لا تكاد تفعل شيئاً من ذلك . بل هى لا تذكر لفظ السفاح مطلقاً عندما تتكلم على أول الخلفاء العباسيين ؛ ومن شاء أن يتحقق ذلك فليرجع إلى كتاب « الأخبار الطوال » لأبى حنيفة الدينورى المتوف عام ٢٨٢ هـ ، وتاريخ الطبرى المتوف عام ٣١٠ ، فسيجد أن كلا المؤرخين لا يزيد عند الإشارة إلى أبى العباس على قوله : « أمير المؤمنين أبو العباس » وأكثر من ذلك أن رواية هذين المؤرخين ، وكلها من حيث الإسناد تكاد تصعد إلى عصر أبى العباس نفسه ، لا تضيف إليه من حوادث القتل والمثلة التى تمت فى عهده شيئاً والمراد بحوادث القتل والمثلة التى حفل بها ذلك العصر قتل العباسيين الأوائل بنى أمية غدراً وصبراً . بل تولى كِبْر ذلك رجال غير أبى العباس . فيقول الطبرى : « وفيها (أى سنة ١٣٢) قتل عبد الله بن على من قتل بنهر أبى فطرس من بنى أمية ، وكانوا اثنين وسبعين رجلا » وعبد الله بن على هذا عم للخليفة ، وكان على الشام ، ونهر أبى فطرس بفلسطين . ويقول الطبرى كذلك : « وفيها (أى سنة ١٣٣) قتل دواد بن على من كان أخذ من بنى أمية بمكة والمدينة » وداود هذا عم آخر لأبى العباس ، وكان على الحجاز واليمن . فأنت ترى أن الرواية التاريخية القديمة تعصب بكل بساطة جرائم قتل الأمويين برجلين اثنين هما عبد الله بن على وداود بن على . فإذا رجعنا إلى الرواية المعاصرة لأبى العباس نفسه وجدناها مؤيدة للرواية التاريخية . وهذه الرواية المعاصرة هى تلك القصيدة المؤثرة البليغة التى رثى بها ابن أبى شبة العَبْلى مواليه من بنى أمية ، والتى يقول فى مطلعها :

تقول أمامة لما رأت نشوزى عن المضجع الأنفس
وقلة نومى على مضجعى لدى هجعة الأعين النعس
أبى! ماعراك؟ فقلت الهموم عرَوْنَ أباكِ فلا تبلسى !

ويقول فيها معدداً المواضع التى قتل فيها بنو أمية :

أفاض المدامع قتلَى كُدا وقتلَى بكثوة لم ترمس
وقتلى بِوَجّ وباللابتيـ ـن من يثرب خير ما أنفس

وبالزابيين نفوس ثوت   وأخرى بنهر أبي فطرس

أولئك قومي أناخت بهم   نوائب من زمن متعس

وكُدًا وكُثوة ووجّ واللابتان أمكنة بالحجاز ، وهي التي قتل عندها داود بن علي من قتل من بني أمية . والزابيان موضع واقعة الزاب التي قاد الجيش العباسي فيها عبد الله بن علي ونهر أبي فطرس بفلسطين وهو الذي قتل عنده عبد الله بن علي الأمويين غدراً وصبراً كما ذكرنا . ولا يذكر الشاعر وهو يعدد مصارع قومه الحيرة ولا الكوفة ولا الأنبار وهي المواضع التي نزلها أبو العباس في خلافته ؛ فالرواية المعاصرة والرواية القديمة تنطقان ببراءة أبي العباس من دماء الأمويين وتحملان غيره وزرها .

* * *

ولنعرض الآن بالإيجاز للروايات المتأخرة والحديثة . ونريد بها الروايات التي ظهرت منذ القرن الرابع إلى أيامنا . فنلحظ قبل كل شيء أن تلك الروايات على وجه العموم تلقب أبا العباس بالسفاح ، مخالفة في ذلك الرواية القديمة . وهي تنعت ذلك الخليفة بالسفاح على أنه سفاك قتال ، فصاحب كتاب الأغاني الذي ينتسب إلى بني أمية والمتوفى عام ٣٥٦ يعنون فصلا في كتابه (ج ٤ ص ٩٢ — ٩٦) بقوله : « ذكر من قتل أبو العباس السفاح من بني أمية » ، ويدير أبو الفرج فصله هذا على قصة سديف الشاعر ، فيزعم أنه دخل على أبي العباس بالحيرة وعنده بنو هاشم وبنو أمية فأنشده قصيدته :

أصبح الملك ثابت الأساس   بالبهاليل من بني العباس

ويقول فيها محرضاً الخليفة على الأمويين :

لا تُقيلن عبد شمس عِثاراً   واقطعن كل رقلة وغراس

خوفهم أظهر التودد منهم   وبهم منكم كحز المواسي

قال فتغير لون أبي العباس ، وأمر بمن في مجلسه من الأمويين فأخمدوا ، وتزيد رواية أبي الفرج أن الخليفة أمر ببساط فبسط على جسوم الأمويين وجلس فوقه يأكل ، فلما فرغ من الأكل أمر بهم فألقوا في الطريق ، فكانت الكلاب تجرهم بأرجلهم ، إلى آخر ما روى رحمه الله . ويورد ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ نفس الشعر والحادثة ، ولكنه يضيف

الشعر إلى شاعر آخر هو شبل بن عبد الله والحادثة إلى عبد الله بن علي ، إلا أنه يعقب على ذلك بقوله : « وقيل إن سديفاً أنشد هذا الشعر للسفاح ومعه كانت الحادثة وهو الذي قتلهم » .

فأنت ترى أن ما نصت عليه الرواية القديمة بكل وضوح وجلاء ، وعزته إلى عبد الله ابن علي في يوم نهر أبي فطرس قد عزاه أبو الفرج إلى أبي العباس ، وتردد فيه ابن الأثير بين النفي والإثبات . على هذا الخلط والاضطراب تقوم الرواية المتأخرة التي تصور أبا العباس شخصية قتالة بشعة تذكرنا بشخصيات جنكزخان وهولاكو وتيمورلنك . وقد اتبع المؤرخون المحدثون هاتين الروايتين ؛ فمنهم من أخذ برواية أبي الفرج مثل فايل الألماني في كتابه « تاريخ الخلفاء » ، وميور الإنكليزي في كتابه « تاريخ الخلافة » ، والمرحوم الخضري بك في تاريخ الدولة العباسية ؛ ومنهم من أخذ برواية ابن الأثير مثل المرحوم جورجي زيدان بك في الجزء الرابع من تاريخ التمدن الإسلامي .

***

أما بعد ، فإنا لم نقصد إلى الدفاع عن أبي العباس دفاعاً مطلقاً ، ولكنّا أردنا إنصافه من طريق البحث العلمي . وعندنا أنه إذا كانت يده قد برئت من دماء الأمويين فإنها لم تبرأ من دم ابن هبيرة الذي استنزله أخوه أبو جعفر من معقله بواسط على الأمان . فإن أبا العباس لم يُجز أمان أبي جعفر ، وقتل ابن هبيرة غدراً ، ناسياً قول صاحب الشريعة المحمدية : إن ذمة المؤمنين واحدة يجير عليهم أدناهم . ولم يكن أبو جعفر في الحق أدنى المؤمنين ، بل من أعلاهم وأشرفهم . والرواية القديمة تعزو إلى أبي العباس هذا الحادث دون أية مواربة ، ولكن ذلك لعمري لا يسوّغ أن يوصف بأنه سفاح للدماء ، وهو ما نصبنا أنفسنا لنفيه عنه .

بقي أن يقال إن أبا العباس كان الخليفة وهو المسئول الأول عن جرائم عماله . ولكن يردُّ على ذلك بأن العصر كان عصر زعازع وهزاهز ، وأن أبا العباس كان مغلوباً على أمره لعمه عبد الله بن علي بالمغرب ، ولأبي مسلم بالمشرق ، ولم تصفُ الخلافة والسلطان لأخيه

أبى جعفر من بعده إلا بعد أن تخلص من هذين الجبارين وقد انتقم الله منهما على يديه أشد الانتقام .

***

ترى هل ثبت أبو العباس على هذا التمحيص ؟ وهل خرج منه كما دخله ، فكان أولا وآخراً ذلك الخليفة الشاب الوسيم العفيف ، الوفى الكريم الطروب المقتصد الحريص على محادثة الرجال ذوى العقول ؟

أكبر الظن أن قد فعل .

هارون الرشيد [1]

بين التاريخ والقصص

هارون الرشيد شخصية من أشهر شخصيات التاريخ الإسلامى ، وأكثرها تداولا على الألسنة ، وأشدها شيوعاً فى الأدب العام . ومع أنه شخصية تاريخية بحتة قد أسبغ عليه القصص ثوباً ضافياً من زخرفه ورونقه ، وتعاوره الوضع والانتحال من نواح عدة ؛ فالتبس وجه الحق فيه على جمهور المتأدبين ؛ ولم يسلم من الوهم فى أمره غير واحد من الخاصة أنفسهم ونريد فى هذا البحث أن نعرض لتلك الشخصية بقدر ما يسع المقام كما يصورها التاريخ الثابت أولا ، ثم كما يصورها القصص ثانياً ، وأن نبين بعد ذلك مدى الاتصال بين التصويرين .

— ١ —

هو هارون الرشيد بن محمد المهدى بن أبى جعفر المنصور ، ينتهى نسبه من ناحية أبيه إلى العباس بن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم . أما أمه فأم ولد اسمها الخيزران . وكما كان أبوه وجده من أقوى الرجال إرادة وأشدهم شكيمة ، فقد كانت أمه جموح النفس وكانت إلى ذلك موفورة الحظ من العلم ؛ أخذته كما يروى الطبرى عن الأوزاعى إمام أهل الشام . ولد هارون بالرى سنة ١٤٨ هـ وذلك أيام كان أبوه والياً على خراسان من قبل المنصور . فلما جاوز عهد الطفولة دفع به أبوه إلى يحيى بن خالد البرمكى ليتولى الإشراف على تعليمه وتثقيفه فأنشأه يحيى على آداب ملوك الفرس من بنى ساسان ؛ فكان هارون يحب الصيد والقنص ؛ ويلعب بالدبوس والصولجان والشطرنج ، ويشهد سباق الخيل فى ميادين السباق . أما تعليمه فلعل وصيته هو إلى الأحمر النحوى مؤدب ولده الأمين ترينا كيف علم ؛ وكيف كان يعلم ولاة العهد فى ذلك الزمان ، فهو يقول فيها « يا أحمر ! إن أمير المؤمنين

(١) السياسة الأسبوعية (سنة ١٩٣٢ ؟) .

قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه . فصير يدك عليه مبسوطة ، وطاعتك عليه واجبة . فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين ؛ أقرئه القرآن ؛ وعرفه الآثار ؛ وروه الأشعار ، وعلمه السنن ، و بصره مواقع الكلام و بدءه ، وامنعه الضحك إلا فى أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم إذا دخلوا إليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ، ولا تمرّن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده إياها ، من غير أن تخرق به فتميت ذهنه ، ولا تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ و يألفه . وخوفه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة » .

فلما ترعرع واشتد ساعده أخذ أبوه يدر به على فنون الإدارة والحرب ، فأغزاه الروم مرتين فى سنتى ١٦٣ هـ ، ١٦٥ هـ وفى سنة ١٦٣ هـ ولاه على المغرب كله وجعل على رسائله يحيى بن خالد . وفى سنة ١٦٦ هـ أخذ له البيعة بولاية العهد بعد أخيه موسى الهادى ولقبه (الرشيد) ثم هم بأن يقدمه على الهادى فى الخلافة لما رأى من مخايل كفايته ومقدرته ؛ ولكن موته فجأة فى عام ١٦٩ عاقه عن إنفاذ ما أراد .

فلما تولى الهادى حاول أن يخلع هارون ويبايع لابن له صغير ، ولكن هارون أبى أن ينزل عن حقه ، وشد أزره فى ذلك مربيه وكاتبه يحيى بن خالد . فعرضهما الهادى لألوان من الاضطهاد ، حتى طاب هارون نفساً بالخلع وأخيراً لم ينج يحيى من الهلاك ، وحق هارون من الضياع ، إلا موت الهادى غيلة فى المحرم من عام ١٨٠ هـ و بذلك أصبح هارون خليفة على الدولة العباسية .

— ٢ —

كان الرشيد عندما آلت إليه الخلافة شاباً فى مقتبل العمر ، موفور الثقافة ، تام الفروسية جم الحياء ، رقيق العاطفة . هذا إلى ملاحة يوصف بها ، فقد كان أبيض طويلا وسيما فصيحاً . فهو بذلك قابل لفعل الخير إذا وجد ما يوجهه إليه ، ولفعل الشر إذا صادفه ما يصرفه إلى الشر ، والتوجيه لمن يكون فى مثل حاله إنما يصدر عن نظام الحكم الذى تكون الدولة خاضعة له ومحكومة بموجبه . ذلك بأن لأنظمة الحكم تأثيراً فى أخلاق الناس حكاماً كانوا أو محكومين . وقد لحظ هذه الحقيقة كل من كتب فى السياسة والأخلاق من لدن الإغريق

القدماء حتى وقتنا الحاضر . فما النظام الذى كانت تخضع له الدولة العباسية ؟ هو نظام الخلافة بالطبع . ولكن الخلافة على عهد العباسيين كانت غيرها على عهد الخلفاء الأوائل . فخلافة العباسيين تختلف عن خلافة أبى بكر وعمر كما يختلف الحكم الاستبدادى عن الديمقراطية الصحيحة . ذلك بأن العباسيين أخذوا عن الفرس نظرية الحق الإلهى فى الحكم ولكى يعطوا هذه النظرية الصفة الإسلامية زعموا أن الخلافة ميراث عن النبى صلى الله عليه وسلم وأجروا عليها أحكام الميراث ، وبذلك يكونون هم أحق الناس بها . وفى هذا المعنى يقول شاعرهم :

أنى يكون وليس ذاك بكائن　　لبنى البنات وراثة الأعمـــام ؟

ويقول أول خلفائهم فى خطبته التى خطبها الناس عند مبايعتهم له بالكوفة « واعلموا أن هذا الأمر فينا ، وليس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم عليه السلام » ويقول المنصور من خطبة له « أيها الناس ! إنما أنا سلطان الله فى أرضه ، أسوسكم بتوفيقه وتأييده ، وحارسه على ماله ، أعمل فيه بمشيئته وإرادته وأعطيه بإذنه ؛ فقد جعلنى الله عليه قفلا ؛ إن شاء أن يفتحنى فتحنى لإعطائكم وقسم أرزاقكم وإن شاء أن يقفلنى عليها أقفلنى ... » ولكى ندرك مدى التغيير الذى أصاب الخلافة على عهد العباسيين نكتفى بأن نورد بعض خطبة أبى بكر التى خطبها على إثر بيعته ، فقد قال « أيها الناس ! قد وليت أمركم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى ... أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فيكم ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم ... » كما نورد الشعر الذى خاطب به الحطيئة عمر بن الخطاب بعد أن بويع ، قال :

أنت الإمام الذى من بعد صاحبه　　ألقى إليك مقاليد النهى البشر

لم يؤثروك بها إذ قدموك لها　　لكن لأنفسهم كانت بك الأثر

وكما ورث الرشيد الحكم بموجب النظرية المذكورة ، فقد ورث بالإضافة إليها ما يصح أن يعتبر من الوجهة الفعلية جزءاً من النظام السياسى للدولة ؛ ذلك نظام البلاط وهو شىء أخذوه عن الفرس كذلك ، فقد كان الأكاسرة يعيشون محتجبين عن الرعية فى بلاطهم ، يحف بهم جم غفير من الحاشية والحجاب والحراس والغلمان والنساء والجوارى . وكثيرا ما كان

بلاط فارس بهذا الخليط مبعث الدسائس والفتن السياسية كما يرى من تاريخ المتأخرين من الساسانيين ، كذلك كان البلاط على عهد الدولة العباسية . وقد ظهر أثره السيء فى الشئون العامة لأول ظهوره ، فقد ذهب المهدى والهادى ضحية مكايد دبرت لهم فى نفس بلاطهم .

حكومة استبدادية تستند إلى نظرية سياسية جامدة ؛ و بلاط بحكم تكوينه ذو جو صالح للدسائس والمكايد . ذلك هو النظام السياسى الذى أصبح الرشيد خليفة بمقتضاه وفى حدوده ، وهو نظام من شأنه أنه إذا كان الذى يحكم فى ظله قويا كان من أقوى أسباب الاستبداد والطغيان . و إذا كان ضعيفاً كان من أقوى بواعث الفتنة والاضطراب .

وهذا بالدقة ما يثبته تاريخ الدولة العباسية ، فالمتقدمون من خلفائها الذين يوصفون بالقوة والكفاية كالمنصور والمهدى والرشيد والمتوكل كانوا جبابرة طغاة . أما المتأخرون الذى يوسمون بالضعف فقد كانوا ألاعيب فى أيدى أهل البلاط ونساء القصر ، يصرفونهم كيف شاءوا وشاءت أهواؤهم .

— ٣ —

على أن الرشيد لم يتقبل دفعة واحدة أثر هذا النظام ، فصغر سنه وحداثة عهده بالحكم يحولان بطبيعة الحال دون هذا التقبل السريع . لذلك نجده كالمعترف بأنه لم يبلغ بعد أن يضطلع بشئون تلك الدولة العظيمة ، يفوض الأمر كله إلى أستاذه ووزيره يحيى بن خالد البرمكى ، وقد بلغ من تحفيه به و إعظامه له أنه كان لا يناديه إلا « بيا أبت ! » .

ويحيى هذا هو يحيى بن خالد بن برمك . وكان برمك فى مبدأ أمره سادن معبد بوذى قديم بمدينة بلخ يقال له (النوبهار) ثم اعتنق الإسلام فى أواسط الدولة الأموية واتصل بعبد الملك بن مروان وابنه هشام ، ويقال إنه شفى هشاماً من مرض كان به . وقد اشترك ابنه خالد فى أمر الدعوة العباسية وأبلى فيها ثم استوزره المنصور لأصالة رأيه وكفايته و إن كان ذا ميول أعجمية لم تخف على المنصور . وقد ورث ابنه يحيى فضائله وكان لذلك أثيراً لدى المهدى . فلما تولى الرشيد أطلق يده فى شئون الدولة فاستعان يحيى فى إدارتها بأولاده الأربعة الفضل وجعفر وموسى ومحمد وكلهم كاف قدير . وقسم أمور الدولة بينهم وصار يعول عليهم فى معالجة الحوادث الخطيرة . فالفضل هو الذى استصلح يحيى بن عبد الله العلوى الذى ثار

بطبرستان ، و إلى موسى وجعفر يرجع الفضل فى القضاء على فتنة العرب بالشام .

والخلاصة أن البرامكة غلبوا على كل شىء فى الدولة وأداروها إدارة حسنة ، ولكنهم إلى جانب ذلك قد شلوا سلطان الرشيد حتى كادت شخصيته تفنى فيهم .

و بعلو البرامكة وهم أسرة فارسية كما تقدم القول ، علا شأن العنصر الفارسى عامة ، وتحقق ما كانت موالى الفرس ترمى إليه من إسقاط الدولة الأموية العربية ، و إقامة الدولة العباسية التى كانوا عدتها ومحل عصبيتها .

وقد أدرك العرب بوادر هذا الانقلاب منذ قامت الدولة العباسية فكانوا يعبرون عن معارضتهم لها وسخطهم عليها بالثورة حيث يكثر عددهم وخاصة بالجزيرة والشام ومصر . فكان الخلفاء العباسيون الأوائل يلقون ثوراتهم بالعنف وتفريق الكلمة جهد استطاعتهم لعلمهم أن العرب أنصار الدولة الأموية الذاهبة . لذلك نجد قادة العرب يعدلون عن الثورة إلى الدهاء واصطناع الحذر .

كان بنو هاشم على رأس الحزب العربى ببغداد ، وكان يمثل هذا الحزب ببلاط الخليفة شخصان الفضل بن الربيع والسيدة زبيدة .

أما الفضل فكان رجلا واسع المطامع ، جم الدهاء ، قادراً على الدس والوقيعة ، حاقداً على البرامكة ، والذى يقرأ مدائح أبى نواس فيه يرى أنه كان يستعين بالشعراء على لفت نظر الرشيد إليه .

من ذلك قول أبى نواس مخاطباً الرشيد :

قولا لهارون إمام الهدى ... عند احتفال المجلس الحاشد
أنت على مابك من قدرة ... فلست مثل الفضل بالواجد
ليس على الله بمستنكر ... أن يجمع العالم فى واحد

وكان من وراء ذلك أن استحجبه الرشيد فى عام ١٧٩ مكان محمد بن يحيى البرمكى .

أما الزعيم العربى الثانى إذا صح هذا الوصف فلم يكن غير السيدة زبيدة حفيدة أبى جعفر المنصور وزوج الرشيد وأم ولده محمد الأمين .

وهى امرأة عظيمة المواهب موفورة الثقافة شديدة المباهاة بنسبها الهاشمى وكان الرشيد يجلها ويعرف لها مكانتها الممتازة . وكانت هى أيضاً مباعدة للبرامكة متغيرة على يحيى وكان إليه أمر القصر فكان بذلك يضيق عليها ويتعمد عدم إنفاذ أوامرها حتى إنها شكته إلى الرشيد فلم يزد الرشيد على أن عتب على يحيى فى ذلك .

ومهما يكن من شىء فقد تركزت المنافسة بين العرب والعجم إذ ذاك فى أمر ولاية العهد فأما العرب فكانوا يحرصون أشد الحرص على أن يعقد الرشيد البيعة بولاية العهد لمحمد الأمين العربى الأبوين ، فى حين أن الفرس كانوا يحرصون على أن يكون الذى يلى الرشيد فى الخلافة عبد الله المأمون الفارسى الأم .

وقد حار الرشيد فى الأمر حيرة شديدة . وأخيراً غلب عليه النفوذ العربى فعقد البيعة بولاية العهد لمحمد فى سنة ١٧٥ ولقبه « الأمين » فكان ذلك سبباً فى أن جد الفرس فى الأمر حتى اضطر إلى أن يبايع بولاية العهد لابنه عبد الله فى سنة ١٨٣ على أن يلى بعد الأمين ولقبه « المأمون » ثم أوعز إلى الشعراء وإلى عمه عبد الملك بن صالح أن يطلبوا إليه البيعة بولاية العهد لابنه القاسم ففعلوا فعقدها له فى سنة ١٨٦ على أن يلى بعد الأمين والمأمون ولقبه « المؤتمن » . قالوا ولم يمنعه من البيعة لابنه المعتصم إلا كونه أمياً وغير متعلم بخلاف إخوته المذكورين .

ثم بدا له تفوق المأمون على الأمين فهمّ بأن يقدمه عليه فى ولاية العهد ، ولكنه لم يفعل وكل الذى صنع أن قسم الدولة بين أبنائه الثلاثة المذكورين ، فجعل للمأمون الأقاليم الشرقية التى يغلب عليها العنصر الفارسى وللأمين الأقاليم الغربية التى يغلب عليها العنصر العربى . وجعل الجزيرة والثغور لابنه المؤتمن .

ثم لحظ الخطر الذى يتهدد الأقاليم الشرقية فأوصى للمأمون بمال وسلاح كثير تقوية له وجعل إليه أمر المؤتمن إذا آلت إليه الخلافة ، إن شاء أمضى عقد بيعته وإن شاء نقضه وجعل الخلافة بعده لمن شاء . ولكى يؤكد هذا النظام حج فى سنة ١٨٦ واستصحب ابنيه الأمين والمأمون . فلما كان بمكة كتب عهوداً ثلاثة أخذ فيها الميثاق على ابنيه أن يرعى كل منهما حق أخيه عليه ، كما أخذ العهد على رجال الدولة أن يكونوا على من بدل وغير فى

عهده . ثم أمر فعلق العهدان الأولان فى جوف الكعبة توكيداً لهما وتعظيما لشأنهما .

لاشك فى أن ذلك النظام الذى وضعه الرشيد لأمر الخلافة من بعده لا يشرف مقدرته السياسية كثيراً فهو منتهى خطل الرأى وفساد التدبير . وإن الفتنة التى وقعت بعد بين الأمين والمأمون ، والتى صدعت وحدة الدولة العباسية حيناً من الزمن لتقع تبعتها على عاتق الرشيد نفسه . لقد حرص الرشيد فى وضع النظام المذكور على إرضاء الأهواء المختلفة بدلا من أن يصطنع الحزم ويتوخى مصلحة الجماعة . ولقد لحظ ذلك معاصرو الرشيد نفسه . قال شاعر من شعراء ذلك العصر :

رأى الملك المهذب شر رأى ... بقسمته الخلافة والبلادا
رأى ما لو تعقبه بعلم ... لشيب من مفارقه السوادا
أراد به ليقطع عن بنيه ... خلافهم ويبتدلوا الودادا
فقد غرس العداوة غير آل ... وأورث شمل ألفتهم بدادا
فويل للرعية عن قليل ... لقد أهدى لها الكرب الشدادا
ستجرى من دمائهم بحور ... زواخر لا يرون لها نفادا
فوزر بلائهم أبداً عليه ... أغياً كان ذلك أم رشادا

***

وعلى أثر انصراف الرشيد من حجه المذكور راع العالم الإسلامى بحادث لا تزال أسبابه على الرغم من كثرة ما كتب وقيل فيها مبهمة غامضة ، ذلك إيقاعه بالبرامكة فى عام ١٨٧ . لقد تعددت الروايات الواردة فى تعليل هذا الحادث المحزن ولكنها كلها لا تشفى غلة الباحث . فالرشيد لم يصرح لفرط دهائه بسبب نكبته للبرامكة ، وترك الأمر ينحدر إلى الأجيال من بعده لغزاً غامضاً . ومن جهة أخرى فإن البرامكة لم يرتكبوا جرماً واضحاً ثابتاً عليهم يمكن أن يعتبر السبب المباشر فى نكبتهم . قالوا إن السبب فى الفتك بالبرامكة استئثارهم بالأموال واحتيازهم الضياع العامرة ، وهو سبب غير وجيه لأن من يقدر على انتزاع المهج والأرواح أقدر من باب أولى على انتزاع الأموال . وقالوا إنه الزندقة وعدم النصح

للإسلام ، وهو أمر لو صح لأعلنه الرشيد إقامة للحجة على البرامكة واستثارة للرأى العام الإسلامى عليهم . وقالوا إن السبب تشيعهم للعلويين وسعيهم فى نقل الدولة إليهم وإعانتهم يحيى ابن عبد الله العلوى على الثورة بالرشيد . وهو سبب غير وجيه لأن البرامكة إنما عزوا بالدولة العباسية و بلغوا ذروة المجد فى ظلها فماذا يحملهم على التضحية بذلك والمخاطرة فى أمر قد يتحقق وقد لا يتحقق ! ثم هو على فرض تحققه لن ينيلهم شيئاً غير حاصل فى أيديهم بالفعل . وقالوا إن زواج جعفر بن يحيى من العباسة أخت الرشيد واتصاله بها سراً برغم حظر الرشيد ذلك عليهما ، وهذا السبب عندنا خرافة شعوبية زيفها ابن خلدون فى مقدمته . وسنعرض لها فى موضع آخر من هذا البحث .

إن الذى نرجحه ، ولا سبيل فى هـذا الموضوع سوى الترجيح ، ونرى أنه السبب الجوهرى فى إيقاع الرشيد بالبرامكة إنما هو استئثارهم بالسلطان حتى كادوا يخلعون الرشيد . وقد قدمنا أن حكومة الرشيد حكومة استبدادية مدعومة بفكرة فقهية اجتلبها العباسيون اجتلاباً ليمكنوا لأنفسهم . والمستبد لا يطيق أن يشاركه إنسان فى السلطان الذى يراه حقه المشروع . ولا سيما إذا كان فى مثل دهاء الرشيد وشدة اعتداده بنفسه ، ولم يصبر الرشيد فى مبدأ الأمر على نفوذ البرامكة إلا لصغر سنه وقلة تجاربه . فلما صلب عوده واتسعت خبرته وشعر بحقه لم يعد للصبر عنده موضع ولا مساغ .

وقد وجد خصوم البرامكة من العرب وعلى رأسهم الفضل بن ربيع وكاتب البرامكة إسماعيل بن صبيح ، مجال السعاية واسعاً ، فأقبلوا يخبون فيه و يوضعون فأوهموا الرشيد بما يصح أن نعتبره السبب المباشر فى إيقاعه بهم ، أوهموه أن البرامكة على اتصال بخراسان التى انبعثت منها الثورة بالأمويين ، وأن الجيش الضخم الذى حشده الفضل بن يحيى هناك لتأمين الحدود الشرقية فى الظاهر إنما هو فى الواقع لأمر أجل وغرض أعظم . وأن موسى بن يحيى على اتصال بخراسان وأنه يكاتب أهلها ليسير إليهم ويخرجهم عن طاعة الخليفة . وصارت الكتب ترد على الرشيد غفلا من توقيع أصحابها كالسهام المسمومة يرمى بها فى الظلام ، وكلها تحذر الرشيد من البرامكة وتريه أنهم على وشك أن يدفعوا به فى هاوية بعيدة القرار .

كل ذلك أثار هواجس الرشيد ، وجعله يعتقد أن الأمر بينه و بين البرامكة هو عين

الجد ، وأنه أمر حياة أو موت . وإذ بلغت الحال ذلك المدى فالويل كل الويل لأولئك الذين جزوه إساءة بإحسان وغدراً بوفاء . لقد نبهوا منه من لا ينام ولا ينيم .

لا شيء أدل على أن الرشيد قد استكمل الدهاء والحزم والتصميم وأن نظام الحكم الذى وصفناه قد عمل فيه عمله فصاغ منه جباراً عنيداً ، من سعيه فى استرداد سلطته والتنكيل بالبرامكة . فقد سار فى الأمر بحذر شديد فاتصل بالجمهور مباشرة وجعل يعنى بما يعجبه ، من إصلاح للنظام المالى استعان فيه بقاضيه أبى يوسف ، وتوفر على الغزو والحج فى المواكب الفاخرة راكباً وماشياً ، واصطناع للطبقة المفكرة من فقهاء وعلماء وشعراء ، وإغداق للأموال على الناس وبخاصة فى حجته التى حجها عام ١٨٦ ، وبالأخذ الشديد لنفسه مقتدياً فى ذلك بجده المنصور . وقد تم له ما أراد فعلت مكانته فى النفوس واشتدت هيبة الناس له . عند ذلك تنكر للبرامكة ولكن فى حيطة واحتراس ، فلما عاد من الحج وكان بمكان يقال له (العمر) قريب من الأنبار أنفذ أوامره فى ليلة واحدة بقتل جعفر بن يحيى واعتقال سائر البرامكة واستصفاء أموالهم . ثم إنه أمر بتقطيع جثة جعفر ونصبها على جسور بغداد الثلاث ، وبسط العذاب على يحيى والفضل حتى ماتا فى السجن ، ونهى الشعراء عن أن يرثوا البرامكة أو يذكروهم فى شعرهم ، وتوعد من يفعل منهم ذلك . وتقول المصادر الفارسية إن الرشيد قتل البرامكة نحو ١٢٠٠ نفس ، ولكن المصادر العربية وهى الأوثق لا يؤخذ منها ذلك والحق أن البرامكة إنما نكبوا فى سلطانهم وأموالهم بدليل أن ذريتهم بقيت بعد هذه الكارثة أجيالا طوالا .

وقد ظلت جثة جعفر منصوبة على جسور بغداد حتى مر بها الرشيد وهو متوجه إلى خراسان عام ١٩٢ فأمر بإنزالها وإحراقها . يقول صاحب الفخرى فى كتابة رواية عن بعض معاصرى الرشيد « دخلت الديوان فنظرت فى بعض تذاكر النواب ، فرأيت فيها أربعمائة ألف دينار (!) ثمن خلعة لجعفر بن يحيى الوزير ، ثم دخلت بعد أيام فرأيت تحت ذلك عشرة قراريط ثمن نفط وبوارى لإحراق جثة جعفر ويحيى فعجبت من ذلك » .

لقد شفى الرشيد نفسه بنكبة البرامكة ولكنه اشترى ذلك بالثمن الغالى ، فإن الاضطراب الذى أصاب دولاب الإدارة العامة وعدم كفاية آل الربيع الذين خلفوا البرامكة

كل ذلك اضطر الرشيد إلى دوام الحركة غربا وشرقا لإخماد الثورات التي كان يعهد من قبل بإطفاء نائرتها إلى البرامكة ، وقد أدرك الرشيد خطأه ولكن بعد أن سبق السيف العذل فاشتد به الندم وتوبيخ الضمير وأخذت صحته تضمحل ، وسلط عليه الأرق ؛ فإذا نام فنوم مروع بالأحلام المفزعة . وغدا محتاجاً إلى من يسامره في جوف الليل لينفى عنه الوحشة كما أصبح محتاجاً إلى من يدخل السرور على قلبه الوجل ؛ فاتخذ مضحكا اسمه ابن أبي مريم المديني ، وصار يرتاح إلى الوعظ والتزهيد في الدنيا ، فإذا وعظه ابن السماك أو أنشده أبو العتاهية خشع قلبه وفاضت دموعه . على أن شر ما ابتلى به الرشيد بعد ذهاب البرامكة فتور العلاقة بينه و بين رعيته ، فقد أصبح مخوفا مرهوبا بعد أن كان مهيبا محبوبا . وصاروا يشبهونه بالدهر في تقلبه وتخونه . قال أبو نواس وقد مر بعد ذهاب البرامكة بدور آل الربيع :

ما رعى الدهر آل برمك لما أن رمى ملكهم بأمر فظيع
إن دهرا لم يرع عهدا ليحيى غير راع ذمام آل الربيع

حتى أبناؤه ، فإنهم أصبحوا يستطيلون حياته و يتمنون زوالها . قالوا إنه لما سار سنة ١٩٢ إلى خراسان لحرب رافع بن الليث الصفار «سايره الصباح الطبرى فقال له يا صباح ! ما أظنك تراني أبدا ! فدعا له . فقال ما أظنك تدرى ما أجد ، قال الصباح : لا والله . فعدل عن الطريق ، واستظل بشجرة ، وأمر خواصه بالبعد فكشف عن بطنه فإذا عليه عصابة حرير ، فقال هذه علة أكتمها الناس كلهم ، ولكل واحد من ولدى على رقيب ، فمسرور رقيب المأمون ، وجبرائيل بن بختيشوع رقيب الأمين ، وما منهم أحد إلا و يحصى أنفاسى و يستطيل دهرى . و إن أردت أن تعلم ذلك فالساعة أدعو بداية فيأتونني ببرذون أعجف قطوف ليزيد علتى . فاكتم على ذلك . فدعا له بالبقاء . ثم طلب الرشيد دابة فجاءوا بها على ما وصف ، فنظر إلى الصباح وركبها » .

ولم تطل حياة الرشيد ، فقد اشتدت به العلة في خرجته هذه وساء خلقه حتى إنه لما جيء بأخي رافع بن الليث قتله شر قتلة وهم بأن يفعل مثل ذلك بطبيبه جبرائيل بن بختيشوع لأنه أخطأ في علاجه لولا أن الموت عاجله بمدينة طوس فدفن بها ، وكان ذلك في جمادى الآخرة من عام ١٩٣ هـ .

— ٤ —

إذا كان الرشيد لم يوفق بوجه عام فى مجال السياسة الداخلية ، فإنه كان على عكس ذلك فى ميدان السياسة الخارجية ، فقد أظهر فيه نشاطا ومرونة وكياسة تشهد له بالبراعة الدبلوماسية . كما يؤخذ من المصادر العربية التى تعرضت لعلاقته بالدولة البيزنطية ومن المصادر الأوربية التى تعرضت لعلاقته بشرلمان ملك الدولة الفرنجية . لقد كان فى العالم الإسلامى والعالم المسيحى إذ ذاك أربع دول كبيرة : اثنتان إسلاميتان متعاديتان هما الدولة العباسية والدولة الأموية بالأندلس واثنتان مسيحيتان متعاديتان كذلك هما الدولة البيزنطية والدولة الفرنجية وكانت الحرب متصلة بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية ؛ من أجل ذلك نجد الرشيد يحصن الثغور الشامية والجزرية ويتولى بنفسه غزو الروم ويفرض الجزية على ملكتهم إيرينى وملكهم نقفور الذى جاء بعدها . وكذلك كانت العلاقة مقطوعة فى الغرب بين شرلمان وأمويى الأندلس . وقد أسفرت هذه الحال عن تقارب بين بيزنطة والأندلس وتقارب مثله بين الدولة العباسية والدولة الفرنجية . ولكن لم يتم اتفاق بين بيزنطة والأندلس ، فى حين أن الرشيد وشرلمان تبادلا السفارة والهدية ، وأبرم بينهما اتفاق لا ندرى مضمونه بالدقة . غير أن قرائن الأحوال تدل على أن الرشيد تعهد بحماية حجاج أوربا الغربية من عدوان البيزنطيين عليهم ببيت المقدس ، وكانوا يخالفون فى مذهبهم الدينى أهل أوربا الغربية ، كما تعهد شرلمان ألا يعين بيزنطة على الرشيد ، وأن يغير على الأندلس ، فما غلب عليه منها تولى حكمه باسم الرشيد . قالوا : ومن أجل ذلك بعث إليه الرشيد بخلعة رسمية وعلم عباسى .

وقد انتفع الرشيد وشرلمان كلاهما بهذا الاتفاق ، فأوغل الرشيد فى أرض الروم ، كما أوغل شرلمان فى شمال الأندلس وشرقها مع إقراره العمال المسلمين على ما غلب عليه . ويذهب المؤرخ الإنجليزى بكل إلى أن الرشيد أصبح بتغلبه على نقفور البيزنطى بالحرب ، وبتغلبه على شرلمان بالسياسة قد حاز من سعة الملك ما يفوق ملك الإسكندر المقدونى .

ومع ذلك لم تكن السياسة بمعناها المزدوج المجال الذى ظهرت فيه براعة الرشيد ومقدرته الإنشائية . إنما سطعت النواحى النيرة من نفس الرشيد فى مجال العلم والفن ، وهو فى ذلك يشارك غير واحد من عظماء المستبدين المستنيرين أمثال الإسكندر وفردريك الأكبر ونابليون ولويس الرابع عشر وكبار سلاطين آل عثمان . وكان الرشيد نفسه من أوحد رجال عصره علماً وفقهاً وأدباً . كان لا ينى فى تحصيل العلم حتى بعد أن استخلف . يقول السيوطى : إن المأمون أخذ الحديث عن أبيه ، ويقول رواية عن القاضى الفاضل : « ما أعلم أن لملك رحلة قط فى طلب العلم إلا للرشيد ، فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون لسماع الموطأ على مالك رحمه الله . قال وكان أصل الموطأ بسماع الرشيد فى خزانة المصريين ، قال ثم رحل بسماعه السلطان صلاح الدين بن أيوب إلى الإسكندرية فسمعه على ابن طاهر بن عوف ولا أعلم ثالثاً لهما » وللرشيد شعر رقيق وصل إلينا بعضه . فمن ذلك قوله يرثى جارية له اسمها هيلانة :

فارقت عيشى حين فارقتها ... فما أبالى كيفما كانا
كانت هى الدنيا فلما ثوت ... فى قبرها فارقت دنيانا
قد كثر الناس ولكننى ... لست أرى بعدك إنسانا

على أن فخر الرشيد فى هذا المجال ليس بآثاره الشخصية ، ولكن بإقباله على العلماء والفقهاء والشعراء والموسيقيين واجتذابه إياهم إلى العاصمة بما كان يرفدهم به من العطايا الجسام ليكونوا هالة هو بدرها ، وعقداً هو واسطته . وقد حفلت بغداد فى عهده بأقطاب العلم والأدب والفن ، حتى كان الرشيد لا يعدم على بابه واحداً أو جملة منهم ليلا ونهاراً . من هؤلاء الأصمعى وأبو عبيدة الراويتان اللغويان ، والكسائى النحوى ، والواقدى المؤرخ ، وأبو يوسف الفقيه ومروان بن أبى حفصة ، ومسلم بن الوليد ، وأبو العتاهية وأبو نواس والعباس بن الأحنف وكلهم من فحول الشعراء . وقد نافست النساء الرجال فى ذلك الميدان فكثر الجوارى الأديبات وكان للسيدة زبيدة مائة جارية كلهن يحفظن القرآن .

وكان الرشيد يعقد لكل طبقة من هؤلاء مجلساً خاصاً ، فللعلماء مجلس يتبسط معهم فيه ولا يأنف أن يتعلم فيه منهم ، وللشعراء مجلس يسمع فيه أشعارهم وينقدها ويجيزهم عليها بالجوائز السنية . وللمغنين مجلس يسمع فيه الرشيد غناءهم من وراء حجاب ، فإذا سُرَّ بما يسمع وطرب أمر فرفعت الستارة المضروبة بينه وبينهم واستأنس به أهل المجلس : ومن كبار مغنى ذلك العصر إبراهيم وإسحق الموصليان وابن جامع .

وكان للبرامكة ولآل الربيع مجالس من هذا القبيل . قال المسعودى : كان يحيى بن خالد ذا بحث ونظر وله مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من أهل النحل . فقال لهم يحيى وقد اجتمعوا عنده « قد أكثرتم الكلام فى الكون والظهور ، والقدم والحدوث ، والإثبات والنفى ، والحركة والسكون ، والمماسة والمباينة ، والوجود والعدم ، والجر والطفرة ، والأجسام والأعراض ، والتعديل والتجرير ، والكمية والكيفية ، والمضاف والإمامة أنص هى أم اختيار ، وسائر ما يورد من الكلام فى الأصول والفروع ؛ فقولوا الآن فى العشق على غير منازعة ، وليورد كل واحد منكم ما سنح له فيه وخطر بباله . فقال . . . »

كان لهذه المجالس العلمية أثر بعيد فى تكوين اللغة العربية وتهذيبها وبعث النهضة العلمية الإسلامية ، وقد اقتدى المأمون بالرشيد فى عقدها . ثم سرت عادة عقدها إلى الأندلس فكانت من دواعى رقة الأدب الأندلسى وعذوبته .

— ٦ —

تلك شخصية الرشيد كما يعرفها التاريخ أو كما تصورها لنا الصفحات الكثيرة التى أفردها لتاريخه وأخباره كبار المؤرخين وأصحاب التراجم كالطبرى والمسعودى وأبى الفرج الأصفهانى . فهى فى جملتها شخصية حاكم مستبد مستنير ، فيه ضعف الاستبداد وقوة الاستنارة ، فهو حريص على الأبهة والعظمة ، قليل الاتزان فى تصرفاته ، إن رضى بلغ غاية الرضا وإن سخط كان طائش السيف ، مفرط العقوبة ، لا يعرف العفو عند المقدرة ؛ حقود ، غير قادر على الحب الصحيح والولاء الصادق ، ولكنه مع ذلك سياسى ماهر قد ترك دولته وهى أقوى وأغنى دول الأرض ؛ ثم هو فوق ذلك كله من أكثر ملوك الأرض حبا للعلم والفن والأدب وأشدهم تشجيعاً للعلماء والأدباء والفنانين .

ذلك هو الرشيد فى التاريخ ، أما الرشيد فى القصص فإنسان آخر ، هناك طائفة من الملح والنوادر والقصص منشورة فى بعض كتب التاريخ والأدب ، وفى كتاب « أعلام الناس » للأتليدى وفى كتاب (ألف ليلة وليلة) وهى فى جملتها تصور لنا الرشيد رجلا صاحب رسلة وتهاون ؛ ضعيف النخوة والغيرة على عرضه ، يشتهى محارمه ويفتيه قاضيه أبو يوسف بما ينيله بغيته ؛ قد اصطنع أبا نواس ، وصبر على عبثه ومجونه وأذن له فى أن يدخل على حرمه وشغف بجعفر البرمكى حتى أصبح لا يطيق فراقه وحتى كان يجلس معه فى قباء يضمهما معاً ، وحتى عقد له على أخته العباسة التى كان لا يطيق فراقها هى أيضا بعد أن حظر عليهما أن يتماسا ! الحق أن هذه الأخبار كلها مفتعلة موضوعة وأنها أثر من آثار الشعوبية التى حاولت الحط من قدر الخليفة الذى أوقع بالبرامكة ومن أقدار رجاله النابهين ؛ وإلا فما بال ديوان أبى نواس نفسه وما بال كتاب الأغانى لا يكادان يشتملان على خبر واحد يفيد انقطاع أبى نواس إلى الرشيد وجراءته عليه بمثل ما ترويه الملح والنوادر الآنفة الذكر ؟ يقول ابن منظور صاحب لسان العرب فى كتابه « أخبار أبى نواس » وقال بعض المترجين ممن يحيط علما بأحوال أبى نواس : إن هذه الحكايات عن أبى نواس والرشيد موضوعات ؛ وأن أبا نواس ما دخل على الرشيد قط ولا رآه ، وإنما دخل على محمد الأمين » ولا شك أن فى هذه الرواية مبالغة كما يرى من يتصفح شعر أبى نواس . فقد مدح أبو نواس الرشيد واعتذر إليه ، ورثاه .

وهناك حكايات أخرى واردة فى (ألف ليلة وليلة) تصور لنا الرشيد فى صورة ثالثة : تصوره أبا لرعيته رحيما محباً للفنون والآداب ، يستدعى الرواة والشعراء فيقصون عليه طرائف الأخبار وينشدونه روائع الأشعار فيجيزهم بالجوائز السنية ؛ كما تصوره حاكماً عادلًا قوياً مبسوط السلطان على الإنس والجن ، ساهراً على مصلحة رعيته يتخفى هو وجعفر البرمكى ومسرور السياف فى زى تجار غرباء وينزلون إلى شوارع بغداد وأحيائها يتعرفون أحوال الناس وعمال الحكومة ، فيطلعون على أمور عجيبة وشئون غريبة ، فإذا كان الغد واستوى الخليفة فى مجلسه أرسل فى طلب من يكون قد أثار فى الليلة الماضية عجبه أو غضبه فيعاقب المفسد ويثيب المحسن ، ويزوج المتعاشقين ، ويصلح بين المتخاصمين .

هذه الحكايات كتب أغلبها فى بغداد ومصر فى العصور الإسلامية المتأخرة عن عصر الرشيد أى إبان اضطراب الدولة الإسلامية وانحطاطها . فكان هم القصاص أن يشيدوا بالعصر الإسلامى الذهبى عصر الدولة العباسية الأول . فصوروه عصر حكومة أبوية قوية عادلة ، وعصر حرية شخصية يجد فيه كل من الصالح والطالح حاجته وأربته . وقد اختاروا الرشيد دعامة لقصصهم دون غيره من الخلفاء لأن الرشيد قد أصبح بمحاسنه ومساوئه أشهر الخلفاء على الإطلاق . فشخصية الرشيد هنا شخصية عصر أكثر مما هى شخصية إنسان .

ومما تستريح إليه نفس المؤرخ فى هذا المقام أن شخصية الرشيد الذى تصوره الحكايات المذكورة ، لا تتعارض فى جوهرها مع الناحية الطيبة من حياة الرشيد التاريخى ، ناحية الجود والكرم وحب العلم والفن . هنا فقط تلتقى شخصية الرشيد التاريخية بشخصيته القصصية فتخلع الثانية على الأولى مقدارا غير قليل مما كتب لها من الرواء والروعة والخلود .

أم المحسنين

السيدة زبيدة *

هى زبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر المنصور المؤسس الحقيقى للدولة العباسية . واسمها فى الأصل « أمة العزيز » ، وكثيراً ما تكنى بأم جعفر ؛ وإنما لقبت بزبيدة لأن جدها المنصور كان يرقصها وهى صغيرة ويقول : يا زبيدة ! يا زبيدة ! وذلك لسمنها وبضاضتها ، فلزمها هذا اللقب وغلب عليها .

ولدت سنة ١٤٥ هـ ، ونشأت فى مدينة المنصور نشأة الأميرات العباسيات فى ذلك العصر ، فثقفت أحسن ثقافة ، وأدبت أكمل تأديب ؛ هذا إلى عقل راجح ، وذكاء متوقد ، وإرادة قوية ؛ ومن أجل هذه الخلال كلها اختارها الخليفة المهدى زوجاً لابنه هارون ، فأعرس بها فى عام ١٦٥ هـ . ومن ذلك الوقت إلى أن توفيت فى سنة ٢١٦ هـ ، كانت السيدة زبيدة ألمع شخصية نسوية فى العالم الإسلامى كله ؛ ولعلها من حيث الشهرة والمكانة التاريخية لا تقل عن زوجها الرشيد . وما أمر سخرية الأقدار بهذا العاهل الجبار الذى قارع القياصرة ، وأذل الجبابرة ، عند ما تضع بإزائه فى النفوذ والسلطان والشهرة فى الحياة وبعد الموت امرأة هى زوجه السيدة زبيدة . ولقد شهدت زبيدة فى مدى خمسين عاماً من الأحداث الجسام ما شهدت ، وذاقت من إقبال السعد وإدباره ما ذاقت ؛ ومع ذلك بقيت هى هى ، سيدة جليلة ، وملكة عظيمة .

***

لعل أول مشكلة واجهتها زبيدة بعد زواجها من الرشيد ، هى نفس المشكلة التى تواجهها كل امرأة تكون فى مثل حالها ، وعند مثل زوجها . لقد كانت قصور بغداد عامة

(*) الثقافة ٢٠ يناير سنة ١٩٤٢

والرشيد خاصة عامرة بالجمال الأنثوى المجلوب من كافة أقطار العالم الإسلامى المنوّع الأجناس والألوان واللغات ؛ ففيها ما شاءت العين من نساء جميلات لا حصر لهن ، من بين عربيات ، وفارسيات ، وروميات ، ومغربيات ، وصقلبيات ، جلهن بل كلهن ملك يمين للخليفة نفسه ، وهو بعد شاب فى ميعة الصبا وعنفوان الشباب ، فوق ما كان فيه من تجبر ونزوع إلى الإستبداد بكل شىء فى سلطانه ؛ فكانت زبيدة تخشى بطبيعة الحال أن تغلبها على قلب الرشيد من عساها تكون من هؤلاء النساء أبرع منها جمالا ، وأكثر خلابة ، وأشد ذكاء ؛ ولكنها مع ذلك عرفت كيف تروض زوجها الشاب المرح الطروب ، وكيف تحل نفسها من قلبه بالمحل الأول كل ذلك فى رفق ، ولطف ، وكياسة ، وحسن تأتّ للأمور ، وبصر تام بمداخلها ، ومخارجها . روى صاحب « الأغانى » أنه كانت ليحيى بن خالد البرمكى جارية فائقة الحسن بارعة الأدب والغناء تسمى دنانير ، وكان الرشيد يكثر من المسير إلى دار يحيى ليسمعها ، حتى ألفها واشتد إعجابه بها . وعلمت زبيدة بالخبر فشكته إلى عمومته ، فصاروا جميعاً إليه فعاتبوه ؛ فقال : مالى فى هذه الجارية من أرب فى نفسها ، وإنما أربى فى غنائها ، فاسمعوها فإن استحقت أن يؤلف غناؤها ، وإلا فقولوا ما شئتم ! ونقلهم إلى دار يحيى حتى سمعوها عنده ، فعذروه وعادوا إلى السيدة زبيدة فأشاروا عليها ألا تلج فى الأمر ، فقبلت ذلك وأهدت إلى الرشيد عشر جوار منهن أمهات أولاده المأمون والمعتصم وصالح .

ومن هذا القبيل ما يروى من أن الرشيد غضب عليها يوماً ، ثم ترضاها ، فأبت أن ترضى عنه ، فأرق ليلته ؛ ثم قال : افرشوا لى على دجلة ! ففعلوا ، فقعد ينظر إلى الماء وقد رأى فيه زيادة عجيبة ، فسمع من بعيد مغنياً يغنى بهذه الأبيات :

جرى السيل فاستبكانى السيل إذ جرى وفاضت له من مقلتىّ غروب
وما ذاك إلا حين خبرت أنه يمر بواد أنت منه قريب
يكون أجاجاً ماؤه فإذا انتهى إليكم تلقّى طيبكم فيطيب
فيا ساكنى شرقىّ دجلة كلكم إلى القلب من أجل الحبيب حبيب

فسأل الرشيد عن الناحية التى فيها الغناء ، فقيل دار ابن المسيب ، فبعث إليه : أن ابعث بالمغنى ، فإذا هو الزبير بن دحمان ، فسأله عن الشعر ، فقال : هو للعباس بن

الأحنف ، فأحضر واستنشده فأنشده إياه . وجعل الزبير يغنيه ، والعباس ينشده حتى أصبح الصباح ؛ وقام فدخل إلى السيدة زبيدة ، فسألت عن سبب دخوله فعرفته ، فوجهت إلى الشاعر بألف دينار ، وإلى المغنى بمثلها . ولا شك أن الأمر كله كان مدبراً ، وأن زبيدة كانت صاحبة هذا التدبير اللطيف .

***

بهذه المهارة وتلك اللباقة عرفت زبيدة كيف تروض مليكها الشاب وتطامن من جماحه وكيف تضمن ولاءه لها وإخلاصه لحبها . ولو أنها تملكتها الغيرة الطائشة وساورها الجزع ممن كن يغالبنها على قلب الرشيد ، فأكبر الظن أنها كانت هى التى تخرج من الميدان مهزومة مغلوبة على أمرها . على أن زبيدة لم تشأ أن تكون منزلتها من قلب زوجها مؤسسة على ما أوتيت من جمال وحسب ونسب فحسب ، بل أحبت أن تكون عديلته فى الثقافة والفن والأدب ؛ فإذا كان الرشيد تعجبه بلاغة العبارة فلتكن بليغة قادرة على أن تذيل الكتب التى ترفع إليها بتوقيعات حسان . روى الجاحظ قال : « خبرنى جعفر بن سعيد قال : ذكرت لعمرو بن مسعدة توقيعات جعفر بن يحيى ، فقال قد قرأت لأم جعفر توقيعات فى حواشى الكتب وأسافلها فوجدتها أجود اختصاراً وأجمع للمعانى » وناهيك بجعفر بن يحيى وعمرو بن مسعدة ، فالأول ممن يضرب بهم المثل فى البلاغة والثانى من أبلغ كتاب المأمون .

وإذا كان الرشيد شاعراً بطبعه ، أو على أقل تقدير عالماً بالشعر عارفاً بجيده ورديئه ، فلتكن هى كذلك ، ولتأذن لكبار شعراء العصر أمثال أبى العتاهية ونصيب وسلم الخاسر وأشجع السلمى بالإنشاد فى حضرتها ، ولتنقد شعرهم نقد خبير عارف بالشعر . ولتجز المحسن منهم ، ولتدل المقصر على موضع تقصيره . وفى كتاب « الأغانى » أخبار كثيرة تدل على قبول هؤلاء الشعراء لنقدها ونزولهم على حكمها .

وإذا كان الرشيد مولعاً بسماع الموسيقى والغناء ، شديد الإقبال على كبار المشتغلين بهذين الفنّين الجميلين فلتقتد به زبيدة فى ذلك . والحق أنها بلغ من عنايتها بالموسيقى والغناء أن أنشأت فى قصورها مايشبه أن يكون معهداً موسيقياً ؛ فكان عندها مئات الجوارى يأخذن الصناعة عن أكبر شيوخها أمثال إسحٰق الموصلى ، وعلوية ، ومخارق ، وأضرابهم . وكانت

إذا بلغها أن مغنياً مشهوراً وضع لحناً جديداً أمرت جواريها فأخذنه عنه . ولقد دفعت ذات مرة ثلاثمائة ألف درهم ثمناً لعبد أسود يجيد الغناء . وكثيراً ما كانت تعرض بضاعتها فى هذا المجال على زوجها فى حفلات تجيد ترتيبها وتنسيقها فيعجب بها أيما إعجاب .

***

وإذا فقد أصبحت السيدة زبيدة مملكة على الرشيد مالكة لزمامه ، تصرفه كيفما شاءت فينقاد لها كل انقياد . لقد غزت قلبه من جميع أقطاره ، والويل لرجل يلى مصالح أمة إذا غزت المرأة قلبه وملكت عليه زمام أمره . إنها لا تلبث أن تجعله مطيتها إلى السيطرة على مصالح الأمة نفسها ، توجهها على حسب أهوائها ووفق أغراضها ، لا على وفق ما تقتضيه المصلحة العامة نفسها . والسياسة من الأمور التى تستهوى أفئدة النساء الجيلات الموهوبات الطموحات ، وهن لا يحجمن عن التورط فى مآزقها إذا ما وجدن السبيل إلى ذلك سهلة ميسرة . وسهامهن فى مجال السياسة ، كسهامهن فى مجال الحب ، مصميات قاتلات ... ولله در أبى فراس حيث يقول :

ولا تملك الحسناء قلبى كله   وإن ملكتها روقة وشباب

ولقد وجدت زبيدة سبيل التعرض لسياسة الدولة ممهدة ميسرة ، فركبتها غير هيابة ولا مترددة ، ولقد تعرضت لأدق أمور هذه السياسة وأشدها خطراً ؛ ونعنى بذلك ولاية العهد أولاً والأخذ بناصر الحزب العربى ثانياً .

لقد رزقت زبيدة من زوجها ولدها محمداً الأمين ، ومع أنه لم يكن أكبر أبناء الرشيد ولا أنجبهم ، فإن أمه كانت حريصة على أن يكون الخليفة بعد أبيه . وقد أخذت تسعى إلى ذلك سعياً حثيثاً ؛ فهى آناً تدفع الشعراء إلى مدح محمد والإشادة بذكره ؛ وآناً تستغل سلطانها على الرشيد لمصلحة ولدها . وما زالت كذلك لا تفتر لها همة ، حتى نزل الرشيد على مشيئتها وعقد البيعة بولاية العهد لمحمد ، على أن تكون الخلافة لأخيه عبد الله المأمون من بعده . وقسم الدولة بينهما ، وكتب بذلك وثائق أودعها جوف الكعبة توكيداً لما فيها من عهود أخذت على الأخوين وعلى رجال الدولة أجمعين .

على أن الأمين هاشمى الأبوين ، وهو بذلك يمثل الحزب العربى فى الدولة العباسية

لذلك العهد . أما أخوه المأمون ففارسى الأم ، وهو بذلك يمثل خؤولته من الفرس الذين أقاموا الدولة العباسية ، وكانوا المصرفين الحقيقيين لأمورها . فينبغى أن يحد من نفوذهم ، وأن يرفع من شأن العرب ، ليكون لخليفة المستقبل عصبية عربية قوية يستند إليها ويشتد بها أزره . وهنا نجد زبيدة تعمل على تنحية العنصر الفارسى عن إدارة الدولة العليا ، بادئة فى ذلك بالبرامكة بطبيعة الحال . ويظهر أنها كانت لا تريد أكثر من ذلك ، ولكن الرشيد بالغ فى فهم ما أوحت به إليه ، وذهب فى الأمر إلى أبعد من الغاية التى كانت ترمى إليها زبيدة وبنو هاشم ، فنكب البرامكة نكبتهم المشهورة فى عام ١٨٧ . والتبعة فى ذلك واقعة لا على السيدة زبيدة ، ولكن على الرشيد ، فهو الذى لم يحسن تقدير الأمور ، ولا وضعها فى مواضعها .

* * *

بلغت السيدة زبيدة ذروة مجدها فى أخريات عهد الرشيد . فلما توفى سنة ١٩٣ بكته أحر بكاء ؛ فلقد كان زوجها ومصدر عزها وسلطانها ، ولكن عزاها عن فقده أن أصبح ولدها الأمين الخليفة من بعده ، فامتدت أسباب سلطانها أياما أخر ، كانت قصاراً لسوء حظها .

لقد دب دبيب الخلاف بين الأمين وأخيه المأمون ، وتفاقم الشر بينهما . ولقد حرصت زبيدة على أن يصفو الجو بين الأخوين ، ولكن المقادير جرت بغير ذلك ، فانتصر المأمون ، وقتل الأمين على شر حال ، فكان رزء زبيدة فادحا وخطبها جليلا ، إلا أنها تماسكت وتجلدت وجعلت تروض نفسها على أن تنظر إلى الأمور نظرا هادئا ، فهل المأمون إلا متبناها ، إن فاته أن يكون ابنها حقاً ، فلتنزله من نفسها هذه المنزلة ، ولتعامله على هذا الاعتبار . وينتقل المأمون من خراسان إلى بغداد ، ويعرف لها حقها أول الأمر ، ويتعهدها ببره وصلته ، ثم لا تلبث أن تعرف فى وجهه الجفوة والنفور منها . فتتلطف للأمر على عادتها القديمة فى معالجة الخلاف الذى كان ينشأ بينها وبين الرشيد ، فتطلب إلى أبى العتاهية الشاعر أن يقول شعراً على لسانها فيه عتاب للمأمون على جفائه لها ، ويضع الشاعر هذه الأبيات المملوءة تفجعاً وتوجعا :

ألا إن ريب الدهر يدنى ويبعد ... ويؤنس بالألاف طوراً ويبعد
أصابت لريب الدهر منى يدى يدى ... فسلمت للأقـــدار والله أحمد
وقلت لريب الدهر إن ذهبت يد ... فقد بقيت والحمد لله لى يد
إذا بقى المأمون لى فرشيد لى ... ولى جعفر لم يفقدا ومحمـــــد

ثم أمرت مخارقا المغنى أن يغنى المأمون بهذه الأبيات ، فسأل المأمون عن الخبر فعرفه ، فبكى ورق لها ، وقام من وقته ودخل إليها ، فأكب عليها يقبل يديها ، وقال لها : يا أمه ! ما جفوتك تعمدا ، ولكن شغلت عنك بما لا يمكن إغفاله . فقالت : يا أمير المؤمنين إذا حسن رأيك ، لم يوحشنى شغلك . وأتم يومه عندها » .

ومهما يكن من تلطف المأمون لها ، فقد أدركت زبيدة أن قد انقضى زمانها ، ودالت دولتها ، ولم تعد تفكر إلا فى كيف تخرج من الحياة العامة سالمة موفورة الكرامة . وسرعان ما سنحت لها فرصة ذلك . فعند ما بنى المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل نرى السيدة زبيدة تشترك فى العرس ، وتنفق فى ذلك أموالا ضخمة ، ولكنها فى الوقت نفسه توعز إلى العروس أن تستأذن لها المأمون فى الخروج للحج ، فلم يتردد المأمون فى إجابة هذا الطلب .

***

من الناس من إذا تنكر لهم الزمان ضعفوا واستكانوا وعراهم اليأس من كل شىء فى الدنيا ، فيصبحون أمواتاً وهم أحياء ؛ ومنهم من يحاول أن يثأر لنفسه من جده العاثر فيعيش لنفسه ولنفسه فقط ، فيصبح بذلك أنانياً أثراً مستهلكا غير منتج . أما النفوس القوية الكبيرة فهى التى ترى فرص العمل الصالح غير محدودة ؛ فهم أشبه بالسيل الدافق إذا اعترضته عقبة استدار حولها ومضى فى طريقه . من هذه النفوس الكبيرة نفس السيدة زبيدة ، فإنها لما أدركت أن حياة الملك والسلطان قد آذنت بالزوال أو زالت بالفعل ، توجهت نحو عمل الخير فانفتحت أمامها آفاق لعمل الخير لا حد لمداها . ولقد اندفعت فى اتجاهها الجديد بنفس الحمية التى كانت تندفع بها فى صدر حياتها نحو أبهة الملك ومجد الدنيا ؛ فهجرت السياسة بتاتاً ، وكذلك تركت حياة الفن والأدب اللذين لم تعد ظروفها الجديدة مواتية لهما ، واستبدلت بكل ذلك صنع البر والمعروف ، وقد تعمدت أن تكون فى برها ملكة مسلمة حقاً . فهؤلاء

الجوارى المغنيات أصبحن يرتلن القرآن آناء الليل وأطراف النهار ، حتى لقد كان يسمع من قصرها كدوى النحل من قراءة القرآن . وهناك على حدود الدولة الإسلامية غزاة مرابطون للدفاع عن الدولة بمهجهم وأرواحهم ، فلترفه عنهم ولتنشىء لهم الربط والحصون يقيمون فيها . من ذلك رباط بذخشان ، أنشأته على حدود بلاد الترك فى آسيا الوسطى ، وأنشأت عنده حصناً عجيباً ، يقول ياقوت : إن الناس لم يروا مثله . ثم ها هم أولاء حجاج بيت الله الحرام يلقون أعظم المشاق فى اجتيازهم بلاد العرب ، فلتنشىء على حافتى هذا الطريق الآبار المطوية والبرك العظيمة التى تختزن فيها المياه ليستقى منها الحجاج . وقد حجت السيدة زبيدة وشهدت موقع مكة بين جبال سود عاليات عاريات من الماء والعشب ، وعاينت مايلقاه الحجاج من العنت فى الحصول على الماء ، حتى إن الراوية لتباع فى موسم الحج بدينار ذهبا ، فرأت السيدة أن من أقرب القرب إلى الله أن تيسر وصول الماء من الحل إلى الحرم ، وعلمت أن بأرض الحل عينا تنبع من جبل شاهق يقال له طاد يبعد عن مكة بنحو ثلاثين ميلا . فأمرت السيدة المهندسين بنقب الجبال وإيصال مياه هذه العين إلى مكة ، فتم ذلك ؛ وأنفقت على عمل هذه العين ما يزيد على سبعمائة ألف دينار ذهباً ، وهو عمل هندسى عظيم هائل كما يصفه المؤرخون . ومن طريف ما يتصل بذلك من الأخبار أنه لما تم عمل العين اجتمع المباشرون والعمال لديها ، وأخرجوا دفاترهم لإخراج حساب ما صرفوه ، وكانت فى قصر عال مشرف على دجلة ، فأخذت الدفاتر منهم ورمتها فى النهر وقالت تركنا الحساب ليوم الحساب . فمن بقى عنده شىء من المال فهو له ، ومن بقى له شىء عندنا أعطيناه » ، وألبستهم الخلع والتشاريف ، فخرجوا من عندها حامدين شاكرين .

هذه العين هى عين زبيدة التى لا تزال تعرف بهذا الاسم ، والتى تستقى منها جموع الحجاج حتى يومنا هذا . لقد ذهب ملك السيدة زبيدة ، وذهب حسبها ونسبها وجمالها ومجدها الدنيوى . أما مبرتها العظمى فباقية على وجه الدهر يذكرها بها الذاكرون ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

بين هرون الرشيد وشارلمان*

رجلا العالم فى أخريات القرن الثامن والقرن التاسع — كيف حدثت السفارة بينهما — اختلاف المؤرخين فى علاقات الرشيد بشارلمان — الاعتبار الشرعى الإسلامى لهذه العلاقات .

ليس من شك فى أن هرون الرشيد وشارل الكبير هما رجلا العالم فى أخريات القرن الثامن الميلادى وبداية القرن التاسع . فالرشيد يمثل الشرق بمدنيته المزدهرة أيامئذ وعظمته التى بلغت أوجها ، وشارل الكبير ، أو شرلمان كما درج المؤرخون على تسميته ، يمثل الغرب الآخذ إذ ذاك فى الاستقرار على أثر نزوح القبائل الجرمانية من مجالاتها فى أوربا الوسطى إلى أملاك الدولة الرومانية الغربية ، والآخذ بتلك الأسباب التى جعلت منه فى النهاية باعث دول أوربا الوسطى والغربية الحديثة بأوضاعها السياسية والاجتماعية والثقافية المعروفة .

وليس من شك فى أن كلا من العاهلين العظيمين قد سمع بالآخر على أقل تقدير . فقد كانت بغداد منتجع السياح والتجار الوافدين إليها من مختلف الأقطار ، وكان لا يخلو الأمر من أن يجرى على لسان هؤلاء الوافدين فى أسواقها وأنديتها وبلاطها ذكر العاهل الفرنجى الكبير . وكانت مدينة آخن هى كذلك مقصد السياح والتجار واللاجئين السياسيين الواردين من الشرق ومن قسطنطينية ورومية والأندلس فكان لا يخلو الأمر من أن يتحدث هؤلاء وهم بعاصمة الدولة الفرنجية عن الحروب الناشبة بين بيزنطة والعباسيين وعن أخبار الأمويين المتغلبين على الجزيرة الإسبانية ، وعن النصر المؤزر الذى أحرزه الرشيد على الجيوش البيزنطية فى هضاب آسيا الصغرى وأوديتها وسهولها .

كل ذلك كان من شأنه أن ينقل إلى كل من العاهلين عن الآخر صورة مبهمة غامضة ،

(*) مجلة الهلال ١ أغسطس سنة ١٩٤٠ .

ولكن ترى هل كان الأمر مقصوراً على مجرد السماع أم هل تعداه إلى قيام علاقات سياسية أو ودية بينهما كما ينتظر أن تكون الحال بين رجلين توزعا بينهما أمر المشرق والمغرب لعهدهما ؟

أما المصادر العربية فتسكت عن ذكر أية علاقة بين الرشيد وشرلمان سكوتا مطلقا ، فى حين أن المصادر الفرنجية القديمة تشير صراحة إلى اشتباك العلاقة السياسية والودية بينهما وتبدىء القول فى ذلك وتعيده ، فتاريخ المملكة الفرنجية Annales Regni Francorum وسيرة الإمبراطور شرلمان Vita Caroli Magni Imperatoris والمنظومة المعروفة ببويتاسا كسو Poeta Saxo كلها تروى نبأ ثلاث سفارات وهدايا تبودلت بين شرلمان والرشيد ، وكان شرلمان هو البادىء فى كل منها بالاستسفار ، ولم يزد الرشيد على أن كان يرد على السفارة بسفارة وعلى الهدية بهدية مثلها .

* * *

وكانت السفارات طويلة الأمد لبعد ما بين المشرق والمغرب وصعوبة الانتقال بينهما فى ذلك الزمان ؛ فالسفارة الأولى استغرقت ما بين عامى ٧٩٧ و ٨٠١ ، وذلك أن شرلمان بعث فى أواخر عام ٧٩٧ وفداً مؤلفا من سفيرين فرنجيين يقال لأحدهما سجسمند وللآخر لنثفرد ومعهما ترجمان يهودى يجيد العربية اسمه إسحق ، وبعث شرلمان إلى الرشيد على لسان الوفد يلتمس أمورا يغلب على الظن أنها ثلاثة :

(١) أن يعهد الرشيد إلى شرلمان بالقيام على المصالح العباسية فيما يغلب عليه شرلمان من أرض الأندلس ، وأن يشد شرلمان أزر الحزب القائم بالدعوة العباسية فى تلك البلاد التى اقتطعها بنو أمية عن ملك بنى العباس .

(٢) أن ينعقد بين العاهلين حلف وتعاون من شأنه أن يطلق يد شرلمان فى ملك بنى أمية بالأندلس ويطلق يد الرشيد فى ملك الدولة البيزنطية بالمشرق .

(٣) أن يسهل الرشيد لزوار بيت المقدس وحجاجه من الفرنجة وأتباع الكنيسة الكاثوليكية سبيل زيارته وحجه ، وأن يعفيهم من القيود والتكاليف التى وضعها الرشيد

إذ ذاك على أهل الذمة ، وأن يحمى أولئك الزوار والحجاج من عدوان الكنيسة الأرثوذكسية البيزنطية .

وتقول المصادر الفرنجية المتقدمة الذكر : إن الوفد عاد من بغداد يحمل موافقة الرشيد على ما طلب شرلمان ، وأن سجسمند ولنشفرد توفيا أثناء العودة ، فعاد اليهودى وحده . على أن الرشيد لم يكتف بصرف وفد شرلمان مكرما بل رد على السفارة بسفارة مثلها ، فأوفد إلى شرلمان سفيرين أحدهما إبراهيم بن الأغلب الذى صار إليه أمر إفريقية ، و بعث معهما إلى شرلمان بهدية تليق بمقام المهدى والمهدى إليه . فيها عطور وتحف شرقية نفيسة وفيها ساعة مائية دقاقة وفيل عظيم الخلق يكنى بأبى العباس . وتقول المصادر الفرنجية إن بطرك بيت المقدس أوفد فى نفس الوقت إلى شرلمان راهبا يحمل إليه علما ومفتاح القبر المقدس ومفاتيح مدينة أورشليم نفسها ، واعتبرت المصادر ذلك بمنزلة نقل للسلطة على بيت المقدس وحمايته إلى العاهل الفرنجى .

أما السفارة الثانية فابتدأت عقب انتهاء السفارة الأولى ، فقد أوفد شرلمان إلى الرشيد فى عام ٨٠٢ (١٨٦ هـ) وفداً كان من بين أعضائه رجل اسمه راد برت ، ولا نعلم بالدقة الغرض من إيفاد هذا الوفد ، ولكنا نعلم أن راد برت المذكور توفى أثناء عودة الوفد إلى مدينة آخن ، وأن الوفد بلغ هذه العاصمة عام ٨٠٦ ، وأن الرشيد قابل هذه السفارة بسفارة مثلها بأن أوفد رسولا تسميه المصادر عبد الله ووجه معه إلى شرلمان بخلعة نفيسة من القصب وبخيمة فاخرة الصنع . ويقال إن الخلعة المذكورة هى التى أدرج فيها بعد جثمان القديس كوثبرت المدفون فى كاتدرائية درهام ، وأنها لا تزال موجودة ، وأنها قد طرزت عليها صور سمك شرقية كما طرزت على حاشيتها بالخط الكوفى الجميل عبارة « لا إله إلا الله » .

وتذكر المصادر الفرنجية سفارة ثالثة بعث بها شرلمان إلى الرشيد فى عام ٨٠٧ ، ولكن الرشيد لم يعش حتى يرد عليها بسفارة من قبله فقد توفى بعد ذلك بعامين ، فتولى الرد عليها ابنه المأمون عندما استتب له أمر الخلافة وذلك حوالى عام ٨١٣ .

ولقد أحصى المؤرخ الروسى بارتولد ما تبقى حتى يومنا من التحف والهدايا التى وجه بها الرشيد إلى صديقه شرلمان فإذا هى تشتمل على الأشياء الآتية : بوق من العاج محفوظ

فى مدينة آخن ، وسيف محفوظ بمدينة ويانة ، وصينية من الذهب محلاة بقطع الزجاج المختلفة الألوان وعليها صورة لخسرو الأول مصنوعة من البللور . وهـذه الصينية محفوظة فى دير سنت دنيس ، وقطع من قطع شطرنج شرقى محفوظة فى الدير المذكور ، وأبريق من الذهب محفوظ فى دير كنتون فلليس ، وثمان شوكات من التاج الشوكى الذى يقال إنهم ألبسوه رأس السيد المسيح عند صلبه .

***

هذه خلاصة ما ترويه المصادر الفرنجية عن العلاقات السياسية والودية بين الرشيد وشرلمـان . وقد اختلف المؤرخون الأوربيون المحدثون من أوائل القرن التاسع عشر حتى وقتنا هذا فى شأن هذه الرواية اختلافا شديداً ، فمن مصدق لها ومكذب . فيوكفيل وبارتولد أميل إلى تكذيبها إلا فى القليل مما أتت به . ورينو وبرهييه وبكلر يصدقونها وإن اختلفوا فى تأويلها . ولـكل من الفريقين حجج يدلى بها فى الدفاع عن رأيه . وأهم ما يحتج به الفريق الأول سكوت المصادر العربية المطلق عن ذكر أى شىء يتصل بهذه العلاقات . ويذهب هذا الفريق إلى أن الهدايا التى يقال إن الرشيد بعث بها إلى شرلمـان إنما افتعلها اليهودى إسحق ، وإن من المستحيل أن ينزل الرشيد عن شىء من حقوقه السياسية لشرلمـان . وأهم ما يحتج به الفريق الثانى انسجام الرواية المذكورة مع الأحوال الدولية العامة فى ختام القرن الثامن الميلادى وبداية القرن التاسع . ويلاحظ بعضهم فى هذه العلاقة البداية التاريخية لعلاقة فرنسا بالشرق الأدنى ، تلك العلاقة التى نمت وتطورت حتى انتهت بالانتداب الفرنسى على سورية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى .

ونحن على وجه العموم نرى رأى الفريق الثانى الذى يعتد بالرواية الفرنجيـة ، ونراها تؤرخ علاقة سياسية نشأت فعلا بين الدولتين العباسية والفرنجية . ولا عبرة بسكوت المصادر العربية ، فالمصادر العربية تكاد تهمل ذكر علاقات الدولة الإسلامية الخارجية إهمالا تاما . وليس يصح فى مقام التدليل التاريخى أن يرفض دليل إيجابى ممكن ومقبول عقلا من أجل دليل سلبى أو ظنى . ثم إن سياق الحوادث العامة فى أواخر القرن الثامن يؤيد الرواية الفرنجية إلى حد بعيد ويظهر الرواية العربية فى مظهر التقصير . فالمستعرض لحوادث الشرق

والغرب لذلك العهد والمتتبع لعلاقة دولها بعضها ببعض يرى أن الدولتين الإسلاميتين العباسية والأموية الأندلسية كانتا أبداً فى مكايدة وخصام مكتم ، ولكن تدل عليه أدلة كثيرة لا يتسع المقام لسردها ؛ كما يلاحظ أن الدولتين النصرانيتين الكبيرتين البيزنطية والفرنجية ، كانتا تقفان بعضهما من بعض نفس الموقف الذى كانت تقفه الدولتان الإسلاميتان بعضهما من بعض . وكانت البابوية منحازة إلى جانب الدولة الفرنجية ، وذلك بسبب الخلاف المذهبي بين كنيستى القسطنطينية ورومية ، و بسبب الثورة التى بعثها أباطرة بيزنطة على عبادة الصور ، وسخط البابوات على هذه الثورة . ثم إن الحروب التى كانت تقع بين الدولتين العباسية والبيزنطية فى الشرق كان يقع ما يشبهها ويشا كلها فى الغرب بين الدولتين الأموية والفرنجية . فطبيعي والحالة هذه أن يتم نوع من التفاهم على أقل تقدير بين أموى الأندلس وأباطرة بيزنطة ، وهو ما تصرح بحصوله المصادر العربية الأندلسية وبخاصة كتاب « نفح الطيب » للمقري . وطبيعى كذلك أن يبعث هذا التفاهم تفاهما مثله على أقل تقدير بين ملوك الدولة الفرنجية وخلفاء الدولة العباسية ، وهو ما تصرح به المصادر الفرنجية التى سبق ذكرها . فقد ظهر إذن أن سكوت المصادر العربية عن أمر العلاقة بين شرلمان والرشيد لا ينهض دليلا على انتفاء هذه العلاقة .

ثم إن الأحداث الدولية التى وقعت فى الشرق والغرب فى ختام القرن الثامن و بداية التاسع مما يؤيد الرواية الفرنجية . فقد حمل شرلمان من حيث هو « حليف » للرشيد على شمال شرق الأندلس ، وأنشأ الثغر الأسبانى على الحد الجنوبى الغربى لفرنسا ، واستبقى عليه عماله من المسلمين ، واستولى على برشلونة عام ٨٠٢ ، وأنشأ علاقات سياسية بينه و بين عمال الثغور الأسبانية مثل سرقسطة وغيرها . كل ذلك فى نفس الوقت الذى شد فيه الرشيد الوطأة على ملك الدولة البيزنطية براً و بحراً ، وحمل نقفور على طلب الصلح والرضا بأداء الجزية وذلك عام ٨٠٤ .

***

بقى أن نوضح للقارئ الاعتبار الشرعى أو « التكييف القانونى » للعلاقة بين الرشيد وشرلمان ، وهو الأمر الذى أشكل على بعض المؤرخين المحدثين مثل برهييه ، ففهم من نصوص الرواية الفرنجية أن الرشيد قد نزل لشرلمان عن حقوقه على الأندلس و بيت المقدس ، غير أن الكاتب الإنجليزى بكلر قد وفق إلى فهم الأمر على حقيقته ، فقد أدرك أن الخلافة هى الولاية الكبرى فى الدولة الإسلامية ، وأن ما سواها من الولايات متفرع عنها وتابع لها ، فمن حيث الولايات الأندلسية لم يزد الرشيد على أن جعل شرلمان « والياً » عليها من قِبَله . ولا يعترض على ذلك بنصرانية شرلمان ، فقد جوز الفقهاء (كالماوردى فى الأحكام السلطانية) للخليفة إقراره أمارة الغصب والاستيلاء ولو كان الغاصب غير مسلم نزولا على حكم الضرورة و بشرط أن يرعى الغاصب مصلحة من فى إمرته من المسلمين . وأمارة شرلمان على الولايات الأندلسية هى فى واقع الأمر من قبيل إمارة الغصب والاستيلاء المذكورة . أما مسألة بيت المقدس فالباحث الخبير بأنظمة الدولة الإسلامية لا يرى فيها أكثر من أن الرشيد عهد إلى شرلمان فى رعاية الشئون الدينية لهذا البلد بدلا من ولاة الأمر البيزنطيين ، وهو أمر يتفق وما جرى عليه المسلمون منذ قامت الدولة الإسلامية حتى وقتنا هذا ، فقد جروا على أن يسندوا إدارة شئون أهل الذمة الدينيـة إلى رجال من أهل الذمة أنفسهم . وإذن فلم يكن ثم نقل لسلطان الرشيد على بيت المقدس إلى شرلمان ولا إنشاء لحماية فرنجية على ذلك البلد تقلدها شرلمان . بل إن حقيقة الأمر أن شرلمان قد وضـع نفسه فى الحالين موضع تابع من أتباع الرشيد وعامل من عماله . وربما كانت الخلعة الفاخرة التى بعث بها الرشيد إليه هى الرمز المادى لتلك السيادة وذلك الخضوع .

***

فإذا عرفنا أن العلاقة السياسية التى وصفناها قد استقرت حوالى عام ٨٠٠ ، وأن البابا قد توّج فى العام المذكور شرلمان امبراطوراً على الدولة الرومانية الغربيـة — على أن يستمد منه العون المادى — وأن الإمبراطور نقفور البيزنطى قد رضى فى عام ٨٠٤ بحمل الجزية

إلى الرشيد ، استبان لنا أن الرشيد لم يعد فى عام ٨٠٤ (١٨٨ هـ) خليفة المسلمين فحسب ، بل لقد أصبح من الوجهة النظرية على أقل تقـدير السيد الأعلى للعالم المسيحى ، وتلك لعمر الحق منزلة لم ينلها مملك قبله ولا بعده على الإطلاق .

وقد يكون طريفاً أن نلاحظ أن العـلاقة بين الرشيد وشرلمان قد نمت وازدهرت وأثمرت فى أواخر القرن الثامن الميلادى ، فهى بذلك تتضمن رداً بليغاً صادراً من أعماق الزمن على دعوى المدعين بأن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا . لقد التقيا وتصافحا منذ أكثر من ألف عام على نحو قد يعجب له أبرع ساسة القرن العشرين .

الرشيد وأبو نواس*

شخصيتان معروفتان مألوفتان عند الخاص والعام ، ومعدودتان من وجوه كثيرة أعجب شخصيات العالم الإسلامى فى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى : الأولى شخصية شاعر عربى أعجمى الأصل تناهت فيه فلسفة الأعاجم الإباحية القائمة على الاستهزاء بالمواضعات والعقائد ، وعلى الاستمتاع باللذة ، مشروعها وغير مشروعها ، مقبولها ومرذولها ، ثم راح يصوغ هذه الفلسفة البائرة المبيرة فى شعر سهل بليغ لم يسبق إليه ولم يلحق فيه . فغدا بحق إمام شعراء مذهب اللذة فى العربية وحامل لوائهم على الإطلاق . أما الشخصية الثانية فشخصية ملك عربى تناهت فيه فلسفة سياسة ذلك الزمان القائمة على الاستبداد ، والجبروت والعصبية ، والعقيدة الجامدة ، مع ما يمتاز به العربى المترف عادة من رق الذوق ، ودقة الإحساس ، ولطف المزاج .

وإذا كانت فلسفة أبى نواس قد عادت عليه بتخرق الخلق ، وشذوذ الشهوة ، فقد عادت على الرشيد فلسفته بصلابة الرأى وجمود العقيدة والتهالك على كل ما يمسك عليه سلطانه خيراً كان أو شراً . من أجل ذلك نستجيز أن نستعير تعبيراً فرنسياً شاع فى أوربا فى أواخر القرن الماضى Fin. desiécle وأعطاه الكاتب الألمانى الأشهر ماكس نوردو طابعاً علمياً خاصاً (١) فنسمى أبا نواس « شاعر آخر الزمان » والرشيد « ملك آخر الزمان » كذلك . ولأمر ما شاءت الأقدار أن يفارق كل منهما هذه الدنيا فى العقد الأخير من القرن الثانى الهجرى .

جمعت بين هاتين الشخصيتين العجيبتين جوامع الزمان والمكان والفن ، ولكن باعدت بينهما مقتضيات فلسفة كل منهما . فترددت الصلة بينهما بين السلب والإيجاب ، والوجود والعدم ، وهذا هو المؤتلف مع فلسفة الرجلين والمتفق مع الثابت المستيقن من

(*) مجلة الهلال أغسطس ١٩٣٦ .

(١) فى كتابه « الانحلال » Degeneration : الباب الأول ومؤداه التحلل من قيود العرف والأخلاق .

أخبارها . بيد أن أخباراً محرفة منحولة تؤكد توثق الصلة بينهما إلى المدى الذى يكون عادة بين الأوداء والخلطاء ، غير مبالية ما بين الرجلين من تفاوت فى فلسفة الحياة واختلاف فى المزاج . كما أن طائفة عظيمة أخرى من الحكايات أبدعها خيال القصاص فى شتى العصور الإسلامية قد ذهبت فى تصوير الصلة بين أبى نواس والرشيد كل مذهب مطرحة كل اعتبار ، اللهم إلا اعتبار الرغبة فى تفكهة القارىء و إمتاعه . . والآن فلنعرض لكل ذلك بشىء من التفصيل .

ولد أبو نواس بالأهواز حوالى عام ١٤٠ ونشأ وتعلم بالبصرة . ثم ارتحل إلى البادية فى طلب اللغة وفصاحة اللسان . ثم انتقل إلى الكوفة للأخذ عن علمائها . فلما اكتملت مواهبه ونضج شعره ارتحل إلى بغداد بلد العلم والأدب والسياسة العليا فى ذلك الزمان كما كانت بلد الحياة الماجنة الخليعة التى يؤثرها من كان مثل أبى نواس . فاتخذها الشاعر مهاجراً ولزمها حتى آخر حياته إذا استثنينا رحلته القصيرة إلى مصر . والظاهر أن هجرته إلى بغداد كانت حوالى عام ١٧٩ (١) على أكثر تقدير ، أى فى الوقت الذى كان البرامكة فيه قابضين على زمام الأمر فى الدولة الإسلامية ، فكان طبيعياً أن يتوجه إليهم أبو نواس بشعره وقد مدحهم ونال جوائزهم السنية . وكان آخر شعر مدحهم به قصيدته المشهورة التى مطلعها :

أربع البلى إن الخشوع لباد عليك ، وإنى لم أخنك ودادى

قالوا ولما سمعها الفضل بن يحيى تطير منها تطيراً شديداً . ولم يمض أسبوع على سماعه لها حتى نكب ونكب معه قومه . ونحن نعرف أن نكبة البرامكة كانت عام ١٨٧ ، وإذاً يمكن القول أن أبا نواس منذ دخوله بغداد عام ١٧٩ إلى عام ١٨٧ كان يخص البرامكة من بين رجال الدولة بشعره ، وأنه لم يتوجه إلى الرشيد بمدحة فى تلك السنوات الثمان . والحق أننا لا نجد فى ديوانه شعراً قاله فى الرشيد ويمكن رده إلى تلك الفترة ، ولا عبرة بتلك الأبيات التى قالها أبو نواس فى عام ١٧٩ يحث الرشيد على استحجاب الفضل بن الربيع (٢) :

قولا لهارون إمام الهدى عند احتفال المجلس الحاشد

---

(١) وذلك مستفاد من قوله يخاطب جعفر بن الربيع :

ولا تجحدوا بى ود عشرين حجة ولا تفسدوا ما كان منكم من الفضل

(٢) ذكر الطبرى أن الرشيد عزل فى عام ١٧٩ محمد بن خالد برمك عن الحجبة وولاها الفضل بن الربيع .

أنت على ما بك من قدرة　　　فلست مثل الفضل بالواجد
ليس على الله بمستنكر　　　أن يجمع العالم فى واحد

فهى فى الواقع مدح فى الفضل بن الربيع ، وقد أوردها جامع ديوان أبى نواس على أنها كذلك .

فلما دالت دولة البرامكة وقامت دولة آل الربيع واستبد الرشيد بالأمر دار أبو نواس مع الفلك الدوار وأقبل يمدح رجال العهد الجديد وعلى رأسهم الخليفة نفسه ، وكان ذلك بدء اتصاله الأدبى بالرشيد . ومن أوائل ما مدحه به قوله من قصيدة :

إنى حلفت عليك جهد ألية　　　قسما بكل مقصر ومحلق
لقد اتقيت الله حق تقاته　　　وجهدت نفسك فوق جهد المتقى
وأخفت أهل الشرك حتى إنه　　　لتخافك النطف التى لم تخلق
وصناعة الشعراء إن أنفقتها　　　نفقت وإن أكسدتها لم تنفق

وقوله من قصيدة أخرى :

تبارك من ساس الأمور بعلمه　　　وفضل هارونا على الخلفاء
نعيش بخير ما انطوينا على التقى　　　وما ساس دنيانا أبو الأمناء
إمام يخاف الله حتى كأنما　　　يؤمل رؤياه صباح مساء

وقوله من قصيدة ثالثة :

هارون ألفنا ائتلاف مودة　　　ماتت لها الأحقاد والأضغان
فى كل عام غزوة ووفادة　　　تنبت بين نواهما الأقران
حج وغزو مات بينهما الكرى　　　باليعملات شعارها الوخدان

وهذا الشعر كله يدل على أن أبا نواس إنما مدح به الرشيد عند ما ظهر الرشيد بمظهر البأس والجبروت ، وعند ما غدا مخوفا مرهوبا لا تؤمن بوائقه ، وعند ما جد فى جهد الروم وأذل عاملهم ، وعند ما أصبحت بضاعة الشعراء رهن مشيئته ، إن شاء نفقت وإن شاء كسدت . والرشيد إنما ظهر بكل ذلك بعقب إيقاعه بالبرامكة . بل إن المصادر التاريخية نفسها تعيننا على تاريخ القصائد الثلاث المذكورة . فالراجح أن القصيدة الأولى مدح بها

أبو نواس الرشيد عام ١٨٧ عند ما انتصر الرشيد على نقفور البيزنطى انتصاره المشهور[١]
أما القصيدة الثانية فثابت أن الشاعر نظمها عام ١٨٩ عند ما أخذ الرشيد البيعة بولاية العهد لابنه القاسم ولقبه بالمؤتمن[٢] ، وأما القصيدة الثالثة فقالها عام ١٩٠ عند ما اتخذ الرشيد قلنسوة مكتوباً عليها « غاز حاج »[٣] .

على أن هذه المدائح وغيرها من شعر أبى نواس فى الرشيد لم تعد أن تكون من قبيل الشعر الرسمى الذى يقال فى الظروف والمناسبات الخاصة . وليس فيها ولا فى عامة شعر أبى نواس ما يفيد أن أبا نواس تجاوز فى علاقته بالرشيد هذه الحالة إلى أن يكون من شعراء البلاط فضلا عن أن يكون من جلساء الرشيد وندمائه . بل ليس فى شعر أبى نواس ولا فى الثبت من أخباره ما يفيد أنه كان ينشد الرشيد شعره إنشاداً على نحو ما كان يفعل بعض معاصريه أمثال أبى العتاهية ومروان بن أبى حفصة مثلا[٤] . لقد كان ثم أمور تحول بين أبى نواس و بين هذه الغاية . لقد كان أبو نواس قبيح السيرة ، ماجنا ، سكيراً متهماً فى نفسه مقيما بحانات الكرخ ومواخيره يشرب الخمر و يعبث بالغلمان ، وكان يصرح بكل ذلك فى شعره وخاصة خمرياته حتى شاع أمره فى بغداد . ثم إنه قد خاض فى أمر العصبية العربية وتقلب فيها تقلبا منكراً ، فادعى أول الأمر نسب النزارية وهجا اليمن ثم عاد فادعى نسب اليمن وهجا النزارية بقصيدة قوية أولها :

ليست بدار عفت وغيرها ضربان من قطرها وحاصبها

ثم صار شعوبيا و برىء من العرب قاطبة وهجاهم وادعى الأعجمية[٥] . وسبب ثالث قعد به عن الاتصال بالرشيد ، هو فساد عقيدته وزندقته ومجاهرته فى شعره بآراء الثنوية . فهذه الأمور كلها لم تكن لتجعل الرشيد يقبل على أبى نواس و يأذن له فى غشيان حضرته و إنشاده ، وهو بعد الحريص على مظهره الإسلامى ، المتزمت فى أمر العرض والشرف ، الفخور بنسبه العربى النزارى القرشى . والحق أن الرشيد من حيث هو خليفة المسلمين وحارس الدين والآداب ، لم يتردد فى الضرب على يد أبى نواس ، وفى أن يمسه من حين لآخر ببعض

---

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٩٢ — ٩٣ . (٢) ج ١٠ ص ٩٦ . (٣) الطبرى ج ١٠ ص ٩٩
(٤) الطبرى ج ١٠ ص ٩٢ — ٩٣ .
(٥) أخبار أبى نواس الورقة ٨٥ من النسخة الخطية المحفوظة بدار الكتب المصرية .

العقاب ؛ فقد رووا أنه حبسه فى شرب الخمر[1] وأنه حبسه طويلا بسبب قصيدته التى هجا بها النزارية ، وأنه حبسه كذلك من أجل جهره بالزندقة وعقائد الثنوية ، وكان حساده وأعداؤه من جلساء الرشيد يقعون فيه عند الخليفة من هذه الناحية الدقيقة الحساسة . رووا[2] أن الرشيد جلس مجلسا وأفاض من حضره فى المطبوعين من شعراء المحدثين ، إلى أن اتصل الذكر بالحسن بن هانىء فغمز عليه سليمان بن جعفر ، فقال : يا أمير المؤمنين ! كافر بالله . لا يرعوى عن منكر ولا يأنف من فاحشة . وقد نمى إلى أمير المؤمنين خبره . فقال : يا أبا عمر ! هل تروى عنه من ذلك شيئاً ؟ قال : نعم ! قوله يا أمير المؤمنين :

يا ناظراً فى الدين ما الأمر لاقدر صح ولا جبر
ما صح عندى من جميع الذى يذكر إلا الموت والقبر

ثم أنشده قوله أيضا :

باح لسانى بمضمر السر وذاك أنى أقول بالدهر
وليس بعد الممات مرتجع وإنما الموت بيضة العقر

فاستشاط الرشيد غضبا . وقال : على بابن الفاعلة . يا فضل ! لا يفوتنك الزنديق ! ونمى إلى أبى نواس الخبر فساخ فى الأرض ، فلم يقدر عليه أحد . فقال رجل من جلساء الرشيد : إن أذن أمير المؤمنين أنشدته من قول هذا الفاسق ما هو أشنع مما سمع . قال : هات ! قال : قوله فى غلام نصرانى :

تمر فأستحييك أن أتكلما ويثنيك زهو الحسن عن أن تسلما
ويهتز فى ثوبيك كل عشية قضيب من الريحان شب منعما
بحسبك أن الجسم قد شفه الضنى وأن جفونى فيك قد ذرفت دما
أليس عظيماً عند كل موحد غزال مسيحى يعذب مسلما
فلولا دخول النار بعد مصيره عبدت مكان الله عيسى بن مريما

---

(١) أخبار أبى نواس ص ١٠٩ من الجزء الأول المطبوع .
(٢) أخبار أبى نواس الورقة ١٠١ من النسخة المحفوظة بدار الكتب المصرية .

فازداد حنق الرشيد عليه . فقال : يا أمير المؤمنين ! وأشنع من ذلك ، قال : هات ! فأنشده قوله فى غلام نصرانى :

وملحة بالعـذل ذات نصيحة   ترجـو إنابة ذى مجون مارق
بكرت تبصرنى الرشاد وهمتى   غير الرشاد ومـذهبى وخلائقى
فأجبتها كفى مـلامك إننى   مختـــار دين أقسة وجثالق
والله لولا أننى متخوف   أن أبتلى . . . . .

وقطع الإنشاد ، فقال له الرشيد : بماذا ، ويلك ! فاستعفاه ، فقال : ويلك ! بماذا ؟ فقال :

. . . . . . بإمام جـور فاسق

قال فضج المجلس بأهله . وأنكر الرشيد نفسه . ثم قال : امض ! فقال :

لتبعته فى دينه ودخلته   ببصيرة منى دخول الوامق
إنى لأعـلم أن ربى لم يكن   ليخصهم إلا بدين صادق

فقال الرشيد للفضل بن يزيد بن المنصور : إن لم يبت هذا الـكلب فى المطبق لتنكرن قولا وفعلا . فوجه الفضل (فى طلبه) من ساعته ، فأخذ وأودع المطبق ثم أعانه الفضل بن الربيع إلى أن أطلق ، فقال فى ذلك :

الله فرج لى برأى الـ   فضل من حلق الـكبول
وأقالنى عنت العثـــا   ر وقد أيست من المقيـل

والظاهر أن أبا نواس قال فى ورطته هذه يستعطف الرشيد قصيدته التى يقول فيها :

بعفـوك لا بجودك عـذت لا بل   بفضلك يا أمير المـــؤمنينا
فلا يتعـذرن على عفـــو   وسعت به جميـــع العالمينا

على أن الرشيد لم يكن بالرجل الذى يخفى عليـه مكان أبى نواس من الأدب والشعر خاصة . لقد كان الرشيد نفسه ذا بصر بالشعر عليما بمراتب الشعراء شديد العطف عليهم والرعاية لهم . وكان فى قرارة نفسه عظيم الإعجاب بفن أبى نواس مؤمناً بأنه أمام شعراء زمانه

غير مدافع . قال إسماعيل بن صبيح[1] قال لى الرشيد : يا إسماعيل ! ابغنى وصيفة مليحة فطنة شكلة حلوة متكلمة ظريفة عالمة تسقينى ، فإن الشرب يطيب من يد مثلها . قال : فقلت يا سيدى ! على الجهد . فقال : اجعل قول هذا العيار أمامك — يريد أبا نواس — وامتثل فيها ما حد فى مثلها . فقلت يا سيدى ! وما قوله ؟ قال :

من كف ساقية ناهيك ساقية ... فى حسن قد وفى ظرف وفى أدب
كانت لرب قيان ذى معاينة ... بالكشح محترف بالكشح مكتسب
حتى إذا ما غلى ماء الشباب بها ... وأفعمت فى تمام الجسم والعصب
وجمشت بخفى اللحظ فانجمشت ... وجرت الوعد بين الصدق والكذب
تمت فلم ير إنسان لها شبهاً ... فيمن برا الله من عجم ومن عرب
تلك التى لو خلت من عين قيمها ... لم أقض منها ولا من حبها أربى

من أجل هذا التقدير الفنى المحض كان الرشيد لا يبلغ من عقوبة أبى نواس المبلغ الذى يقتضيه نص الشرع . فكان يجازيه على مجونه ، واستهتاره ، ومجاهرته بالمعاصى فى شعره ، بمجرد الحبس . ومع ذلك كان إذا كتب إليه أبو نواس من السجن يستعطفه ، أو شفع عنده شفيعاً ذا خطر ، أقال عثرته وقبل شفاعته فيه وأمر بتخلية سبيله . بل لقد بلغ الأمر بالرشيد أن انزعج عندما أرجف أهل بغداد بأن أبا نواس قد قتل . قال يوسف بن الداية[2] : غاب أبو نواس عنا وعن إخوانه غيبة طويلة ، فلم نعلم له خبراً وجعلنا نسأل عن أمره فلم نعلم له أثراً . حتى مضت له سنة فظنوا أنه قتل ، و بلغ ذلك الرشيد فقال : والله إن صح أنه قتل لأقتلن قاتله ولو كان محمداً (يريد ابنه الأمين) انظروا كل من هجاه من الناس فاكتبوا اسمه وارفعوه إلى ؟ فارتجت بذلك بغداد . فلما كان على رأس الحول إذا نحن به قد وافى . فقلنا له : يا أبا على ! قد غبت هذه الغيبة عنا فغممتنا وظننا بك الظنون . قال : كنت فى بيتى . قلنا : ألم تسمع بغمنا لك وقول الرشيد فيك ؟ فلم يبق أحد من إخوانه إلا عذله ، وقالوا : إن فى هذا تعريضاً لنفسك للآفات ، فأنشأ يقول :

---

(١) أخبار أبى نواس الورقة ٦٩ من النسخة المحفوظة بدار الكتب المصرية .
(٢) أخبار أبى نواس : الورقة ٩٨ من النسخة الخطية المحفوظة بدار الكتب المصرية .

إنى لفى شغل عن العالمين   بالروح والريحان والياســـمين

إلى آخر القصيدة :

* * *

وجملة القول أن أبا نواس كان يحرص على أن يخلد بعض شعره بنظمه فى تلك الشخصية الساطعة المتلألئة ، شخصية الخليفة هارون الرشيد . ولـكنه كان يعلم ألا سبيل له إلى الاتصال بتلك الشخصية فوق هـذا القدر . فكان يمدح الرشيد ويستعطفه ولـكن « من بعيد » . أما الرشيد فكان يقدر فن أبى نواس ويعجب به أشد الإعجاب ، ولـكنه للأسباب التى سبق ذكرها كان لا يستطيع أو لا يريد الذهاب إلى أبعد من حد التقـدير والإعجاب ، فكان يسمع شعره وينقده[1] ويعجب به ، ولـكن « من بعيد » كذلك . تلك حقيقة الصلة بين أبى نواس والرشيد وذلك مقدار مداها .

* * *

على أن هناك طائفة من الأخبار تزعم أن أبا نواس كان وثيق الصلة بالرشيد ، وأنه كان يدخل عليه ويجالسه وينادمه وأنه كان ملازما لقصره وأن له وقائع ونوادر مع حرم الرشيد وجواريه . وعندى أن بعض هذه الأخبار يصح إذا وضعنا مكان «الرشيد» لفظ «الأمين» فلا شك أن أبا نواس كان ملازماً لقصر الأمين ينادمه ويجالسه ويشاربه ، إلى حد أن استغل المأمون تلك الصلة فى التشنيع على الأمين بخراسان[2] عند ما استحكمت النفرة بين الأخوين . وقد دعا ذلك الأمين آخر الأمر إلى التشديد على أبى نواس فى ترك الخمر وإلى حبسه عند ما كان يعصى أمره . وقد أشار أبو نواس إلى ذلك فى شعره . وقد يكون بعض هذه الأخبار صحيحاً كذلك إذا وضعنا مكان اسم أبى نواس اسم «ابن أبى مريم المدنى»[3] وكان رجلا مضحاكا فكها منقطعاً إلى الرشيد فى أواخر حياته يسليه ويفرج همومه بنكاته وطريف أحاديثه .

---

(١) ديوان أبى نواس : هامش ص ٧٣ (طبع المطبعة العمومية) .
(٢) أخبار أبى نواس : الورقة ٧٢ (من النسخة الخطية) .
(٣) الطبرى ج ١٠ ص ١١٤ .

وهناك مجموعة أخرى من الحكايات والنوادر تدور حول العلاقة بين أبى نواس والرشيد وقد أبدعها الخيال فى العصور الإسلامية المختلفة . هذه الحكايات لا نجد لها أثراً ما فى كتب الأدب والتاريخ المعتمدة كالأغانى والعقد الفريد ، ولكنها حفلت بها كتب القصص وخاصة كتابى « ألف ليلة وليلة » و « أعلام الناس » وهى تصور أبا نواس فى صورة رجل مضحاك يفكه الخليفة بأشعاره الطلية المرتجلة ويضحكه بنوادره المستملحة . ولو أجاد واضعو هذه الحكايات السبك لنسبوها إلى ابن أبى مريم المدنى المذكور ، ولكنهم نسبوها خطأً إلى أبى نواس . قال ابن منظور صاحب « لسان العرب » ومؤلف كتاب « أخبار أبى نواس »[1] : وقال بعض المترجين ممن يحيط علماً بأحوال أبى نواس « إن هذه الحكايات عن أبى نواس والرشيد موضوعات ، وأن أبا نواس ما دخل على الرشيد قط ولا رآه وإنما دخل على محمد الأمين » .

وإذا كان ابن منظور قد بالغ على ما يظهر فى نفيه عن أبى نواس رؤية الرشيد فلا شك أن عباراته فيما دون ذلك صادقة الصدق كله .

---

(١) السفر الأول المطبوع ص ٢١٧

مع أبى نواس الزاهد*

شعرت من أيام بضيق فى الصدر ، وحرج فى النفس ، وما أكثر ما يضيق صدر الإنسان وتحرج نفسه فى هـذه الأيام التى لا تنفك تغادينا وتراوحنا بأنباء حروب نكراء ، وغارات شعواء ! فتناولت ديوان الحسن بن هانئ الشهير بأبى نواس ، لعلى أجد فى دعاباته ونظراته الهازلة الهازئة بهموم الحياة فرجا مما دهمنى ، ومخرجا مما نزل بى .

وأقبلت أنظر فى فهرسه لأتخير منه بابا أقرؤه أو أقرأ فيه ، فرأيته يشتمل على أحد عشر بابا ، فى نقائضه مع الشعراء ، والمديح ، والمراثى ، والعتاب ، والهجاء ، والزهد ، والطرد ، والخمريات ، والمجون ، وغزل المؤنث ، وغزل المذكر . وما أسرع ما استوقف نظرى أن يكون الزهد من بين أبواب الشعر التى طرقها أبو نواس ! وقلت فى نفسى : يا عجبا ! أبو نواس الماجن الهجّاء ، والسكّير العربيد ، يكون ناسكا وزاهداً ! هـذه ظاهرة نفسية طريفة ، وناحية من حياة ذلك الشاعر خطيرة ، لم ألق لها بالا من قبل ، ولعل غيرى لم يلق لها بالا كذلك . فالمتعارف المشهور عن الحسن بن هانئ أنه مستهتر مسرف على نفسه ، قد ضجت من استهتاره حانات الكرخ ، وديارات العراق .

* * *

وفتحت باب الزهد وأخذت أقرأ فيه وأقرأ ، حتى أتيت عليه قراءة ، فإذا هو يقع فى بضع عشرة صفحة كبيرة ، وإذا موضوعاته هى نفس الموضوعات التى يقول فيها الزهاد عادة : من أسف على تضييع ما يجب على العبد نحو خالقه ، وترك الانزجار بالشيب والاتعاظ بالموت ، والتزهيد فى الدنيا ، والتحذير منها ، والتذكير بالبعث بعد الموت ، والتخويف من يوم الحساب . ولقد وقع فى نفسى أن هـذا الباب ربما كان موضوعاً على أبى نواس ، وأن الشاعر قد نحله كما نحل كثيراً غيره من الشعر . فأعدت قراءة الباب فى ضوء ما أعلم من

(*) الثقافة ١٣١ ، ١ يوليه سنة ١٩٤١ .

صناعة أبي نواس ، فعرفت فيه الصناعة النواسية نظماً ومعنى وروحاً . ثم وسعت أفق اطلاعى على المراجع التى عنيت بترجمة أبى نواس وذكر أخباره ، فوجدت غير واحد من أئمة النقد المعاصرين لأبى نواس يثنون الثناء الجم على بعض زهدياته . فهذا الجاحظ يقول : لا أعرف من كلام الشعراء كلاماً هو أوقع ولا أحسن من قول أبى نواس :

أية نار قدح القادح وأى جد بلغ المازح
لله در الشيب من واعظ وناصح لو حذر الناصح
يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ومنهج الحق له واضح

وهذا أبو العتاهية أكثر الشعراء قولًا فى الزهد يقول : قد قلت عشرين ألف بيت فى الزهد ، ووددت أن لى مكانها الأبيات الثلاثة التى قالها أبو نواس وهى :

يا نواسىّ توقر وتعز وتصبر
إن يكن ساءك دهر إن ما سرك أكثر
يا كبير الذنب عفو اللـه من عفوك أكبر

وهذا الخليفة المأمون يقول : لو سئلت الدنيا عن نفسها فنطقت لما وصفت نفسها إلا كما وصفها أبو نواس فى قوله :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو فى ثياب صديق

وإذاً فزهديات أبى نواس هى زهدياته حقاً . فما الذى حدث يا ترى حتى تحول هذا الأبيقورى الذاهب فى مذهب اللذة إلى أقصى حدوده ، حتى استحال زاهداً ناسكاً ، وحتى أصبح يصرف القول فى أمور الزهد والتقوى ، والموت والبعث ، والثواب والعقاب ، بعد أن لبث دهراً طويلاً يسخر شاعريته فى نعت الكاس والطاس ، والغلمان والجوارى ، وهجو الناس والتهجم على مواضع الضعف منهم .

ألأن أبا نواس قد مل ارتكاب المعاصى ومقارفة الذنوب ، وكل شىء طال فهو لا محالة مملول ؟ قد يكون ذلك ، فهو الذى يقول :

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم وأسمت سرح اللهو حيث أساموا
وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه فإذا عصارة كل ذاك أثام

أم أن تقدم السن ونذر المشيب وتهدم الجسم هى سر هذا التحول ؟ ربما كان الأمر كذلك ، فليس من شك فى أن أبا نواس توفر على قول الشعر فى الزهد بعد أن جاوز الخمسين من عمره . ولعمرى إن خمسين سنة من عمر أبى نواس لتعدل سبعين أو ثمانين من عمر رجل وادع الحياة هادئها ، ثم هو بعدُ الذى يقول :

لله در الشيب من واعظ   وناصح لو حذر الناصح

أم أن أحداث الزمن وعبر الدهر ، وما شهد أبو نواس فى أخريات حياته من نكبة البرامكة ، وموت الرشيد ، ووقوع العداوة بين الأمين والمأمون ، ومقتل الأمين على شر حال ، هى السبب الأقوى فى اعتقاده أن الدنيا خداعة غرارة ، لا يأمن مكرها قوى ولا ضعيف ، ولا ينجو من غدرها غنى ولا فقير ؟ ربما كان الأمر كذلك ، فهو الذى يقول :

أيا رُب وجه فى التراب عتيق   ويا رب حسن فى التراب رقيق
ويا رب حزم فى التراب ونجدة   ويا رب رأى فى التراب وثيق
ألا كل حىٍّ هالكٌ وابن هالك   وذو نسب فى الهالكين عريق
فقل لقريب الدار إنك راحل   إلى منزل نائى المحل سحيق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت   له عَن عدو فى ثياب صديق

***

ومهما يكن من شىء ، فهذه الأمور كلها متفرقة أو مجتمعة ، لا تكفى وحدها فى تعليل زهد أبى نواس وتنسكه . وأرى أنها كانت تقع على غير موقع إذا لم تصادف من نفسه استعداداً للتأثر بها ، هذا الاستعداد هو ضالة الباحث فى هذا التحول فى حياة شاعرنا الكبير ، وهو الأمر الذى أحب أن أنبه عليه وألفت النظر إليه .

لقد كان أبو نواس على الرغم من إسرافه واستهتاره مؤمناً فى قرارة نفسه ، والمعصية لا تنافى الإيمان — فى شرعة العقل على أقل تقدير .

ولإيمان أبى نواس مصدران اثنان : الاعتقاد القلبى ، والنظر العقلى . أما الاعتقاد القلبى فأبو نواس فنان عبقرى من غير نزاع ، وعباقرة الفنانين لا يتأتى لهم الإبداع والإلهام

إلا بنوع من الإيمان نعرفه فى ذلك الإشراق وتلك الوضاءة التى نطالعها فيا ينتجون من شعر ونثر ونغم ورسم وغير ذلك من ضروب الفن الجميل .

أما المصدر الثانى وهو النظر العقلى ، فذلك أن أبا نواس لم يكن فناناً عبقرياً فحسب ، بل كان فوق ذلك عالماً متمكناً من علوم زمانه ، من لغة وأخبار وحديث وفقه وفلسفة ؛ وقد ورد فى شعره ذكر الجبر والقدر والتناهى والتجدد ، والجزء الذى لا يتجزأ ، وطائفة من أخبار القدماء وصدر الإسلام وعلماء المسلمين . وقد بلغ من شأنه فى ذلك أن ود بعض العلماء المعاصرين له الأخذ عنه ، لولا ما عرف به من مجون وانحراف عن الجادة . ولا يعدم من يقرأ أخباره وخمرياته ومجونياته أن يجد فى مواضع كثيرة منها تصريحه بأنه يؤمن بإله واحد غفور رحيم ، من ذلك قوله وهو فى مقتبل عمره وجدة أمره :

تكثر ما استطعت من الخطايا   فإنك بالغ رباً غفـــــورا
ستبصر إن وردت عليه عفواً   وتلقى سيداً ملـكا كبيرا
تعض ندامة كفيــــك مما   تركت مخافة النار السرورا

ولينظر القارئ كيف يختم قصيدة له ضمنها ما شاء من ذكر مغامرته واستهتاره ، فهو يقول فى ختامها :

حتى إذا الشيب فاجانى بطلعته   أقبح بطلعة شيب غير مبخوت
فقد ندمت على ما كان من خطل   ومن إضاعة مكتوب المواقيت
أدعوك سبحانك اللهم فاعف كما   عفوت ياذا العلا عن صاحب الحوت

ويروى الخطيب فى تاريخ بغداد أن أبا نواس خرج فى أصحاب له إلى مكان طيب نزه ، فجعل أصحابه يصفون الجنة ونعيمها ، والمعاصى التى تحول دونها ، كل ذلك وأبو نواس ساكت ، ثم قال :

يا ناظراً فى الدين ! ما الأمر ؟   لا قـدر صح ولا جـبر
ما صح عندى من جميع الذى   تذكر إلا الموت والقـبر

قال فامتعضت الجماعة من قوله ، وأطالت توبيخه . فقال أبو نواس : ويلـكم ! إنى والله لأعلم ما تقولون ، ولـكن المجون يفرط على ، وأرجو أن أتوب ويرحمنى الله .

والواقع أن أبا نواس كان دائم الاستصحاب لقوله تعالى : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم » . كما أنه اختار من بين المذاهب الكلامية التى ظهرت إذ ذاك مذهباً يلائم حاله ومزاجه . لقد كان الخوارج يكفرون صاحب الكبيرة . وكان المعتزلة يرونه بمنزلة بين الكفر والإيمان . وكان أهل السنة والجماعة يعتبرونه مؤمناً فسق بارتكاب المعاصى . أما المرجئة فكانوا يقولون إنه لا تضر مع الإيمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة ، وكانوا يؤملون عفو الله لكل مؤمن عاص . ومن ثم اختار أبو نواس عقيدة المرجئة ، وعبر عن عقيدته هذه فى مواضع من شعره :

فقل لمن يدّعى فى العلم فلسفة ... حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء
لا تحظر العفو إن كنت امرأً حرجا ... فإن حظركه فى الدين إزراء

غير أنى على الإساءة والتفـــريط راج لحسن عفو الله

***

وإذاً فالعوامل التى ذكرناها من سآمة المعاصى وتقدم السن وتتابع الأحداث وتهدم القوى ، قد وقعت من نفس أبى نواس موقعاً ، وصادفت من نفسه استعداداً . غير أن الفضل فى هذا الوقوع وفى توجيه أبى نواس وجهة الصلاح وإخراج إيمانه من القول إلى الفعل يرجع إلى رجل كان بينه وبين أبى نواس صلة صداقة وإعجاب معاً ، ذلك هو الفضل ابن الربيع وزير الرشيد ثم الأمين ، لقد نبه أبو نواس الرشيد على كفاية الفضل بن الربيع بمقطوعة من شعره مذكورة فى ديوانه ، فعرف له الفضل تلك اليد ، فلما ولى الأمين الخلافة أوصل إليه أبا نواس . فلما وقعت النفرة بين الأمين والمأمون ، وندد المأمون فى خطبه بالصلة التى بين الأمين وأبى نواس ، اشتد ذلك على الأمين ، حتى لقد هم بقتل أبى نواس ، ثم بدا له فأمر به إلى السجن ، وشدد عليه فى ترك الخمر ، ثم خلصه من السجن الفضل بن الربيع بعد أن استتابه . وقد أشاد أبو نواس بهذه اليد التى أولاه إياها الفضل فى شعره أيما إشادة :

أبا العباس ما ظنى بشكرى ... إذا ما كنت تعفو بالذميم
وإنى والذى حاولت منى ... لمعوج دفعت إلى مقيم

وكنت أباً سوى أن لم تلدنى   رحيماً أو أبرّ من الرحيم

وقال — ولا يخلو قوله من تصوير فكاهى لشخصه فى طوره الجديد :

أنت يا ابن الربيع ألزمتنى النسـ   ـك وعودتنيه والخير عاده
فارعوى باطلى وأقصر جهلى   وتبدلت عفة وزهاده
لو ترانى ذكرت للحسن البصرىّ   فى حسن سمته أو قتاده
المسابيح فى ذراعى والمصحـ   ـف فى لبتى مكان القلاده
وإذا شئت أن ترى طرفة تعـ   ـجب منها مليحة مستفاده
فادع بى لا عدمت تقويم مثلى   وتفطن لموضع السجاده
تر أثراً من الصلاة بوجهى   توقن النفس أنها من عباده
لو رآها بعض المرائين يوماً   لاشتراها يعدها للشهاده
ولقد طال ما شقيت ولكن   أدركتنى على يديك السعاده

***

أما وقد تاب أبو نواس توبة نصوحاً ، وارعوى باطله ، واستقامت طريقته ، فقد أحب أن يتوج حياته بحجة إلى بيت الله الحرام ، يمحو بها خطاياه ، ويفتتح بها صحيفة من حياته نقية بيضاء ، أمل ألا يكتب له فيها إلا كل ما هو خير له . وانتهز فرصة خروج حاميه وراعيه الفضل بن الربيع للحج ، فخرج فى صحبته . ولقد حج أبو نواس فى صباه أيام كان فتى من فتيان البصرة ، ولكن شتان بين الحجتين . لقد حج بالأمس لا رغبة فى مثوبة ، ولكن من أجل جارية بصرية اسمها (جنان) أحبها وتيمه حبها ، فلما علم بحجها خرج فى أثرها . وأما هذه المرة فحجه حج تائب منيب إلى الله . والرواة ينحلون حجته الأولى تلبية نظمها أبو نواس ولبى بها من سمعها من الحجيج . ولكن لا شك أن ذلك غلط من الرواة ، وأن تلك التلبية الحارة إنما نظمها أبو نواس فى حجته الثانية . وها هى ذى تلك التلبية الجميلة التى يصح أن تكون نشيداً للحج لمن أراد للحج نشيداً . قال أبو نواس :

إلهنا ! ما أعدلك !   مليك كل من ملك
لبيك قد لبيت لك   لبيك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك

ما خاب عبـــد أمّلك أنت له حيث ســلك
لولاك يا رب هــلك لبيك إن الحمــد لك
والملك لا شريك لك

كل نبي ومــلك وكل من أهلّ لك
سبّح أو لبّى فلك لبيك إن الحمــد لك
والملك لا شريك لك

والليل لما أن حلك والسابحات فى الفــلك
على مجــارى المنسلك لبيك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك

يا خاطــئاً ما أغفلك عجّــل وبادر أملك
واختم بخير عملــك لبيــك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك

***

ويعود أبو نواس من حجه فلا تطول حياته ، بل يشتمل عليه مرضه الذى مات فيه سنة ١٩٨ ﻫ على أرجح الروايات عندنا . وكانت علته على ما يؤخذ من وصفه لها علة السل :

دب فىَّ الفناء سفلاً وعــلوا وأرانى أموت عضـواً فعضوا
ليس من ساعة مضت لى إلا نقصتنى بمــرّها بى جُزوا
ذهبت جـدتى بطاعة نفسى وتذكرت طاعة الله نِضـوا
لهف نفسى على ليــال وأيا م تمليتهن لعــباً ولهـوا
قد أسأنا كل الإساءة فالله م صفحاً عنــا وغفراً وعفوا

وما تسامع أعيان بغداد باشتداد علته حتى توافوا إلى داره يعودونه ، وكان من بينهم الإمام الشافعى الذى كان إذ ذاك ببغداد . ويروى الخطيب البغدادى أن صديقاً لأبى نواس اسمه محمد بن نافع قال : كان أبو نواس لى صديقاً فوقعت بينى وبينه هجرة فى آخر عمره ، ثم بلغتنى وفاته فتضاعف على الحزن ؛ فبينا أنا بين النائم واليقظان ، إذا أنا به ، فقلت :

أبا نواس ! قال لات حين كنية ! قلت : الحسن بن هانئ ! قال نعم ! قلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى بأبيات قلتها تحت ثنى الوسادة ، فأتيت أهله ، فلما أحسوا بى أجهشوا بالبكاء ، فقلت لهم : هل قال أخى شعراً قبل موته ؟ قالوا : لا نعلم ، إلا أنه دعا بدواة وقرطاس وكتب شيئاً لا ندرى ما هو . قلت : أفتأذنون لى فأدخل ؟ قال فدخلت إلى مرقده فإذا ثيابه لم تحرك بعد ، فرفعت وسادة فلم أر شيئاً ، فرفعت أخرى فإذا برقعة فيها مكتوب :

يا رب ! إن عظمت ذنوبى كثرة ... فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن ... فمن الذى يدعو ويرجو المجرم ؟
أدعوك ربّ كما أمرت تضرعاً ... فإذا رددت يدى فمن ذا يرحم ؟
ما لى إليك وسيلة إلا الرجا ... وجميل عفوك ، ثم أنى مسلم

ولقد أدركنا نحن فى طفولتنا المؤذنين يهتفون بهذا التوسل على المآذن فى الأسحار . فسلام على أبى نواس مفتنا مبدعاً ، وسلام عليه فى الناسكين الزاهدين .

كتاب الوزراء والكتاب

للجَهْشياري*

أهدى إلى زميلى وصديقى الأستاذ مصطفى السقا من أشهر مضت ، نسخة من كتاب « الوزراء والكتّاب » لابن عبدوس الجهشيارى المتوفى عام ٣٣١ هـ . وقد أخرجه للناس هو وزميلاه الأستاذان إبراهيم الأبيارى وعبد الحفيظ شلبى فى حلة عربية قشيبة ، ومطبوعا لأول مرة بمطبعة الحروف .

ولم تمكنى كثرة العمل فى العام الدراسى المنصرم من أن أفرغ لقراءة هذا السفر النفيس ، وإن كنت قد رجعت غير مرة إلى نسخته الأوربية المطبوعة بالزنك ، وكنت عارفا بنفاسة قدر الكتاب وعلو قيمته العلمية .

وقد استرحت فى هذه الأيام من عناء العمل الرسمى ، وأصبحت حراً أقرأ ما أشاء متى أشاء . وقد رأيت أن أقرأ الكتب التى وردت إلى ، والتى اقتنيتها ، على ترتيب ورودها إلىّ واقتنائى لها ، فكان كتاب الوزراء والكتّاب أحقها بالتقديم على كل حال .

* * *

والكتاب يتناول الكلام على خطتى الكتابة والوزارة فى الدولة الإسلامية منذ قيامها إلى زمن الخليفة المأمون العباسى ، وهما من أهم خطط الدولة الإسلامية لذلك العهد . ومع أن المؤلف قد أدار كتابه على هذين النظامين فهو من حين لآخر يفصل كلامه بإشارات ونكت واستطرادات لها قيمة علمية عظيمة عند من يعانى الأدب العربى والتاريخ الإسلامى فى صدر الإسلام ، هذا إلى أنها سهلت تناول الكتاب وخلعت عليه رواء القصة وجاذبيتها .

ولقد وفق الأساتذة الناشرون للكتاب فى نشره على الناس إلى حد بعيد ، فوضعوا له مقدمة تعرّف القارئ بالمؤلف و بأصل الكتاب ، وضبطوا المتن جهد استطاعتهم ، وحققوا

(*) الثقافة ، العدد ٣٤ ، سنة ١٩٣٩ .

وشرحوا ما يحتاج منه إلى تحقيق أو شرح ، ثم ذيلوا الكتاب بفهارس ضافية استوعبت الأعلام الواردة فى الكتاب وموضوعاته ، وردته إلى عناصره رداً فيه دقة وفيه استقصاء .

***

ومن عادتى عند ما أقرأ كتاباً علمياً قيماً أن أتناول قلم الرصاص فأقيد بهامشه ما يعنُّ لى من فائدة علمية ، وما عسى أن أستدركه على المؤلف أو الناشر إن كان ثم موضع للاستدراك . وقد جريت على عادتى هذه عند ما شرعت فى قراءة « كتاب الوزراء والكتاب » فلما فرغت منه قراءةً وجدتنى قيدت بهامشه جملةً تقييدات وملحوظات واستدراكات ، منها ما أحتفظ به لنفسى وأعتدُّه لدراساتى ، ومنها ما هو فى حقيقة الأمر نقد للمتن فى بعض مواضعه أو استدراك على تحقيقات الأساتذة الواردة به . وقد لا يخلو هذا الصنف من التقييدات من الفائدة لغيرى من قراء الكتاب ، فأنا أنشره على هذا الاعتبار وحده .

***

جاء فى متن الكتاب فى ص٩٩ ما مؤداه أن زاذان فروخ كان كاتب عبدالله بن زياد ، وقد علق الأساتذة على ذلك بقولهم : « لعله عبيد الله بن زياد » والصحيح الثبت أنه عبيد الله بن زياد لا عبد الله (الطبرى : المجموعة الثانية ص ٤٤٨ من الطبعة الأوربية) .

وجاء فى ص ١٦٨ : « وهو إذ ذاك بالرد والدار » يريد المؤلف تسمية المكان الذى مات به الخليفة المهدى العباسى . وقد علق الأساتذة على هذا الاسم بقولهم إنه محرف ، وإنهم لم يروا فى أسماء الأماكن ما يقرب منه إلا ما ذكره المسعودى فى أول ترجمة المهدى من أنه خرج إلى موضع يسمى « أرزن والران » فلعله محرف عنه . وأقول إن اللفظ محرف ، لا شك فى ذلك ، إلا أن الطبرى وياقوت يسميان الموضع الذى مات فيه المهدى « بالرذ بماسبذان » فإن لم يكن الاسم محرفاً عن هذين اللفظين معاً ، فلا أقل من أن يكون قد خلص لنا من كلام الطبرى وياقوت اسم القرية التى هلك بها هذا الخليفة وهى « الرّذ » الواقعة بالقرب من ماسبذان . وجاء فى المتن فى ص ١٩٣ : « ولوزير العروضى شعر يهجو به محمد بن الأشعث « مكلم الذئب » الخزاعى وهو :

تهمتُم علينا بأن الذئب كلمكم   فقد لعمرى أبوكم كلم الذيبا

فكيف لو كلم الليث الهصور إذاً　　تركتم الناس مأكولاً ومشروبا
هذا السويدى ما يسوى إتاوته　　يكلم الفيل تصعيداً وتصويبا

ويروى : « هذا السُّنَيدى » فضرب به محمد بن الأشعث ثلثمائة سوط » .

وقد علق الأساتذة على هذا الخبر بقولهم سويد تصغير تحقير لسيد بالكسر بمعنى الذئب . وقد أوردوا فى آخر الكتاب رواية كتاب الورقة لهذا الشعر وهى تقول (هذا السنيدى) وعندى أن رواية كتاب الورقة هى الرواية الصحيحة وتؤيدها رواية الأغانى « ج ١٨ ص ٣٨ » كما يؤيدها معنى الشعر نفسه ، فإن السنيدى تصغير سندى والسندى هو الرجل المنسوب إلى السند وكانت الفيلة تجلب فى ذلك الزمان إلى العراق من السند .

على أن فى الخبر المذكور آنفا أغلاطاً أخرى منشؤها تحريف النساخ من غير شك ، فقوله « وزير العروضى » خطأ وصوابه « رزين العروضى » وهو شاعر كان معاصراً وصديقاً لدعبل وكان معروفا بغرابة أوزان شعره . وقد ذكره بهذا الضبط صاحب الأغانى فى موضعين من كتابه ، واعتمد ضبطه هذا المستشرقون الأعلام الذين عملوا فهرس كتاب الأغانى ، كما ذكره بهذا الضبط أيضاً كما يقول الأساتذة الناشرون صاحبا كتاب الورقة وإرشاد الأديب . والعجيب أن يعدل الأساتذة عما جاء فى هذه المراجع ويأخذوا بما جاء فى الأصل الذى نقلوا عنه الكتاب ، وبما جاء فى فهرست ابن النديم وهو كتاب محشو بالتحريف والتصحيف !

ومحمد بن الأشعث الوارد فى الخبر المذكور صحته « جعفر بن محمد بن الأشعث » ، ولو رجع القارىء إلى سياق المتن لوجده يدور على جعفر هذا الذى ولى خراسان للرشيد .

ويؤخذ من موضع « مكلم الذئب » من الجملة أنها صفة لابن الأشعث ، مع أنها لقب جد لابن الأشعث ، وكان رجلا من خزاعة على عهد النبى (ص) . ولهم فى تكليم الذئب إياه قصة أوردها صاحب الأغانى (ج ١٨ ص ٣٧) ، وإذاً فعبارة النص ينبغى أن تكون هكذا : ولرزين العروضى شعر يهجو به جعفر بن محمد بن الأشعث من بنى مكلم الذئب الخزاعى الخ .

وجاء فى المتن فى ص ٢٥٦ : « وكان يكتب للخصيب أبو عبد الحميد بن داود البلاذرى المؤلف لكتاب البلدان وغيره من الكتب » وقد علق الأساتذة على ذلك بقولهم :

« البلاذرى هو أبو بكر ، وقيل أبو جعفر ، وقيل أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر ، مؤلف كتاب فتوح البلدان » .

والحقيقة أن البلاذرى صاحب كتاب البلدان لم يكن وُلد بعدُ وقت أن كان الخصيب بمصر ، أى حوالى سنة ١٨٧ هـ .

وأبو عبد الحميد بن داود المذكور فى الخبر ، إنما هو جده كما يؤخذ من نسب البلاذرى الوارد فى ترجمة للبلاذرى منسوبة للمقريزى وواردة فى مقدمة كتاب فتوح البلدان . قال : « هو أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادى الكاتب ، ويعرف بالبلاذرى » ، وإذاً فعبارة هذا الخبر لا بد أن تكون هكذا : « وكان يكتب للخصيب أبو عبد الحميد بن داود (جد) البلاذرى مؤلف كتاب فتوح البلدان » الخ .

وقال المؤلف فى ص ٢٢٩ : « وأمر الرشيد يحيى بن خالد بالتقدم فى هدم إيوان كسرى » والظاهر أن هذا وهم من المؤلف ، فالمعروف بالتواتر أن قصة الشروع فى هدم إيوان كسرى إنما تضاف إلى المنصور وخالد بن برمك ، لا إلى الرشيد ويحيى . (الطبرى المجموعة الثالثة ص ٣٢٠ ، والفخرى ص ٢١٢) .

* * *

وعلق الأساتذة على قول المؤلف فى ص ٢٧ « يا أمير المؤمنين ، إنك لو بعثت الوليد يقسم الأموال بين الناس ما رضوا عنه ، فكيف تبعثه جابياً . . . ولكن ولِّه المعاون والصوائف يكن ذلك له شرفاً وذكراً » . فقالوا : « المعاون الجنايات والمظالم ، ولعله يريد بالمعاون والصوائف ولاية القضاء والغزو » . وتفسير « المعاون » بهذا المعنى إنما يصدق فى العصور الإسلامية المتأخرة . فأما فى صدر الإسلام فالمعاون كانت عبارة عن الأموال التى كان يعطاها أصحاب العطاء الرسمى فوق عطائهم ، ومن هذا قول عمر بن الخطاب : « ألا وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده ، ألا فأما وابن الخطاب حى فلا ! » . (الطبرى ، المجموعة الأولى ص ٣٠٢٦) .

ومنه قول القائل :

نحن ضربنا الأزد بالعراق   والحى من ربيعة المراق

وابن سهيل قائد النفاق   بلا معونات ولا أرزاق

(الكامل للمبرد ص ٧٦ طبع أوربا) .

ولا شك أن إعطاء المال على هذا النحو مما يكسب مثل الوليد بن عبد الملك شرفاً وذكراً كما يقول النص . وانظر أيضاً فى هذا الصدد : كتاب فتوح البلدان صحيفة ١٨٧ من الطبعة الأوربية .

وجاء فى ص ٥٢ : « فلما توفى سليمان كتب عمر وهو على قبره بعزل أسامة بن زيد وبعزل يزيد بن أبى مسلم » . وقال الناشرون استدراكا على هذا : « وظاهر أنه يريد يزيد بن المهلب » . والواقع أن المؤلف يريد ما يقول والصواب فى جانبه ، ولكن الأساتذة أخذوا برواية انفرد بها ابن عبد ربه فى كتاب العقد ، ومؤداها أن سليمان بن عبد الملك حبس يزيد بن أبى مسلم ، فبقى فى حبسه مدة خلافته وخلافة عمر ، مع أنه لم يقل واحد من أئمة مؤرخى المشرق بهذا الحبس الطويل : لا الطبرى ولا ابن الأثير ولا ابن خلكان الذى خص ابن أبى مسلم بترجمة وافية . بل يقول ابن خلكان ما معناه إن سليمان أتى بيزيد فى جامعة فحاوره فوجده قوى العارضة ، وكشف عن ذمته فلم يتماق عليه بشىء ، فاستحال سخطه عليه إلى شبه إعجاب به ، حتى لقد هم باتخاذه كاتباً له لولا أن ثبطه عن ذلك بعض حاضرى مجلسه . ثم إن يزيد بن أبى مسلم عزى نفسه بعد العزل بالاشتراك فى الغزو ، فلما ولى عمر بن عبد العزيز وعلم بذلك أمر برده من الغزو ، وهو ما يقوله الجهشيارى فى ص ٥٥ . فالأخذ برواية صاحب العقد يوهم أن المؤلف قد تناقض فى أخباره وهو غير صحيح .

وجاء فى ص ٨١ من مقطوعة لعبد الحميد الكاتب هذان البيتان :

فليست تقتر من عبرة   لها فى الضمير ومن هامل

تقضت غوايات سكر الصبا   ورد التقى عنن الباطل

فضبط الشراح تقتر بالقاف المثناة من فوق ، وعندى أن الصواب والأبلغ أن نقرأ تفتر) بالفاء الموحدة ، من فتر السحاب إذا مطر وفرغ ماؤه . وضبطوا عُنُن بضم أوله وثانيه على أنه جمع عنان ، وأرى الأفضل أن نقرأ (عَنَن) بفتح أوله وثانيه ، بمعنى اعتراض ، ولا سيما أن سيبويه ينكر أن يكسر عنان على غير أعنة ، (اللسان مادة : عنن) .

وأورد المؤلف فى ص ١٣٥ مقطوعة من الشعر لعبد بنى الحسحاس مضمومة الروى ، وأولها :

أمن سمية دمعُ العين مذروف لو أن ذا منك قبل اليوم معروف

ومنها هذا البيت :

لا تبك عينك إن الدهر ذو غِيَر فيه تفرُّق ذى إلف ومألوف

وقد ضبط الأساتذة قوله (مألوف) بالكسر وقالوا إن فى البيت إقواء ، ثم قالوا : والظاهر أنه دخيل على هذه الأبيات لأنه غير وارد فى القصيدة المنسوبة إلى عنترة (فى ديوانه وفى كتاب الأغانى) . أما أن يحتج على كتاب الجهشيارى بكتاب الأغانى وبالديوان المنسوب إلى عنترة فهذا ما لا يجوز ؛ فكتاب الجهشيارى أقدم وأوثق من كتاب الأغانى فضلا عن الديوان المنسوب إلى عنترة ، وهو يورد لنا المقطوعة المذكورة فى صورة من أقدم صورها ويعزوها إلى قائلها الحقيق ، وهو بذلك يصحح خطأ وقع فيه صاحب الأغانى وجامع الديوان المنسوب إلى عنترة . وأما أن فى البيت إقواء فهو ما لا أراه . بل إن ضم (مألوف) هو المتعين والواجب إذا راعينا قول الشاعر فى صدر البيت (إن الدهر ذو غير) ، فيكون معنى الكلام إن الدهر ذو أحوال . طوراً يفرق الألاف ، وطوراً يجمعهم . ويكون (مألوف) معطوفا على قوله (تفرق) ويكون بمعنى الإلف مثل مجهود ومعقول بمعنى الجهد والعقل . و إذا استبعد الأساتذة ذلك أفلا يمكن أن يقال إنه محرف عن (تأليف) ؟ وأيًّا ما كانت الحال فإنى أرى البيت منسجما مع سائر أبيات المقطوعة معنى ووزناً وقافية .

وعلق الأساتذة على لفظ (النوبهار) الوارد فى ص ١٩١ بإيراد كلام لياقوت بيَّن فيه أنه كان بيتاً للبرامكة فى بلخ يعظمونه ، وأنهم كانوا يضاهون به بيت الله الحرام ، وأن معنى النوبهار البهار الجديد ، إذ كانت سنتهم إذا بنوا بناء جديداً أو شريفا كللوه بالبهار وهو الريحان . ولكن البحث العلمى الحديث الذى قام به بارتولد (دائرة المعارف الإسلامية مادة برامكة) و بوفات (رسالته عن البرامكة ص ٢٨) يدل على أن النوبهار كان معبداً بوذيا ، وأن لفظ (نوبهار) سنسكريتى الأصل مؤلف من (نوفا) بمعنى جديد و (فيهارا) بمعنى بيت أو معبد ، وقد كانت للهنود فيهارات كثيرة . فإن كان لا بد من إيراد ما قاله

كتاب المعرب عن هـذا البيت ، فيحسن أن يردف ذلك بما يراه البحث العلمى الحديث إتماماً للفائدة .

وجاء فى متن الـكتاب فى ص ٩٩ : « ومما يشبه خبر عبد الله بن سوار هذا » وعلق الأساتذة على ذلك بقولهم [فى الأصل : « ومما يشبه خبر هذا عبد الله» الخ . والسياق يقتضى تأخير « هـذا »] . ولست أرى مع الأساتذة ذلك فتقديم اسم الإشارة على العَلَم المشار إليه وارد فى الـكتب القـديمة ، فصاحب الفخرى يقول : « وهذا خالد هو جد البرامكة » (ص ٢١٠ من الطبعة الأوربية) ويقول : « وكان هذا سنباذ رجلا مجوسيا » (ص ٢٣٢) وأظن أن لقوله وجها من العربية وإذاً فلا داعى إلى تغيير عبارة النص بالتقديم والتأخير .

***

ذلك ما قيدته على هذا الـكتاب النفيس ، وإنى أرجو أن أكون قد قضيت بذلك حق مؤلفه وحق ناشريه وحق قرائه . وأقول فى ختام بحثى إن ما أخـذته على الـكتاب سواء أكان من ناحية المتن أم من ناحية تحقيق الأساتذة ، لا يكاد يذكر بجانب ما فى الـكتاب من جليل الفائدة ، وما فى تحقيقات الأساتذة من عظيم الإجادة والإحسان .

أبو العلاء السياسي *

وُلد أبو العلاء المعرى سنة ٣٦٣ ﻫ وتوفى فى سنة ٤٤٩ ﻫ . فقد ولد ، ونشأ ، وشب ، واكتهل ، وشاب ، ومات ، فى زمن كان فيه العالم الإسلامى كله حافلا بأنواع الاضطراب السياسى ، مليئاً بالآفات الاجتماعية والأخلاقية . ففى أقصى الغرب كانت الأندلس قد تقلص عنها ظل الدولة الأموية ووقعت فى الفوضى التى سببت تكالب الأسبان عليها وعملهم على انتقاص أطرافها . وشمال أفريقية أصبح بعد زوال أمويى الأندلس وانتقال الفواطم إلى مصر نهبا مقسما بين دويلات عربيـة وأخرى بربرية كانت لا تبرح متداحرة متناحرة . ومصر والشام كانتا خاضعتين للدولة الفاطمية وهى دولة على عظم شأنها ، كانت تستند إلى دعاية باطنية مريبة ، ظهرت آثارها فى أيام الحاكم والمستنصر . على أن الدولة المذكورة أخذ شأنها بعد المائة الرابعة يضعف وبخاصة فى الشام ، مما جعل ذلك القطر نهبا لأعراب البوادى القريبة منها ولغارات الروم من جهة الشمال . وجزيرة العرب كانت قد عملت فيها تعاليم الزنج والقرامطة فغلب على أهلها التلصص وقطع الطريق والسطو على قوافل الحجاج . وفى العراق وفارس كان سلطان الخليفة العباسى قد استحال اسماً لا معنى له وكان الأمر كله بأيدى بنى بويه المتغلبين على الخليفة وعلى البلاد . وكان حكم هؤلاء ملؤه التعسف والاستبداد والطغيان ، هذا إلى انقسام بعضهم على بعض ، ووقوع الفتن فى بغـداد بين عصبيتهم من الديلم وبين الجند الأتراك . إلا أن الحال فى أقصى المشرق كانت خيراً منها فى سائر الأقطار الإسلامية ، فقد قامت به دولة فتية قوية عملت على الفتح والتوسع ونشر الإسلام فى الهند ، تلك هى الدولة الغزنوية المشهورة . على أنها كانت دولة قامت واتسعت بحد السيف ، فكان لألاؤها مستمداً فى أغلب الأمر من قعقعة السلاح وبريق السيوف . والخلاصة أن العالم الإسلامى فى العصر المذكور كان قد انحل نظامه وانعدم منه الوازع السياسى والدينى أو كاد ، فانتشر الفقر والبؤس ، وعم الظلم والفساد ، وأكل القوى الضعيف .

* * *

(*) مجلة الهلال ، جزء ٩ ، يوليو سنة ١٩٣٨ .

عاش أبو العلاء فى ذلك العصر وتأثرت نفسه الحساسة بما آلت إليه أحوال الناس وخاصة منذ عاد من بغداد سنة ٤٠٠ ولزم داره بالمعرة يصنف ويدرس لتلاميذه الذين كانوا يفدون عليه من مختلف الأقطار للأخذ عنه . وقد صور فى نثره ولزومياته تلك الحال تصويراً وجيزاً ولكنه بليغ . انظر كيف يصف تطاول أعراب الجزيرة والشام إلى اقتسام البلاد بعد أن ضعف أمر العبيديين وما شمل الشام أيامئذ من الإحن بسبب عدوانهم ، فيقول :

أرى حلباً حازها صالح ... وجال سنان على جلقا
وحسان فى سلفى طيئ ... يصرف من عزه أبلقا
فلما رأت خيلهم بالغبار ... ثغاما على جيشهم علقا
رمت جامع الرملة المستضا ... م فأصبح بالدم قد خلقا
وما نفع الكاعب المسقبا ... ة هام على عضب فلقا
وطل قتيل فلم يدكر ... وغل أسير فما أطلقا
وكم تركت آهلا وحده ... وكم غادرت مثريا مملقا
يسائل فى الحى عن ماله ... وما القول فى طائر حلقا ؟

ويقول أيضاً فى هذا المعنى :

ألفنا بلاد الشام إلف ولادة ... نلاقى بها سود الخطوب وحمرها
فطوراً نداري من سبيعة ليثها ... وحيناً نصادى من ربيعة نمرها
وددت بأنى فى عماية فارد ... تعاشرنى الأروى فأكره قمرها
فإنى أرى الآفاق دانت لظالم ... يغر بغاياها ويشرب خمرها

وكان الشيخ أبو الحسين بن سنان أحد رؤساء حلب قد عزم على الحج فكتب إليه أبو العلاء رسالة ينهاه فيها عن الخروج للحج فى عامه ويريه أن الروم لحلب بالمرصاد ، وأن الجهاد فى تلك الحال خير من الحج ، فمما كتب به إليه : « وسفر مولاى إلى الحج فى هذا العام حرام بسل ، كما حرم صوم عيد الفطر ، وحظر على المحرم تضمخ بعطر . . . وهو — أدام الله تمكينه — أمين من أمناء المسلمين ، يرهف الشوكة ، ويستجيد اللأمة ، ويحصن ما وهى من سور أو شرفات . . . ومن لحياطة الرعية بعداميك المدر . . وإجراء السعد

لحفظها والغدر ؟ .. وحلب — حرسها الله — قد صار فيها رباط يغتنم ، وجهاز يرغب فيه ويتنافس ، ولا يلبث أن يزول بانعقاد المدنة ، وعودة الجامع كلمة الروم إلى كرسيه من بزنطية » .

ويقول فى فساد الأمر بالحجاز والشام والعراق :

أما الحجاز فما يرجى المقام به ... لأنه بالحرار الخمس محتجز
والشام فيه وقود الحرب مشتعل ... يشبه القوم شدت منهم الحجز
وبالعراق وميض يستهل دما ... وعارض بلقاء الشر يرتجز

ويشير إلى حقيقة أمر صاحب الزنج بالبصرة والقرامطة بالبحرين فيقول :

إنما هذه المذاهب أسبا ... ب لجذب الدنيا إلى الرؤساء
غرض القوم متعة لا يرقو ... ن لدمع الشماء والخنساء
كالذى قام يجمع الزنج بالبص ... رة والقرمطى بالأحساء

وهو لا يبهره بريق الدولة الغزنوية ولألاؤها و يقول فى ملكيها الشهيرين محمود ومسعود :

محمودنا الله والمسعود خالقه ... فعد عن ذكر محمود ومسعود
ملكان لو أننى خيرت ملكهما ... وعود صلب ، أشار العقل بالعود

وكما تشير هذه الأبيات إلى علم أبى العلاء بأحوال المشرق الإسلامى فإن رسائله إلى ابن حزم الأندلسى وداعى الدعاة الفاطمى وكلامه على ابن هانئ الأندلسى فى رسالة الغفران ، كل ذلك يشير إلى اتصال أبى العلاء بالمغرب الإسلامى اتصاله بمشرقه . وأبو العلاء يجمل حكمه على المشرق والمغرب بالفوضى السياسية والفساد والبعد عن الإصلاح فى قوله :

وجدت الناس فى هرج ومرج ... غواة بين معتزل ومرج
فشأن ملوكهم عزف ونزف ... وأصحاب الأمور جباة خرج
وهمّ زعيمهم إنهاب مال ... حرام النهب أو إحلال فرج

وأبو العلاء يصرح بأن العلة القريبة فى هذه الفوضى وذلك الفساد إنما هى نظام الملك المستبد الغشوم القائم على القهر والتغلب والوقيعة والدهاء :

رئس الناس بالدهاء فما ينـ ـفك جيل ينقاد طوع دهاته

قالوا فلان جيد لصديقه لا يكذبوا ما فى البرية جيد
فأميرهم نال الأمارة بالخنا وتقيهم بصلاته متصيد

وهو يربأ بنفسه أن يكون حاكما من هذا القبيل :

لا كانت الدنيا فليس يسرنى أنى خليفتها ولا محمودها

ما سرنى أنى إمام زمانه تلقى إلىّ من الأمور مقالد

أمرٌ إن كنت محموداً على خُلق ولا أمرٌ بأنى الملك محمود
ما يصنع الرأس بالتيجان يعقدها وإنما هو بعد الموت جلمود

وما أختار أنى الملك يجبى إلى المال من مكس وخرج

وهو يسلك إلى إصلاح الطغاة المستبدين طرقا شتى من الترغيب والترهيب . فتارة يحبب إليهم التقوى والصلاح :

والتاج تقوى الله لا ما رصعوا ليكون زيناً للأمير الفاتح

يا مشرع الرمح فى تثبيت مملكة خير من المارن الخطى مسباح

وتارة يخوفهم عواقب الظلم و بوائقه :

خَفْ دعوة المظلوم فهى سريعة طلعت فجاءت بالعذاب النازل
عزل الأمير عن البلاد وماله إلا دعاء ضعيفها من عازل

والظلم يمهل بعض من يسعى له ومحل نقمته بنفس الظالم

وتارة يحذرهم تصرف الأقدار وتقلبها بالناس رفعا وخفضا :

أيا والى المصر لا تظلمن فكم جاء مثلك ثم انصرف

لا يمنع الملك الجبار من قدر يغير الحال ما أجدى وما جاسا
ولو غدا الكوكب المريخ فى يده كالسهم واتخذ البرجيس برجاسا

وتارة يسلك طريقته العدمية فيذكرهم الموت الذى يأتى على جميع الناس فلا يبقى منهم إلا سيرهم وذكريات أعمالهم :

حوادث الدهر ما تنفك غادية	على الأنام بألباس وتلبيس
ألوت بكسرى ولم تترك مراز به	وبالمناذر أودت والقوابيس
أردت حسينا وحست بالردى حسنا	وواجهت آل عباس بتعبيس

على أن أبا العلاء يذهب إلى أبعد مما ذهب فى تعليل الفوضى والفساد ، فيبين أن العلة البعيدة والسبب الجوهرى فى ذلك أن الملوك والمتغلبين لم يدركوا أنهم فى حقيقة الأمر عمال الرعية وأجراؤها وخدامها وأن الشعوب مستقر السلطان ومستمده :

مُلَّ المقام فكم أعاشر أمة	أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها	وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

إذا ما تبينا الأمور تكشفت	لنا وأمير القوم للقوم خادم

وهو لذلك يحذر الطغاة غضب الأمم وثورة الشعوب :

أعاذل أن ظلمتنا الملوك	فنحن على ضعفنا أظلم
تسامت قريش إلى ما علـ	ـت واستأثر الترك والديلم
وهل ينكر العقل أن تسـ	ـتبد بالملك غانيـة غيلم ؟
وما ظفر الملك فى جيشه	سوى ظفر بالردى يقلم

لو بعث المنصور نادى أيا	مدينة التسليم لا تسلمى !
قد سكن القفر بنو هاشم	وانتقل الملك إلى الديلم !
لو كنت أدرى أن عقباهم	لذاك لم أقتل أبا مسلم !
قد خدم الدولة مستنصحا	فألبسته شيـة المظلم !
ما دام غير الله من دائم	فاغضب على الأقدار أو سلم !

فأبو العلاء يقرر المبدأين السياسيين الأساسيين : سلطة الامة ، وانتخاب ولاة الأمور ،

وهو من أجل ذلك ينعى على الشيعة مذهبهم السياسى فى القول بأن الخلافة نص وتوقيف وليست بشورى ، ويندد برأيهم فى الإمام المنتظر :

قالوا سيملكنا إمام عادل ... يرمى أعادينا بسهم صارد
والأرض موطن شرة وضغائن ... ما أسمحت بسرور يوم فارد

على أن ديمقراطية أبى العلاء تتصل اتصالا وثيقا باعتقاده فى الاشتراكية الإسلامية سواء أكانت دينية — وذلك من حيث الزكاة — أم إسلامية تاريخية — وذلك من حيث حبس الأرض وتوزيع غلتها على المستحقين فيها — فهو يقول فى أمر الزكاة :

وأحسب الناس لو أعطوا زكاتهم ... لما رأيت بنى الإعدام شاكينا
ياقوت ما أنت ياقوت ولا ذهب ... فكيف تعجز أقواما مساكينا ؟
فإن تعش تبصر الباكين قدضحكوا ... والضاحكين لفرط الجهل باكينا
لا يتركن قليل الخير يفعله ... من نال فى الأرض تأييداً وتمكينا

ويقول فى أمر الأرض :

الملك لله من يظفر بنيل منى ... يردده قسرا وتضمن نفسه الدركا
لو كان لى أو لغيرى قيد أنملة ... فوق التراب لخلت الأمر مشتركا

الأرض لله ما استحيا الحلول بها ... أن يدعوها وهم فى الدار أضياف
تنازعوا فى عوارى فبينهم ... نبل حطام وأرماح وأسياف
إن خالفوك ولم يجرر خلافهم ... شراً فلا بأس أن الناس أخياف

والبيت الأخير يشير إلى أن أبا العلاء لا يرى بأسا ببقاء القديم على قدمه إذا كان تغييره يجر إلى شر .

ولأبى العلاء رأى فى كيف تتحقق (اليوتوبيا) أو الجماعة السياسية المثالية . وهو يضمن رأيه هذا قوله :

أن أكلتم فضلا وأنفقتمو فضـ ... ـلا فلا يدخلن وال عليكم

لا تولوا أموركم أيدى النا س إذا ردت الأمور اليكم

وهذان البيتان ينظران إلى ما قال به النجدات من الخوارج قبل أبى العلاء ، فقد أجمعوا على أنه لا حاجة للناس إلى إمام قط ، وإنما عليهم أن يتناصفوا فيما بينهم ، فإن رأوا أن ذلك لا يتم إلا بإمام يحملهم عليه فأقاموه جاز .

* * *

أما بعد ، فكم ود الحكماء من قديم لو ولى الفلاسفة شئون الناس ، ومن حسن الحظ أن فى سيرة أبى العلاء أخباراً ترجح أنه ولى شئون المعرة فعلا . فيروى أنه عندما عصت المعرة على صالح بن مرداس أمير حلب ، سار إليها صالح وحاصرها وأرهق أهلها بالحصار ، فسأل الناس أبا العلاء أن يخرج إلى صالح ويكلمه فى رفع الحصار ، فخرج أبو العلاء إلى ظاهر المعرة ولقى صالحا وكلمه بكلام رقيق أثر فى نفس صالح فأمر بالكف عن القتال وقال لأبى العلاء : «قد وهبتها لك» . وظاهر هذه العبارة يحتمل أن صالحا قد عفا عن المعرة من أجل شفاعة أبى العلاء كما يحتمل أنه قد وهبها لأبى العلاء فعلا وأنه أقطعه إياها على نحو ما كان مألوفا فى الدولة الإسلامية فى ذلك الزمان . على أن الذى يرجح الاحتمال الثانى نص صريح وارد فى رحلة الرحالة الفارسى ناصر خسرو ، فقد زار المعرة فى عام ٤٣٨ ووصف فى رحلته ما شاهده فيها فقال ما تعريبه (وكان بها رجل ضرير يدعى أبا العلاء ، وكان أمير البلدة ، وله من النعمة والعبيد والخدم ما يستكثر . وكان جل أهلها كالعبيد له ؛ إلا أنه سلك طريق النسك وتردى ببرجد فى بيته ، وكان يأكل كل يوم نصف منّ من خبز الشعير لا غير . وبلغنى أنه فتح بابه ، ويتولى عنه نوابه وعماله أمور البلدة إلا فيما يهم فيرجعون إليه . وهو لا يمنع أحداً مما آتاه الله ، ويصوم الدهر ، ويقوم الليل ، ولا يشغل نفسه بشىء من أمور الدنيا . . وقيل له : إن الله خولك ما ترى من المال والنعمة ، فلماذا تعطى الناس وتبذلهم ولا تتمتع أنت بنفسك ؟ فقال : ليس لى منه إلا ما أتبلغ به من القوت فحسب . ولما وصلتها كان حيا يرزق[1]) ولقد ضمن أبو العلاء بعض لزومياته الاعتراض الوارد فى النص المذكور وجوابه عنه فقال :

---

(١) انظر كتاب « أبو العلاء وما إليه » للأستاذ الميمنى ص ٧٨ .

سولت لى نفسى أموراً وهيها ت لقد خاب ذلك التسويل
واتهامى بالمال كلف أن يطلا ب منى ما يقتضى التمويل
ويقول الغواة خولك الا ه كذبتم لغــيرى التخويل
إن حباك القدير كالنيل تبرا فليفضـــه العطاء والتنويل
لا تعول على اختزان فما للبـ ـدر الصفر إثر ميت عويل

فإذا صحت هذه الأخبار ، ولا نخالها إلا صحيحة ، يكون أبو العلاء قد ظفر بتحقيق آرائه السياسية التى صور ناها آنفا ، ويكون الحظ قد اصطفاه من بين الفلاسفة جميعا ، لحقق على يديه لمدة قصيرة من الزمن ، خيالا من أروع أخيلتهم ، وحلما من ألذ أحلامهم .

ناحية التاريخ

من أدب أبي العلاء المعرى*

يقول أبو العلاء فى بعض لزومياته :

ما كان فى هذه الدنيا بنو زمن　　إلا وعنـدى من أخبارهم طرف

فهو يدعى أنه ما من أمة وجدت فى هذه الدنيا إلا وقد ألم بطرف من أخبارها وعرف شيئاً من تصاريف أحوالها . والحق أن أبا العلاء لم يصطنع المبالغة ، ولم يركب متن الشطط عندما ادعى هذه الدعوى . فقد أدرك من أول أمره أن العاهة الجثمانية التى لحقته منذ طفولته لا شك ما نعته من معرفة الطبيعة الإنسانية من طريق العيان والمشاهدة ، غير أنه فطن إلى أن فى وسعه أن يتدارك ما تفوته عليه هذه الآفة المحتومة من طريق الاطلاع على ماضى الإنسانية المسطور فى تاريخها ، فالطبيعة الإنسانية واحدة لا تختلف ، والناس هم الناس بعد بهم العهد أم قرب . ذلك أصل ولع أبى العلاء بالتاريخ . ثم نجده يزداد به ولعاً عند رجوعه من بغداد إلى بلده ، واعتزامه لزوم ثانى محبسيه وهو بيته . فإن أبا العلاء لم يرد بالعزلة أن يضرب بينه وبين الناس حجاباً كثيفاً بحيث لا يراهم ولا يرونه ، وإنما أراد بالعزلة أن يكون بنجوة من مخالطتهم وملابستهم ، وأن تتاح له حرية درس أحوالهم ونظمهم ومصاير أمورهم دون أن تمتد إليه أيديهم ، ودون أن يعرضوا له بما يوجب له شغل الخاطر وهم القلب وفتنة النفس . فكأنه أراد أن يقطع صلته بالناس من ناحية ليصلها بهم من ناحية أخرى ، ناحية الاطلاع على أخبار الماضين منهم والغابرين ، أى من ناحية الاطلاع على التاريخ . على أنه إذا كانت الضرورة هى التى قضت على أبى العلاء بالاطلاع على التاريخ فهناك سبب آخر حبب هذا العلم إلى عقل شاعرنا الفيلسوف وقلبه . ذلك أن التاريخ قد يكون ألذ العلوم وأشدها إمتاعاً متى ورد الإنسان ساحته وقلب صحائفه بفهم ذكى وقلب سليم . هو موكب الأمم ومعرض الحياة الإنسانية ، فيه تبين مواطن الضعف والقوة من تلك الحياة ، وفيه تظهر أسباب عظمة

(*) بحث ألقى فى المهرجان الألفى لأبى العلاء المعرى بسورية سنة ١٩٤٤ .

الشعوب وأسرار اضمحلالها ، فيه حكمة الحياة واضحة لا لبس فيها ولا إبهام . فإذا كان أبو العلاء قد أقبل على التاريخ يتلو صحائفه و يستخرج عبره فإن ذلك إنما كان عن ضرورة أول الأمر ثم عن حب له وشغف به أخيراً .

على أن اطلاع أبي العلاء على التاريخ كان بطبيعة الحال محدوداً بحدود الرواية التاريخية العربية على نحو ما وصلت إليه فى أيامه أى من منتصف القرن الرابع إلى منتصف القرن الخامس الهجرى . فماذا كانت حدود هذه الرواية ؟

لقد ابتدأت الرواية التاريخية العربية فى القرن الأول الهجرى ثم نمت نمواً مطرداً وتنوعت تنوعاً بيناً فى القرون الثلاثة التالية . فدونت أخبار العرب قبل الإسلام وأخبار الأمم التى كان للعرب اتصال بها كالفرس ، والروم ، والهنود ، والمصريين ، والأحباش وكل ذلك كالمدخل إلى التاريخ الإسلامى ، ثم دونت سيرة الرسول عليه السلام وأخبار المغازى والفتوح وأخبار الدولتين الأموية والعباسية ، وما تفرع عن الأخيرة من دويلات عدة بعضها فى الشرق كالطاهرية والسامانية والغزنوية والبويهية والحمدانية و بعضها فى الغرب كالطولونية ، والأخشيدية ، والإدريسية ، والفاطمية . وقد وضعت فى كل ذلك كتب كثيرة ذكر أكثرها ابن النديم فى الفهرست فى الفصل الذى عقده للإخباريين خاصة . وقد سلم لنا من هذه التآليف شىء غير قليل نذكر منه كتاب السيرة لابن إسحق بتهذيب ابن هشام ، ومغازى الواقدى ، وطبقات ابن سعد وكتب ابن قتيبة ، والدينورى ، والبلاذرى ، واليعقوبى ، وتواريخ الطبرى ، والصولى ، والمسعودى ، وأبى الفرج الأصفهانى ومسكويه .

لا شك أن أبا العلاء اطلع على جل هذه الكتب إن لم يكن اطلع عليها كلها ، فقد كانت فى متناول يده فى مكاتب المعرة واللاذقية وحلب ودار العلم ببغداد . ولا أدل على سعة علمه بالتاريخ العام وأخبار العرب قبل الإسلام والتاريخ الإسلامى من كثرة استشهاده فى نثره وشعره بالحوادث التاريخية كثرة رائعة ، ففى الرسالة التى يعزى فيها خاله أبا القاسم بن سبيكه عن أخيه ، نجده يسرد أسماء الأنبياء من لدن آدم إلى محمد (ص) ثم يتبع ذلك بسرد أسماء ملوك اليمن فملوك الحيرة وغسان والفرس وسادات العرب فى الجاهلية وكل ذلك على سبيل العبرة والموعظة و بيان أن كلا منهم قد صار بعد العز وعلو الشأن إلى الموت والفناء . ونجده فى « رسالة الغفران » يخبر فى القصيدة السينية التى قالها على لسان الجنى « أبى هدرش » كيف

استغوى هذا الجنى فى جاهليته كثيراً من خلق الله ملائكة وغير ملائكة إلى أن بعث الله نبيه محمداً (ص) فآمن به وصدق واشترك معه هو وقبيله من الجن فى غزوات بدر ، وأحد ، والخندق ، كما اشترك بعد فى وقائع اليرموك والجمل وصفين والنهروان . وكثيراً ما يورد أبو العلاء فى « رسالة الغفران » تلميحات و إشارات إلى الفرق والنحل الإسلامية من سنة وشيعة ومعتزلة ومرجئة كما ذكر الزنج والقرامطة والمختار بن أبى عبيد والمنصور اليمنى والحلاج ومن الطريف أنه ساق فى آخر رسالة الغفران كلاماً على الدنانير والعملة الإسلامية ، فيه تفصيلات لا نجدها فى كتب التاريخ التى بأيدينا . وتفيض « اللزوميات » بذكر كثير من ملوك الفرس والروم والهند واليمن وحوادث الدولة الإسلامية وملوكها من نحو محمود ومسعود والغزنويين والإخشيد وأبيه طغج وجده جف كما تذكر خاقان وخان وآلك (= أيلك) .

وكما وجد أبو العلاء فى التاريخ الإسلامى وغير الإسلامى مادة انتفع بها إلى أبعد مدى فى تأييد آرائه وتقوية حججه وتجميل فنه المنثور والمنظوم ، فقد وجد فى حوادث عصره مادة غزيرة أكسبت شعره ونثره حيوية عجيبة ، وأمدته بما أعانه على تكوين رأيه فى السياسة ونظم الحكم والاجتماع بوجه عام . ونستطيع أن نقول إن شعر صباه وصدر كهولته الوارد فى ديوانه « سقط الزند » يتصل اتصالا وثيقاً بحوادث عصره ، بل هو صدى لحوادث ذلك العصر . وفى وسع من يقرأ « سقط الزند » و « اللزوميات » أن يتبين صورة واضحة لحوادث الشام خاصة فى زمن أبى العلاء .

كانت معرة النعمان معدودة من الإقليم المعروف « بالعواصم » والواقع على تخوم الدولة الإسلامية مما يلى مملكة الروم . وقد أصبحت حلب إذ ذاك قاعدة ذلك الإقليم ، وكانت متنازعة بين متأخرى أمراء الدولة الحمدانية و بين الدولة الفاطمية المصرية فيغلب بنو حمدان على أمرهم و يستولى الفاطميون على حلب ، ولكن سرعان ما انبرت للفاطميين أسرة عربية بدوية هى الأسرة المرداسية ، فتستولى على حلب سنة ٤١٤ على يد أسد الدولة صالح بن مرداس الكلابى . وقد تبعت المعرة حلباً فيما اختلف عليها من الأحوال ، لذلك نجد أبا العلاء يمدح أمراء حلب على اختلافهم من حمدانية وفاطمية ، فيمدح الأمير سعيد الدولة الحمدانى بالقصائد الأولى من « سقط الزند » كالقصيدة اللامية الأولى التى مطلعها :

أعن وخد القلاص كشفت حالا ومن عند الظلام طلبت مالا

كما يمدح ولاة الفاطميين على حلب فى قصائد أخرى منها السينية التى مطلعها :

لولا تحية بعض الأربع الدرس ما هاب حد لسانى حادث الحبس

ثم إن أهل المعرة ثاروا على صالح بن مرداس بسبب المرأة التى أهانها خمار نصرانى ، فذهبت إلى المسجد يوم الجمعة وقصت على الناس ما نالها فثاروا بالخمار وانتهبوا حانوته وهدموها ، وإلى هذا الحادث يشير أبو العلاء بقوله فى اللزوميات :

أتت جامع يوم العروبة جامعا تقص على الشهاد بالمصر أمرها

فلو لم يقوموا ناصرين لصوتها لخلت سماء الله تمطر جمرها

فهدوا بناء كان يأوى فناؤه فواجر ألقت للفواحش خمرها

واستفحل الخطب عند ما أشار على صالح وزيره النصرانى « تادرس » وكان حنقاً على أهل المعرة باعتقال سبعين رجلاً منهم ، وسار صالح إلى المعرة فأخرج إليه أهل المعرة أبا العلاء شفيعاً فشفعه صالح وأطلق له الأسارى السبعين سنة ٤١٨ ، وإلى ذلك يشير أبو العلاء بقوله فى اللزوميات :

تغيبت فى منزلى برهة ستير العيوب فقيد الحسد

فلما مضى العمر إلا الأقل وحم لروحى فراق الجسد

بعثت شفيعاً إلى صالح وذاك من القوم رأى فسد

فيسمع منى سجع الحمام وأسمع منه زئير الأسد

فلا يعجبنى هذا النفاق فكم نفقت محنة ما كسد

وباضمحلال نفوذ الفواطم فى الشام أصبحت الشام نهبا لقبائل العرب المتبدية من لدن الجزيرة إلى حدود مصر ، وخاصة قبائل كلاب وطيئ وعامر ، وإلى ذلك الحادث يشير أبو العلاء فى أبياته القافية التى أولها :

أرى حلباً حازها صالح وجال سنان على جلقا[1]

---

(١) انظر هذا الكتاب ص ٦٢ .

وإذا كانت هذه الأشعار تصور لنا الحوادث البارزة بالشام فى أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس ، فإنها تصور لنا ناحية من نواحى شخصية أبى العلاء ، ناحية حبه لوطنه وقومه ، وحزنه لما يصيب هذا الوطن ، واستعداده لأن يخدمه بنفوذه الأدبى عند الاقتضاء ، وهى أشعار تأتلف وشعره الذى قاله وهو فى بغداد يتشوق بلده المعرة .

على أن لوطنية أبى العلاء مظهراً آخر ، لقد كان للشام فى زمنه عدو أجنبى يتحين الفرص للانقضاض عليه . ذلك العدو هو الروم ، وكان الروم بعد زمان سيف الدولة والتياث الأمر بالشام قد استولوا على أنطاكية سنة ٣٥٠ ، واستولوا بعد على اللاذقية ، وذلك فى أيام امبراطورهم نقفور فوقاس ، ثم أخذوا يمدون أعينهم إلى حلب . وكان سعيد الدولة الحمدانى وولاة الفاطميين يدافعونهم جهد طاقتهم . وهنا نجد أبا العلاء يسخر فنه لا لخدمة وطنه فحسب ولكن لخدمة العالم الإسلامى كله ، فهو فى مدائحه لعمال حلب يشيد دائما بمقاومتهم الروم ، فيخاطب الأمير سعيدا الحمدانى (٣٨١ — ٣٩٢ هـ) بقوله :

حفظت المسلمين وقد توالت ... سحائب تحمل النوب الثقالا
وقيت عيالهم إذ كل عين ... تعد سواد ناظرها عيالا
بوقت لا يطيق الليث فيه ... مساورة ولا السيد اختتالا

وبقوله :

إلى حارم قاد العتاق سواهما ... لها من نشاط بالكماة زمال
بنى الغدر هل ألفيتم الحرب مرة ... وهل كف طعن عنكم ونضال
وهل أظلمت سحم الليالى عليكم ... وما حان من شمس النهار زوال
وهل طلعت شعث النواصى عواليا ... رعال ترامى خلفهن رعال
فإن تسلموا من سورة الحرب مرة ... وتعصمكم شم الأنوف طوال
ففى كل يوم غارة مشمعلة ... وفى كل عام غزوة ونزال

إلى أن يقول فى الخيل :

يرون دماء الروم وهى غريضة ... ويتركن ورد الماء وهو زلال
وقد علم الرومى أنك حتفه ... على أن بعض الموقنين يخال

وكان الشيخ أبو الحسين بن سنان أحد رؤساء حلب قد عزم على الحج فكتب إليه أبو العلاء ينهاه عن الحج فى عامه ويريه أن الروم لحلب بالمرصاد ، فمن ذلك قوله : « وسفر مولاى إلى الحج فى هذا العام حرام بَسْلٌ كما حرم صوم عيد الفطر وحظر على المحرم تضمخ بعطر ... وهو أدام الله تمكينه ... أمين من أمناء المسلمين يرهف الشوكة ويستجيد اللأمة ويحصن ما هى من سور أو شرفات ... ومن لحياطة الرعية بدماميك المدر ... وإجراء السعد لحفظها والقدر ، وحلب حرسها الله قد صار فيها رباط يغتنم ، وجهاز يرغب فيه ويتنافس ، ولا يلبث أن يزول بانعقاد الهدنة ، وعودة الجامع كلمة الروم إلى كرسيه من بزنطية » .

فقصائد أبى العلاء الواردة فى « سقط الزند » والمتصلة بمدح أمراء حلب المناضلين للروم تجرى مجرى قصائد المتنبى المعروفة بالسيفيات والقصائد الروميات لأبى فراس الحمدانى وهى حلقة من من حلقات ملحمة الحروب العربية الرومية . على أن أبا العلاء كما يخيل إلينا كان يلحظ فيما بينه وبين نفسه أن روح الجهاد قد فتر عند المسلمين وعند قومه خاصة وأنهم أمام استعلاء الروم وكلبهم عليهم قد التزموا خطة الدفاع دون الهجوم . وقد أحب أن يعبر عن هذا الاعتقاد الذى استقر فى نفسه من طريق الكناية والرمز فنظم تلك المجموعة الغريبة من القصائد المعروفة « بالدرعيات » والواردة فى آخر « سقط الزند » فالدرع أداة وقاية لا سلاح هجوم كالسيف والرمح والقوس . هذا ظننا فى تعليل إنشائه هذه القصائد فإن يكن ظننا صادقا فقد أبدع أبو العلاء الرمز وأجاد الإشارة .

ويستعرض أبو العلاء جملة أحوال العالم الإسلامى لعهده ، فيرى حالا لا تسره من ظلم ، واضطراب ، وفقر ، وطغيان . ويجتهد فى أن يطب لتلك الحال فيذهب إلى أن الملوك والمتغلبين لم يدركوا أنهم فى حقيقة الأمر خدام رعاياهم وأجراؤها ، وأن الشعوب مستقر السلطان ومستمده :

مل المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

ويرى فى علاج الفقر أن يؤخذ الناس بأداء الزكاة المفروضة عليهم شرعاً :

وأحسب الناس لو أعطوا زكاتهم لما رأيت بنى الإعدام شاكينا

يا قوت ما أنت يا قوت ولا ذهب　　فكيف تعجز أقواما مساكينا

ويرى أن الأرض لله لا يصح تملكها :

الأرض لله ما استحيا الحلول بها　　أن يدعوها وهم فى الدار أضياف

تنازعوا فى عوارى فبينهم　　نبل حطام وأرماح وأسياف

ويرى أن فى إمكان الناس أن يصلوا إلى « المدينة الفاضلة » أو « اليوتوبيا » أو الجماعة السياسية المثالية إذا سلكوا طريق القصد وجادة الاعتدال :

إن أكلتم فضلا وأنفقتم فضـ　　لًا فلا يدخلن وال عليكم

لا تولوا أموركم أيدى النا　　س إذا ردّت الأمور إليكم

* * *

وكما وجد أبو العلاء فى التاريخ قديمه والمعاصر له مادة غذت فنه الأدبى وأعانته على صوغ آرائه فى الإصلاح السياسى والاجتماعى ، فقد وجد فيه كذلك مادة لآرائه الفلسفية الخاصة به . لقد عرض تواريخ الأفراد والملوك والأمم وما يختلف على الناس من أحوال فوجد كل ذلك لا محالة منتهيا إلى العدم والفناء ، رأى الحياة كلها أشبه شىء بعملية حسابية مركبة نتيجتها الصفر . ومن ثم ساء ظنه بالحياة ولم ير فى سعى الناس سوى جهود عقيمة :

حوداث الدهر ما تنفك عادية　　على الأنام بإلباس وتلبيس

ألوت بكسرى ولم تترك مرازبه　　وبالمناذر أودت والقوابيس

زارت حسينا وحست بالردى حسناً　　وواجهت آل عباس بتعبيس

والليل والنهار عنده شقا مقراض يأتيان على كل شىء :

الصبح أصبحُ والظلا　　م كما تراه أصم حالك

يتباريان ويسلكا　　ن إلى الورى ضيق المسالك

أسدان يفترسان من　　مرا به فأبه لذلك

حملا الممالك عن ردى　　قاض إلى خان وآلك

والشر ، لا الخير ، هو الغالب على الناس .

والأرض موطن شرة وضغائن　　ما أسمحت بسرور يوم فارد

هذه فلسفة التاريخ عند أبي العلاء وتفسيره إياه . هو تفسير رجل متشائم لا يرى فى العالم ولا فى الحياة شيئاً يسر . وهو من أجل ذلك يستعجل الفناء والعدم و يمتنع من الزواج الذى هو وسيلة النسل و بقاء النوع .

تواصل حبل النسل ما بين آدم ‏ و بينى ولم يوصل بلامى باء

وهو سيء الظن بالناس زاهد فيهم :

وزهدنى فى الناس معرفتى بهم ‏ وعلمى بأن العالمين هباء

***

نهيتك عن خلاط الناس فاحذر ‏ أقاربك الأدانى واحذرنى

وإن أنا قلت لا تحمل جرازا ‏ فهز أخا السفاسق واضربنى

إلى أى شيء يرجع هذا التشاؤم ؟

قد يقول قائل إن مزاج أبي العلاء المتأثر بحياته التى أخذ نفسه بها بعد عودته من بغداد هو علة هذا التشاؤم . ولكن مزاج شاعرنا الفيلسوف نتيجة لا علة لتلك الحال . فهو إنما أخذ نفسه بحياة الزهد والتقشف البالغ بعد أن بلغ الأربعين و بعد أن استكمل خبرته بالناس . إذاً فخبرته بالناس وفى القديم وفى زمنه هى علة تشاؤمه . هى علمه بالتاريخ كما وصل إليه وكما عرفه .

لقد كان علم قدماء المؤرخين من الإغريق والرومان بالإنسان وحياته قاصراً قصوراً بيناً لقد بنوا الرواية التاريخية على حياة الفرد أو الأسرة أو القبيلة أو المدينة أو طبقة بعينها ، ومن شأن التاريخ إذا بنى على هذا الأساس أن يكون قاتم اللون مليئاً بأخبار الفتن والثورات وظلم الإنسان للإنسان واستعباد الطبقات بعضها لبعض . فلما اطلع فلاسفة الإغريق والرمان على هذا التاريخ تأثروا به فى صوغ نظرياتهم عن الحياة جملة فجاءت نظريات ملؤها التشاؤم سواء فى ذلك نظريات أفلاطون والرواقيين والأبيقوريين وصنيق ومارك أوريل . فمنهم من رأى أن العالم ينتقل فى أدوار زمنية يفتتح كل منها بعصر ذهبى مجيد ثم لايزال يتدلى و يضعف حتى يختتم بحال فوضى واضمحلال ، ثم يفتتح دور آخر وهلم جرا . ومنهم من رأى الإنسان محدود القدرة مضروباً بينه و بين قوى لا حد لقدرتها هى الآلهة بنطاق لا سلطان له عليه . فنقمة

فلاسفة الإغريق والرومان نغمة حزن و يأس وحسرة على الناس والحياة بوجه عام ، ثم جاءت العصور الوسطى الأوربية وساد سلطان النصرانية فأصبح الناس يرون أن هـذه الدنيا دار بلاغ وأن الآخرة هى دار القرار وأن السعادة فى هذه الدنيا ليست محققة وأن الحياة الآخرة هى التى ترجى فيها السعادة والخلود . فازداد الناس ضيقاً بالحياة وأصبح شعارهم الزهد فيها وتمنى الخلاص منها . والرواية التاريخية الشرقية لا تختلف فى خصائصها العامة عن الرواية الغربية . والمجتمع الشرقى القديم لم يختلف اختلافاً جوهرياً عن المجتمع الإغريقى الرومانى القديم ، ومن ثم كانت نظرة حكماء الشرق نظرة يأس وحزن وتشاؤم . وفكرة الأدوار التى تحدثنا عنها عند مفكرى الإغريق والروم تقابل فكرة « الفترات الزمنية » التى تفتتح بمجىء نبى أو رسول وتنتهى بقيام آخر والإيمان بحياة مستقبلة ينعم فيها المؤمن و يخلد وهى خير ما يتعزى به المؤمن عما يصيبه من البلاء فى هذه الدنيا .

لم يلحظ القدماء على العموم أن الإنسان ابتدأ ضعيفاً ثم صار بعقله واجتهاده وقوة إرادته يرقى شيئاً فشيئاً ، ولـكنهم خصوا بعنايتهم ضعفه أمام عوامل لا سلطان له عليها مثل القضاء والقدر والحياة الأخرى وعلاقته بخالقه سبحانه وتعالى .

و بعد : فأبو العلاء قد نهج فى فلسفة التاريخ منهج المفكرين القدماء من المشارقة والمغاربة على السواء لأن العلة واحدة فى الحالين . على أن تشاؤمه و يأسه ينطو يان على حب حقيق للإنسان والإنسانية . و إذا كان أبو العلاء شديد الرفق بالحيوان فلا شك أنه كان فى أعماق نفسه أشد رفقاً بالإنسان .

السلطان يمين الدولة

محمود الغزنوى*

٣٨٧ — ٤٢١ هـ

علم من أكبر أعلام الشرق ، رفع منار الإسلام عالياً وشاد فى أواخر القرن الرابع الهجرى وأوائل الخامس دولة عظيمة انتظمت الركن الشمالى الغربى من الهند ، وأفغانستان و بلاد ما وراء النهر ، ومعظم بلاد فارس ، ونشر لواء العدل فى تلك الدولة المترامية الأطراف وناصر فوق ذلك العلوم والفنون والآداب مناصرة قلما نجد لها مثيلا فى التاريخ .

* * *

والسلطان محمود من أصل تركى . وقد ظهر الجنس التركى على مسرح التاريخ الإسلامى فى أوائل القرن الثالث الهجرى عنـد ما اقتضت سياسة الخلفاء العباسيين الاستظهار بالترك على الفرس الذين كانت لهم مطامع قومية قوية ، وعلى العرب الذين صيرتهم عصبيتهم القبلية أداة لا يعتمد عليها فى سياسة الدولة وتدبير أمورها .

وللترك فى تاريخ الدولة الإسلامية صفحتان متباينتان كل التباين ! صفحة مظلمة حالـكة الإظلام نتبينها فى استبداد الجند التركى بالخلفاء العباسيين فى القرن الثالث الهجرى وأوائل الرابع ، وإذلالهم إياهم أيما إذلال ، عزلا وتولية وسجنا ومثلة وتعذيبا . أما الصفحة الأخرى فمشرقة رائعة الإشراق ، نتبينها فى قوة اعتقادهم للإسلام وشدة إخلاصهم له ، وفى انتصارهم للمذهب السنى بعد أن استعلت عليه المذاهب الأخرى من تشيع وباطنية واعتزال حتى كادت تقضى عليه وتذهب به كل ذهاب ، كما نتبينها فى شدة دأبهم على نشر الإسلام فى الأقطار الوثنية ، ومكافحتهم أعداء الدولة الإسلامية من الروم والصليبيين والتتار ، فالغزنويون وأعقابهم نشروا الإسلام ديناً ودولة فى الهند ، والسلاجقة ردوا إلى المذهب

(*) ولد فى سنه ٣٦١ هـ وتولى الحكم بغزنة سنة ٣٨٧ هـ وتوفى فى سنة ٤٢١ هـ . والغزنوى نسبة إلى مدينة « غزنة » عاصمة أفغانستان الإسلامية القديمة ، وتقع جنوبى مدينة كابل الحديثة .

السنى قوته واعتباره ، وصدوا الروم ، ونازلت أتابكتهم الصليبيين فى الشام وكسروا شوكتهم وقضى مماليك مصر على بقايا الصليبيين بالشام وصدوا التتار عن مصر والمغرب فأسدوا بذلك منة مذكورة مشكورة إلى المدنية الإسلامية والمدنية الأوربية على السواء .

من هؤلاء الأتراك مملوك اسمه ناصر الدولة سُبُكْتِكِين ، كان عاملا على أفغانستان للدولة السامانية الفارسية القائمة بما وراء النهر . وكان سبكتكين رجلا هماماً شجاعاً ، وسع حدود ولايته من ناحية الغرب بأن حصل على إمرة خراسان من مولاه السامانى ، ومن ناحية الشرق بأن غزا إقليم البنجاب وهزم ملكه الهندى جيبال ، وأقام فيه حكومة إسلامية فى مدينة بشاور ، فلما توفى فى سنة ٣٨٧ هـ خلفه ابنه محمود الذى نتكلم عليه .

ورث محمود عن أبيه نشاطه الجم ، وعبقريته العسكرية ، هذا إلى طموح عظيم وغيرة دينية لا سمعة فيها ولا رياء .

ويجد محمود نفسه عند توليه ملك غزنة فى محيط سياسى مفكك الأوصال ، متداعى البنيان . ولقد كانت الدولة السامانية تعالج سكرات الموت تحت ضربات الترك الأيلكخانية ، وكانت الدولة البويهية بفارس تعانى أبرح ما تعانيه دولة من جراء اختلاف الكلمة وتفرق الأهواء . فلم يتردد محمود فى أن يخلع طاعته للدولة السامانية المحتضرة ، ويدعو للخليفة العباسى القادر بالله ، ويوسع رقعة ملكه على حساب السامانيين والبويهيين جميعاً ، حتى آل الأمر إلى أن أصبح وارث الدولتين معاً على وجه التقريب .

ولقد عرف له الخليفة العباسى القادر بالله فضله وغيرته وبُعد همته فخلع عليه لقب السلطان يمين الدولة ووالى أمير المؤمنين ، فأصبح يلقب بذلك اللقب واشتهر به فى التاريخ . ويقول ابن الأثير إنه أول من لقب بالسلطان ولم يلقب به أحد قبله [١] .

***

على أن السلطان محموداً كان أكبر من أن يقنع بولاية غزنة وما ضمه إليها من فتوح

---

(١) يقول المستشرق الإنجليزى ليذبول إن لقب « سلطان » لم يظهر على عملة محمود الغزنوى ، وإن أول من تلقب بهذا اللقب من الأسرة الغزنوية هو إبراهيم ظهير الدين (٤٥١ — ٤٩٢ هـ) مقتديا فى ذلك بالسلاجقة الذين كانوا السابقين إلى التلقب بلقب سلطان كما يؤخذ من دراسة العملة الإسلامية (كتاب الأسر الإسلامية ص ٢٨٦) .

هى فى واقع الأمر فتوح بلاد إسلامية . لقد حفزته حميته الدينية واعتراف الخليفة العباسى بإمرته إلى أن يوجه قواه وجهوده إلى أقطار وثنية تتاخم مملكته هى بلاد الهند .

وكانت الهند إذ ذاك عالما قائما بذاته يكاد يكون فى عزلة عن سائر العالم بشعوبه ولغاته وعقائده وعاداته . نعم إن العرب حاولوا إبان فتوحهم الكبرى الأولى فتح بابها فغزوها من ناحية مصب نهر السند على يد قائدهم الشاب العربى محمد بن القاسم الثقفى ، فبلغ فى غزوته الملتان . ولكن هذه الغزوة على أهميتها من الناحية التاريخية لم تتبعها محاولات أخرى للتوسع فى الهند لا فى بقية العصر الأموى ولا طوال العصر العباسى الأول .

وكأن الأقدار ادخرت شرف استئناف هذا المشروع الخطير والسير به أمداً بعيداً ، للعنصر التركى وللسلطان محمود الغزنوى بالذات . فلقد نذر لله أن يكفر عن محاربته إخوانه فى الإسلام من سامانيين وبويهيين بأن يغزو الهند كل سنة ويثخن فى أرضها حتى يعلى فيها كلمة الإسلام أو يبلى عذراً .

ولقد كان السلطان يجهد أن يفى بنذره كلما ساعدته الظروف وواتته الأحوال . ففيما بين سنتى ٣٩٢ و ٤١٦ هـ غزا ما لا يقل عن سبع عشرة غزوة . فكان ينصب من جبال أفغانستان على سهل الهندستان فى جنوده الأتراك الأشداء ، بخيولهم الفارهة وأسلحتهم الموفورة ، ونظامهم الحربى البديع ، انصباب السيل الدافع فيعبر الأنهار الصعاب ، ويتملك القفار المدوية ، ويفتح المدن الحصينة ، ويخرب المعابد الوثنية ، ويكسر الأصنام الهندية ، لا يبالى تعبا ولا نصبا . ثم يكر راجعاً إلى غزنة ممتلئ اليدين من السبى الرائع ، والمغانم الهائلة ، مما حوته معابد الهنود من كنوز الذهب والفضة وفاخر الجواهر ونفائس الأعلاق .

وقد انجلى هذا الغزو المتتابع عن امتلاك السلطان محمود إقليمى البنجاب وقشمير ، وسيطرته على مملكة كجرات الواقعة على المحيط الهندى .

ودخل الهنود فى دين الله أفواجا ، وترك فيهم السلطان الفاتح من يعلمهم أصول الدين الإسلامى ويلقنهم مبادئه ، فرسخ الإسلام من ذلك الوقت فى بلاد الهند ، وأصبح ديانة قومية ، ثابتة الدعائم ، قوية الأساس ، على نحو ما نشاهده الآن فى دولة باكستان الحديثة .

* * *

أثبت السلطان محمود أنه ذلك الفاتح الكبير والقائد المظفر الخطير. بيد أنه فى مجال العمل السلمى لا يقل روعة وابتكارا عنه فى مجال الحرب والجهاد ، بل لعل جانب العمل السلمى من سيرته وما يشتمل عليه من تشييد البناء ، وتنظيم الإدارة ، ومناصرة العلوم والفنون والآداب ، أجل شأناً من جانب البراعة العسكرية وأبعد أثراً .

جدد عمارة المشهد بطوس وهو الذى فيه قبر على بن موسى الرضا وقبر الخليفة هارون الرشيد ، وأحسن عمارته كما يقول ابن الأثير . و بنى فى غزنة مسجدها المظيم ، بناه بالرخام وحجر الصوان ، وأضاءه بمصابيح الذهب والفضة ، وفرش أرضه بالبسط الفاخرة . ويسر جلب الماء إلى عاصمته بقناطر خاصة ، وجملها بكل ما تجمل به المدن من مختلف المرافق ، واقتدى به فى ذلك رجال دولته ، فانتقلت غزنة فى عهده من حال مدينة خاملة إلى حال عاصمة من أعظم عواصم العالم الإسلامى .

ولكن أمرين رفعا السلطان محمود إلى أعلا منزلة يطمح إليها أمثاله من مؤسسى الدول أولهما أنه كان شديد العناية بمصالح رعيته ، حريصاً على نشر لواء العدالة بينهم ، قوى الاعتقاد بأن العدل أساس الملك ، وقد وصفه بهذه الفضيلة الكبرى ابن الأثير فى تاريخه ، والوزير السلجوقى نظام الملك فى « سياستنامه » والأمر الثانى ولعه المظيم بالعلوم والفنون والآداب ، أسس فى غزنة جامعة كبيرة ، رتب لأساتذتها الرواتب ، وأجرى على طلابها الجرايات ، وأمدها بمكتبة حوت من نفائس الكتب الشىء الكثير . ولقد كان ذا حرص عجيب على أن يجتذب إلى بلاطه وعاصمته أعاظم العلماء والفلاسفة والشعراء والكتاب والمؤرخين ، مسخراً فى سبيل ذلك جاهه وماله معاً . وقد اتفق فى عهده سقوط الدولة السامانية ، واضطراب أمر فارس والعراق وصيرورة كثير من رجال العلم والفلسفة والأدب ، شبه مشردين لا يجدون ملجأ ولا نصيرا . فاستجاب كثير منهم لرغبة السلطان الغزنوى العظيم . واجتمع منهم ببلاطه عدد عظيم ، منهم أبو الريحان البيرونى صاحب التصانيف التى لم يؤلف مثلها فى تاريخ الهند و بيان عقائد أهلها وعاداتهم والعتبى المؤرخ الذى وضع « الكتاب اليمينى » فى سيرة السلطان محمود . وأبو الفتح البستى الشاعر المشهور ، والإمام أبو منصور الثعالبى صاحب « يتيمة الدهر » وكان السلطان حريصاً

على اجتذاب الرئيس أبى على بن سينا ، ولكن ابن سينا كان يخشى بوادر السلطان وحدة مزاجه فلم يجب طلبه وبالغ فى التخفى عن عيون الرجال الذين بثهم السلطان للبحث عنه وإشخاصه إليه .

وكما أخذ السلطان بناصر علماء العرب وشعرائهم ومؤرخيهم وكتابهم ، فقد ناصر كذلك شعراء النهضة الأدبية الفارسية الإسلامية فكان يزين بلاطه منهم العنصرى والفرضى والعسجدى والأسدى والغضائرى وخاصة أبا القاسم الفردوسى شاعر إيران الأكبر . وللفردوسى مع السلطان محمود قصة نعرض لها فى مقام آخر (١) .

تلك سيرة السلطان محمود الغزنوى بالإيجاز الشديد . ومنها يتبين أنه يعد بحق من أعظم أعلام التاريخ الإسلامى . وقد توفى فى غزنة سنة ٤٢١ ويورد ابن الأثير بعض سيرته فيقول « كان يمين الدولة محمود بن سبكتكين عاقلا ، ديناً ، خيراً عنده علم ومعرفة ، وصنف له كثير من الكتب فى فنون العلوم ، وقصده العلماء من أقطار البلاد ، وكان يكرمهم ويقبل عليهم ويعظمهم ويحسن إليهم ، وكان عادلا كثير الإحسان إلى رعيته والرفق بهم كثير الغزوات ملازماً للجهاد إلى أن يقول « ولم يكن فيه ما يعاب إلا أنه كان يتوصل إلى أخذ الأموال بكل طريق » .

ثم يقول فى حليته « وكان ربعة مليح اللون حسن الوجه ، صغير العينين ، أحمر الشعر » .

ولا شك أن السلطان محموداً كان حريصا على جمع المال ولكن مما يهون من نقد ابن الأثير له من هذه الناحية أنه لم يكن ينفق المال الذى يجمعه على نفسه وملذاته ، بل كان ينفقه فى إعداد الجيوش الجرارة وتشييد المبانى النافعة ونشر لواء العدل ، وخدمة العلم والعلماء .

---

(١) انظر المقال الآتى عن الفردوسى .

١ - الفردوسى [١]

(٣٢٥ — ٤١١ هـ)

احتفلت الأمة الإيرانية فى أكتوبر الماضى بذكرى مرور ألف سنة على ميلاد شاعرها الأكبر أبى القاسم الفردوسى ، وقد دام احتفالها نحو شهر من الزمان كانت إيران كلها فيه متصلة الأعياد بادية البشر والسرور . ولم تكن الحفاوة بتلك الذكرى مقصورة على الإيرانيين وحدهم ، فقد شاركهم فيها العالم المتحضر شرقه وغربه ، فأوفدت ثمانى عشرة دولة كبيرة إلى إيران من يمثلها فى الاحتفال بذكرى الفردوسى ، وزاد بعضها من قبيل المجاملة للإيرانيين والتنويه بشاعرهم فاحتفى بتلك الذكرى احتفاء خاصاً فى عواصمه . فعل ذلك الألمان فى برلين ، والإنجليز فى لندن ، والفرنسيون فى باريس ، والإيطاليون فى رومية . وعما قريب تحذو مصر حذوهم فتهب ذكرى الفردوسى أسبوعاً من الزمن يتحدث فيه بالقاهرة نفر من فضلائها عن حياة الفردوسى وشعره ، وعن أثر قومه فى عالم الفن والأدب .

وأريد بهذه المناسبة أن أعرض فى هذا المقال وفى مقال آخر آت لسبب حفاوة الفرس وغير الفرس بذكرى الفردوسى . وسنرى أن البحث ميكشف لنا عن شخصية فذة عجيبة حقاً . شخصية استطاعت من جهة أن تستنقذ قومية ولغة كان يتنازعهما البقاء والعدم ، ومن جهة أخرى ساهمت بنصيب موفور فى ميراث العالم الأدبى الباقى على مر الزمان .

* * *

هو أبو القاسم الحسن بن على الفردوسى ، وكلمة (الفردوسى) لقبه الشعرى ، فقد جرت عادة الفرس من قديم أن يخلعوا على شعرائهم ألقاباً خاصة كالدقيقى ، وملك الشعراء ، ومحكم الشعراء وهكذا [٢] . ولد على رأى بعض الثقات حوالى عام ٣٢٥ هـ بقرية من قرى مدينة

---

(١) أذيع مضمون هذا المقال من محطة الإذاعة المصرية فى ١٧ ديسمبر سنة ١٩٣٤ . هذا ولم نقصد فى بحثنا إلى تاريخ الشاعر من الناحية الفنية فليس ذلك من شأننا ، إنما قصدنا إلى التحدث عنه من حيث إن حياته تلق ضوءاً على الحال السياسية فى آسيا الوسطى الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى . ومن يرد سيرة الشاعر نفسه فليلتمسها فى مظانها وخاصة الشاهنامه ، ومقدمة (مول) لترجمتها الفرنسية وكتاب نولدكه عنها ، ومقدمة الدكتور عبد الوهاب عزام لترجمة البندارى العربية للشاهنامه .

(٢) وقيل فى تعليله غير ذلك (انظر المدخل إلى الشاهنامه» للدكتور عزام .

طوس بخراسان يقال لها (باز)، وورث عن أبيه ضياعا كانت تغل عليه فى صدر حياته كفايته من المال. وتعلم فى حداثته ما كان يتعلمه أمثاله من أبناء الدهاقين فى ذلك الزمان، فحذق الفهلوية والعربية. وشغف فى صباه بقرض الشعر الفارسى والتوفر على مطالعة القصص الفارسى القديم. فأنشأ كل ذلك عنده اعتداداً بقومه واعتناقاً لمذهبهم الشيعى. وشدا شيئاً من آراء المتكلمين من المعتزلة، فنشأ فارسى الهوى، شيعى المذهب، معتزلى الرأى.

كان أمر خراسان فى ذلك الوقت إلى الدولة السامانية، وهى دولة فارسية من الدول التى تقسمت سلطان الدولة العباسية بضعف السلطة المركزية فى بغداد ابتداء من القرن الثالث الهجرى. وقد جهد السامانيون فى بعث الروح القومى الفارسى مستعينين على ذلك بما للتاريخ والأدب من القوة فى إذكاء الروح القومى عامة. فنقل وزيرهم البلعمى برسم الأمير منصور السامانى تاريخ الطبرى إلى الفارسية، وتقدم عاملهم على طوس أبو منصور ابن عبد الرزاق إلى رجل يقال له أبو منصور المعمرى فى جمع أخبار الفرس القدماء فى شكل تاريخ شعبى لفارس من أقدم عصورها إلى الفتح الإسلامى، فعهد المعمرى بالأمر إلى أربعة من الفرس الزرادشتيين فجمعوا ذلك التاريخ من الكتب المحفوظة فى قلاع فارس، وفى خزائن الموابذة والدهاقين. ثم كتبوا ذلك التاريخ بالفارسية الحديثة وسموه «شاهنامه» أى «كتاب الملوك»، وكان ذلك حوالى عام ٣٤٧ هـ؛ وأراد السامانيون أن يسهل على الفرس تناول هذا التاريخ وتداوله، فعهد الأمير نوح بن منصور السامانى بنظمه شعراً إلى فتى فارسى شاعر يعرف بالدقيقى. فأخذ الدقيقى فى ذلك فنظم منه ألف بيت ثم هلك غيلة حوالى عام ٣٦٦ هـ.

اطلع الفردوسى على شاهنامه المنثور وعلى ما نظم الدقيقى منه من نسخة أعاره إياها صديق له يقال له (محمد لشكرى). وأشار عليه ذلك الصديق أن يتم ما شرع فيه الدقيقى، وصادف ذلك هوى فى نفسه، فامتثل الإشارة وعكف على نظم شاهنامه من حيث انتهى صاحبه، فقضى فى ذلك ثلاثا وعشرين سنة أتم فيها نسخة شاهنامه الأولى (٣٨٩ هـ) ثم أهدى تلك النسخة إلى كبير من كبراء الفرس الظاهرين بأرض أصبهان يقال له أحمد الخالنجانى، فأجازه عليها بجائزة يسيرة.

***

فى تلك السنين الطوال ، تبدلت الحال فى خراسان لاضطراب أمر الدولة السامانية القومية المستنيرة ، وعراها ما يعرو البلاد عادة عند التأذن بذهاب دولة وقيام أخرى . فأهملت المرافق العامة وخاصة مرافق الرى ، والبلاد بعدُ بلاد زراعية ، فشح الماء ، وجف الزرع ، وأجدبت الحقول ، ونالت ملاك الأراضى شدة تعذر عليهم معها أداء الخراج الموضوع على أراضيهم . وكان الفردوسى بطبيعة الحال من ضحايا تلك الضائقة الاقتصادية ، وزاده ضنكا وسوء حال انصرافه إلى حياة الأدب المحض ، واضطراره إلى أن يستكفى غيره النظر فى شئون أرضه . ويظهر أثر تلك الحال واضحاً فى ترديده فى شعره الشكوى من الفاقة وتنكر الزمان . وقد اضطر آخرة الأمر إلى مسألة أصدقائه ، فأعانه منهم نفر كرام النفوس أوفياء القلوب ، كافأهم عن صنيعهم بأن نوه بذكرهم فى الشاهنامه . والحق أن الفردوسى ، وقد فقد الانتفاع بأرضه أصبح يرى أن من حقه على الناس أن يكافئوه على جهوده الأدبية بمال يزوج منه ابنته الوحيدة ، وينفق منه على نفسه فى شيخوخته . وطفق لذلك يبحث عن أمير نبيل أو ملك جليل يهدى إليه الشاهنامه فيجيزه بجائزة تحقق أمنيته ، وسرعان ما وجد ذلك الملك الجليل فى شخص السلطان محمود الغزنوى .

والسلطان محمود الغزنوى أوحد ملوك الإسلام لذلك العهد ، وأحد أبطال التاريخ الإسلامى على الإطلاق . قد شاد بعزمه وهمته ملكاً عريضاً وسع سهل الهندستان ، وخراسان ، وتركستان ، وطبرستان ، وفارس . وأصبحت قاعدته (غزنة) بمساجدها ومدارسها وخزائن كتبها وعلمائها الأعلام من أمهات المدن الإسلامية . ويقال إنه لم يجتمع قط فى مدينة أسيوية فى وقت واحد من أعيان الأدب وأقطاب العلم والفلسفة مثل من اجتمع بغزنة على عهد السلطان محمود . ذلك بأن السلطان كان شغوفا بالعلم والأدب ، حريصا على اجتذاب العلماء من مختلف البلدان الإسلامية ليقيمهم بحضرته ، فيزدان بهم بلاطه ، وتكون له من قربهم شهرة أدبية تضاف إلى شهرته الحربية التى طبقت الآفاق . ومن العلماء الذين حفلت بهم غزنة على عهده ، البيرونى والعتبى المؤرخان ، والفارابى الفيلسوف ، وأبو الفتح البستى الشاعر العربى ، والعسجدى والعنصرى والفرخى ، وكلهم من سباق شعراء الفرس فى الإسلام . وكان الرئيس أبو على بن سينا قد قصد حضرة السلطان ثم بدا له فعدل عنها إلى جهة أخرى . وكان السلطان كلما فرغ من حرب وأقام بعاصمته متودعاً ، جلس إلى

أولئك العلماء يحدثهم أو يستمع إلى حديثهم ، وهو فى تصيده العلماء ومباهاته بهم يذكرنا بسيف الدولة الحمدانى ، والحكم المستنصر الأندلسى ، و بفردريك الأكبر ملك بروسيا ، ولويس الرابع عشر ملك فرنسا .

ذلك هو الملك الجليل الذى رآه الفردوسى مهوى فؤاده ومحط آماله . فأخذ يعد العدة لانتجاع حضرته والاعتراف من فيض جوده . فحمل يراجع الشاهنامه ، مطامنا بين أجزائه ، مكملاً ما نقص منـه ، مستدركاً ما فاته فى نسخته الأولى ومحلياً فصوله بمِدَح سنية يطوق بها جيد ذلك الملك العظيم . وقد قضى فى ذلك إحدى عشرة سنة ، فقد فرغ من إعداد النسخة الثانية للشاهنامه عام ٤٠٠ هـ و بلغت عدة أبياتها ستين ألفاً .

***

توجه الفردوسى إلى غزنة ومعه راويته ونسخة الشاهنامه ، فلقى وزير السلطان الرئيس الكبير أبا العباس الفضل بن أحمد ، وكان معنياً بنشر الفارسية ، فأبلغه حضرة السلطان . واطلع السلطان على الشاهنامه ، ولا ريب أنه أدرك أنه ثمرة مجهود عقل جبار ، ولكنه مع ذلك لم يتقبله بقبول حسن . والروايات القديمة مجمعة على أن الوشاية والكيد قد عملا عملهما فى إفساد قلب السلطان على الوزير والشاعر معاً . ولكن الأمر أجل من ذلك وأعظم ، فليس من شك فى أن ذلك السلطان التركى المسلم الذى أنفق من الجهد فى إعلاء كلمة الإسلام فى الهند ما أنفق ، والذى كان نصيراً للسنة ، وخصما ألد للباطنية والمعتزلة ، هذا السلطان لم يعجبه أن يشيد الفردوسى بمجد حازه الفرس أيام مجوسيتهم ، كما لم يعجبه أن ينفخ فى بوق العصبية الفارسية ، وأن يدير كتابه على الحروب التى وقعت فى القديم بين إيران وطوران ، كما لم يعجبه تشيعه وجهره بآرائه الدالة على اعتزاله . كل ذلك قعد بالسلطان عن أن يجيز الشاعر بالجائزة التى كان يتوقعها ، والتى كان يعلق عليها آمالا كباراً . فيقال إنه بعث إليه بعشرين ألف درهم فقط مكافأة له على مجهود خمس وثلاثين سنة فيما يقال .

لكن الفردوسى لم يكن بالرجل الذى يحتمل هذا التقصير فى حقه . فقد جزى السلطان شر جزاء . فيقال إنه دخل حماماً فلما خرج منه شرب فقاعاً ، ثم قسم عطية السلطان بين الحامى والفقاعى . و بلغ ذلك السلطان فهاج غضبه ، وهم بأن يبطش بالشاعر ، فلاذ الفردوسى

بالفرار من غزنة ، وظل مختبئاً بمدينة هراة ستة أشهر نظم فيها مائة بيت من الشعر هجا فيها السلطان هجاء لاذعاً موجعاً . فلما سكن عنه الطلب خرج إلى طبرستان ونزل على صاحبها الأصبهبد شهريار فأكرم مثواه وطيب خاطره ، واعتذر إليه عن السلطان بأن الأمر لم يعرض عليه كما ينبغى ، واشترى منه هجو السلطان بمائة ألف درهم ، ثم محا ذلك الهجو من الشاهنامه محواً . بيد أن الفردوسى رأى أنه غير آمن على نفسه فى طبرستان لأنها داخلة فى حكم السلطان محمود ، فخرج عنها إلى العراق العربى ونزل على أميره سلطان الدولة البويهى .

ونظم له قصة (يوسف وزليخا) وهى من قصص القرآن الكريم . والفردوسى يصرح فى صدر هذه القصة بأنه نظمها تكفيراً عن إضاعته عمره فى نظم الشاهنامه ، الملئ بأساطير الفرس الأولين ، ولكن يظهر أنه إنما أراد بنظم تلك القصة أن يلائم بينه وبين البيئة العربية التى أدى به تطوافه إليها .

ومهما يكن من شىء ، فلا شك أن الفردوسى رأى نفسه غريباً بالعراق ، وأن سراج حياته يوشك أن ينطفئ ، وأحب أن يوافيه أجله فى مسقط رأسه ، قريبا من ابنته بين أهله ومعشره ، وهون الخطب عليه أن السلطان كان قد ذهب عنه غضبه عليه ، وأن أمره كان قد نسى أو تنوسى ببلاط غزنة . فخرج من العراق شاخصاً نحو طوس ، فبلغها شيخاً فانياً مهدود القوى قد جاوز الثمانين .

وتذكره السلطان محمود فى ذلك الوقت ، وذلك أنه كان راجعاً من الهند إلى عاصمة ملكه ، فعرض له ثائر فى قلعة حصينة ، فأرسل السلطان إلى الثائر رسولا أن « إيت غداً ، وقدم الطاعة ، واخدم حضرتنا ، والبس التشريف ، وارجع » فلما كان الغد ركب السلطان وإلى جانبه وزيره أحمد بن الحسن الميمندى . فلما بصر السلطان بالرسول مقبلا قال للوزير « ترى ماذا يحمل من الجواب ؟ » فتمثل الوزير ببيت من الشاهنامة معناه « إذا لم يكن الجواب كما أريد ، فأنا والجرز والميدان وافراسياب » فقال السلطان « لمن هذا البيت الذى تنبعث الشجاعة منه ؟ » قال « المسكين أبى القاسم الفردوسى الذى احتمل العناء خمساً وعشرين سنة وما جنى أية ثمرة » قال السلطان « أحسنت بما ذكرتنى ، إنى ليحزننى أن يحرم عطائى هذا الرجل الحر ، ذكرنى فى غزنة لأرسل إليه شيئاً » فلما قدم الوزير غزنة ذكر السلطان ،

فقال السلطان « مر لأبي القاسم بستين ألف دينار يعطاها نيلجا ، ويحمل على الإبل السلطانية ، ويعتذر إليه » .

غير أن القدر الساخر شاء ألا تنفذ مشيئة السلطان ، فيقال إنه عند ما وصلت الإبل التي تحمل الهدية إلى طوس ، كان الفردوسي قد أسلم الروح (٤١١ هـ) ، وأنه بينما كانت الإبل داخلة من بعض أبواب المدينة ، كانت جنازة الشاعر خارجة من باب آخر .

وأراد رسل السلطان أن يدفعوا الهدية إلى ابنة الفردوسي ، ولكنها اعتذرت من عدم قبولها . عند ذلك أمر السلطان أن ينفق المال في بعض وجوه البر ، فعمروا به رباطا للمجاهدين على حدود إقليم طوس . وكذلك نفى السلطان عن نفسه آخرة الأمر تهمة التقصير في حق الشاعر الكبير . فإن ادعى مدع أنه ظلمه في الأولى فقد أنصفه في الثانية ، ودل بذلك على نفس كبيرة وحلم عظيم .

* * *

تلك بالاختصار سيرة الحكيم أبي القاسم الفردوسي . وهي سيرة تفصح عما أوتيه ذلك الشاعر من قوة تتمثل في صدق عزيمته ، وبُعد همته ، وعظم غايته ، وثبات مقصده . كما أنها تفصح عن ضعفه الذي يبدو في حدة مزاجه ، وكثرة شكواه من الفاقة ، وتبرّمه بالناس والزمان ، ثم في ندمه في مطلع قصته الثانية على ما أنفق من جهده وأضاع من عمره في نظم ملحمته الأولى . على أن ذلك كله ليس مناط تعظيم قومه لذكراه ، إنما مناط ذلك هو الصنيع الجليل الذي أسداه إلى القومية الفارسية واللغة الفارسية الحديثة .

ولبيان ذلك ينبغي أن نرجع مع الزمن إلى أوائل القرن الأول الهجري ، فقد حمل العرب إذ ذاك على الدولة الفارسية ، وما هي إلا سنوات معدودات ، حتى كانوا قد قضوا على ملك آل ساسان ، وصيروا فارس إقليما من أقاليم الخلافة العربية ، وانتشر الإسلام بعقب ذلك في فارس حتى كاد يقضي على الدين الزرادشتي ، كما انتشرت العربية بين الفرس حتى أخلت الفهلوية وكادت تمحوها .

قبل الفرس الإسلام عن طواعية نفس وطيب خاطر . أما القومية فقد جاهدوا من أجل الاحتفاظ بها جهاداً عظيما . وقد تطور هذا الجهاد من مجرد مطالبة بالحقوق العامة قام

بها الموالى زمن الدولة الأموية ، إلى مؤازرة للثائرين عليها من الخوارج والشيعة ، إلى ثورة عامة انجلت عن سقوط الدولة الأموية العربية ، وقيام الدولة العباسية التى كانت فارسية فى أكثر أوضاعها العامة ، إلى استقلال سياسى يسره ضعف السلطة المركزية ببغداد ، إلى سعى حثيث فى أن يكون للفرس وجود قومى صحيح .

إلى هذا المجهود الضخم الموجه إلى الاحتفاظ بالقومية ، قام الفرس بمجهود آخر رائع من أجل إنهاض لغتهم وتعميم استعمالها فى بلادهم .

لقد طغت العربية على الفهلوية فى العصر العربى الأول طغيانا كان من أثره أن انحصر استعمال هذه اللغة فى حدود إقليمية ضيقة فى فارس وخراسان وطبرستان ، ولم تسلم الفهلوية فى معاقلها هذه من التأثر بالعربيـة ، فقد أصبحت تكتب بالخط العربى ودخلتها ألفاظ وتعابير عربية أحالتها إلى طور جديد من تاريخها ، عرفت فيه بالفارسية الحديثة . وبتنبه الشعور القومى عم استعمال اللغة المذكورة فى تلك الأقاليم الثلاثة ، حتى كادت العربية تنمحى من بعضها ، كما يؤخذ من قول المتنبى :

مغانى الشعب طيبا فى المغانى　　بمنزلة الربيـع من الزمان
ولكن الفتى العربى فيهـا　　غريب الوجـه واليد واللسان
ملاعب جِنـة لو سار فيها　　سليمان لسار بترجمان

وقد عول ساسة الدول الثلاث : الطاهرية والصفارية والسامانية ، على أن يجعلوا الفارسية الحديثة لغة أدب وتدوين ، فشجعوا الشعراء على النظم بالفارسية ، وأمر السامانيون بتدوين تاريخ قومى للفرس ، ونظمه بهذه اللغة كما تقدم القول .

وعلى الرغم من التقدم الذى أحرزه الفرس فى أمر قوميتهم ولغتهم ، فإنهم كانوا فى أواخر القرن الرابع بحاجة إلى مدد أدبى ممتاز يبعث فى القومية الفارسية روحا قويا ، ويثبت دعائم الفارسية الحديثة وينهضها على أساس ثابت ، وقد أمد الفردوسى قومه بهذا المدد . فالشاهنامه يعى بأسهل عبارة وأبلغ تصـوير تاريخ الفرس القدماء ومفاخرهم وآدابهم وأساطيرهم . لذلك أضحى فى حياة ناظمه — وهـذا أمر منقطع النظير — ملحمة قومية ،

ولم يمض طويل زمن حتى غدا « قرآن القوم » على حد قول صاحب « المثل السائر » .

* * *

لقد أدى الفردوسى « رسالته الخاصة » أحسن الأداء ، وأصبح فضله على قومه ولغته باقياً ما بقى قومه ولغته . وقد عرف له قومه هذا الفضل فذكروه فى هذه الأيام فأحسنوا ذكراه ، وشادوا فوق رفاته بناء عالياً ، وهذا جهد مثوبة الحى للميت . وإن الإنسان ليذكر فى هذا المقام دانتى الإيطالى ، وكورياس اليونانى ، فكلاهما أذكى الروح القومى فى بلده ، وجدد بمجهوده الخاص دارس لغته ، هذا بنثره ، وذاك بشعره .

٢ - الفردوسى

تتمـــة(١)

بينت فى مقالى السابق الذى من أجله يكبر الفرس الفردوسى و يعدونه شاعرهم القومى فقلت إن الفردوسى بنظمه « كتاب الملوك » الذى يضم بين دفتيه تاريخ الفرس الأقدمين وأساطيرهم وآدابهم ، قد أمد القومية الفارسية واللغة الفارسية الحديثة ، بمدد قوى ، رسم للأولى حدوداً واضحة ، وشرع للثانية منهجاً ظلت تسير فيه حتى يومنا هذا . والفردوسى بهذا الصنيع الجليل قد هيأ السبيل لظهور فارس الحديثة ذات الشخصية البارزة فى تاريخ الشرق الحديث .

ولـكن ما السبب فى أن شعوبا أخرى غير الفرس تحفل بالفردوسى وتجله ، ولم تتحاش أن تعلن ذلك بالاحتفال بذكراه الألفية ، وجواب هذا السؤال موضوع هذا المقال .

* * *

يعد الفردوسى عند علماء الأدب ونقاده شاعراً قصصيا من شعراء الطبقة الأولى ، فهو فى مرتبة هوميروس ودانتى وملتن . والشاعر القصصى العظيم هو الذى ينشىء ملحمة أى منظومة قصصية طويلة بليغة يعتبرها قومه غرة أدبهم . وحظ هذه المنظومة من الذيوع والانتشار يتوقف على نوع موضوعها . فإذا كان الشاعر قد اخترع الموضوع اختراعا وتخيله تخيلا ثم أفرغ عليه بعد ذلك حلة من بلاغته وقوة تصويره فهى ملحمة محدودة الذيوع ، يقبل على قراءتها خاصة الأدباء والمثقفين وأساتذة الأدب فى الجامعات . ومن هذا الصنف « الـكوميديا » لدانتى « والجنة المفقودة » لملتن . أما إذا ألف الشاعر موضوعه من الحـكايات الشائعة فى قومه ، وأساطيرهم التى يعتقدونها ، وأغانيهم التى يتغنون فيها بذكر

---

(١) يتضمن هذا المقال البحث الذى ألقيته باللغة العربية فى مؤتمر الذكرى الألفية للفردوسى المنعقد فى طهران سنة ١٩٣٤ . وهو البحث الوحيد الذى ألقى فى ذلك المؤتمر باللغة العربية ، وكان عنوان البحث « الفلسفة الأدبية للشاهنامه » .

ما اختلف عليهم من الأحـداث ، ثم عرض ذلك كله عرضاً شعرياً قوياً بليغاً ، وكان فى ذلك فيلسوف النظرة يتناول العام من ثنايا الخاص فيصور العالم وهو يصور قطعة منه محدودة ، ويصف الطبيعة البشرية وهو يصف قبيله ومعشره ، ويتناول الزمن وهو يتناول برهة منه ، إذا فعل الشاعر ذلك فقـد كتب لملحمته الذيوع والخلود . وسرعان ما يحل الحديث المونق المحكم محل القديم المبعثر المتفرق ، فتنسخ الملحمة الجديدة الحكايات القديمة ، وتأخذ مكانها من قلوب الأمة التى تصور فعالها ، وعلى مر الزمن تنفذ الملحمة من حدود المحلية والإقليمية وتشيع فى أنحاء العالم المتمدين وتستحيل أثراً أدبياً عالميا . وأشهر ملاحم هذا النوع ، الإلياذة والشاهنامه الذى نحن بصدد الكلام عليه .

والشاهنامه يسترعى اهتمام غير واحد من خاصة المتأدبين ، فاللغوى يطالع فيه صفحة واضحة من تاريخ اللغة الفارسية الحديثة ، والاجتماعى يجد فيه عوناً على تصور المجتمع الفارسى القديم ، ومعرفة أخلاق القوم وعاداتهم ومواضعاتهم ، والمعنى بالأساطير القديمة ينتفع به انتفاعاً جما فى دراسة الميثولوجيا الإيرانية والمقارنة ، ومؤرخ الأديان يستخلص منه صورة مجملة لعقائد الإيرانيين القدماء ، والمؤرخ السياسى يرجع إليه فى دراسة النظم الفارسية القديمة ويجد فيه صدى قوياً لعلاقة الفرس بمن جاورهم من الأمم وخاصة الهند والترك والعرب . والفنان الذى تستهويه بلاغة العبارة ودقة المعانى وقوة التصوير يرى فى الشاهنامه مثلا عليا لكل ذلك . فالفردوسى يعرج فى سماء البلاغة حتى يسامى النجم ، وهو فى الوقت نفسه يخاطب الناس بمألوف حديثهم ومتعارف معانيهم ، ثم هو وصاف مبدع ، إذا تصدى لوصف واقعة حربية أراك ميدان القتال ، وجلا على عينك ما يجرى فيه من كر وفر ، وهجوم وتحيز ، وأراك السيوف تلمع ، والرماح تشرع ، وأسمعك تصاول الكماة ، وصهيل الخيول ، وأنين الجرحى ، وصور لك ظفر الغالب وهزيمة المغلوب . فإذا انتقل إلى وصف مجلس من مجالس الدعة والأنس مثل لعينيك أسباب السرور ، ودواعيه ، وأدواته ، ونقل إليك ما يشيع فى المجلس من صفاء النفوس ، وتجاوب القلوب ، فإذا أراد تصوير العاطفة البشرية أراك حنو الأم ، وعطف الأب ، ووله العاشق ، ووفاء الزوجة ، وإخلاص الصديق

لقد أدرك الفردوسى قوام الفن وملاكه ، أدرك معنى الجميل ومعنى الجليل ، وعرف كيف يعبر عنهما .

* * *

على أن الناحية الأخلاقية من الشاهنامه ، هى عندى أهم نواحيها وأبعثها على التقدير العام بها . فالفردوسى لم يقصد إلى أن يكون مؤرخا ، ولا إلى إظهار بلاغته ، بمقدار ما قصد إلى أن يكون كتابه كتاب أدب وحكمة وتهذيب ، نلحظ ذلك فى الجانب التعليمى من كتابه ، فالفردوسى لا يبرح واعظاً ومرشداً وهادياً ، سالكا حينا طريق الحقيقة وحينا طريق المجاز ، ونلحظ ذلك القصد أيضاً فى خلو الشاهنامه خلواً مطلقاً من الألفاظ والمعانى التى ينبو عنها الأدب والذوق السليم ... بهذه المزية يصح القول بأن « كتاب الملوك » كتاب يتأدب بمطالعته الناس فى كل زمان وكل مكان ، وإذا كانت « الإلياذة » تنمى فينا عاطفة الحياء والغضب للحق ، وفضيلة الإيثار والانتصار للضعيف ، وإذا كانت « كوميديا » دانتى تعرفنا بطريقتها الرمزية أى أساليب الحياة يؤدى فى الآخرة إلى الثواب وأيها يؤدى إلى العقاب ، وإذا كانت « الجنة المفقودة » تقوى الروح الدينى فى نفس القارئ ، فإن الشاهنامه يرمى إلى تهذيب النفس وتكميلها .

وفلسفة الشاهنامه الأخلاقية تقوم على أربعة أمور عظام : الإيمان ، والواجب ، وطهارة القلب ، والزهد .

والإيمان عند الفردوسى ليس ذلك الشعور الذى يخالط ضعفاء النفوس وخورة الطباع ، ولكنه إيمان الأبطال والملوك . فالفردوسى يتعمد أن يظهر أبطاله وملوكه عند استكمالهم أسباب العزة والجبروت فى مظهر النقص والافتقار إلى عون الله ومدده مبالغة منه فى توكيد ضرورة الإيمان فى الحياة ، ورغبة منه فى كبح جماح النفوس الطاغية ، وكسر شرة القلوب العاتية . ولنمثل لذلك من الشاهنامه : فعند ما خرج الملك (كيخسرو) إلى قتال (أفراسياب) انتقاماً لمقتل ابنه (سيا وخش) جعل يدعو الله تعالى أن ينصره على عدوه يقول الشاهنامه[1] : « و بعد ذلك اغتسل كيخسرو ودخل متعبداً لهم ، وجعل طول ليلته

(١) انظر الترجمة العربية للشاهنامه ج ١ ص ٢٩٣ .

يتضرع إلى الله تعالى ويبتهل ويعفر خده بالتراب ويستنصره على أفراسياب ، ويستعين به عليه ، فقطع ليلته تلك بالسجود لله تعالى والدعاء ، فلما انتصر على خصمه من وجهه وأعياه طلابه رجع إلى الله يستعينه ويستهديه » . يقول الشاهنامه « فاغتسل ذات ليلة وأخذ كتاب الزند وخلا بنفسه فى مكان خال ولم يزل طول ليلته ساجداً لله تعالى يبكى ويتضرع إليه سبحانه ويقول : « إن هذا العبد الضعيف ، الموجع الجسم والروح طاف الدنيا ، فسلك رمالها وقفارها ، وقطع جبالها وبحارها ، طالباً لأفراسياب الذى أنت تعلم أنه سالك غير طريق السداد ، وسافك بغير الحق دماء العباد ، وأنت تعلم أنى لا أقدر عليه إلا بحولك وقوتك ، فمكنى منه . وإن كنت عنه راضياً ، وأنت تعلم ولا أعلم ، فاصرفنى عنه ، وأطفئ من قلبى نائرة عداوته وقف بى على سواء الطريق والنهج القويم » . وعندما غمر الثلج أسفنديار وأصحابه فى طريق « هفتجوار » الوعر الشاق ، ووجد ذلك البطل المغوار نفسه أمام قوة لا قِبَل له بها ، لم يسعه إلا أن يسلم أمره إلى الله تعالى ، فتقول شاهنامه : « فبينا هم كذلك إذ أظلم الجو واشتدت الريح ، ونشأت سحابة أبرقت وأرعدت وأطبقت عليهم ثلاثة أيام بلياليها ، تهيل عليهم الثلج هيلاً ، حتى امتلأت الأودية ، فصاح اسفنديار … وقال : قد اشتد علينا الأمر وليس ينفعنا الآن رجولة ولا قوة ، والرأى أن نلجأ إلى من لا ملجأ منه إلا إليه ، فإنه الكاشف للضر والقادر عليه ، فاجتمعوا ورفعوا أيديهم وتضرعوا إلى الله تعالى مبتهلين ، ودعوه دعوة الصادقين ، فسكنت الهواء وانجلت السماء » .

* * *

والأصل الثانى من أصول الفلسفة الأدبية « لكتاب الملوك » القيام بالواجب ، والشاهنامه يعنى بهذا الأصل الذى هو قوام الحياة اليومية أتم عناية . فأعظم ملوك الشاهنامه أقومهم بواجبه ، وواجب الملك فى رعيته العدل ، والحلم ، والسخاء ، وترك الاستبداد . فإذا ما حاد الملك عن هذا السنن « جفت الألبان فى الضروع ، ولم يأرج المسك فى النوافج ، وشاع الزنا والربا فى الخلق ، وصارت القلوب قاسية كالحجر الصلد ، وعاثت الذئاب وضربت بالإنس ، وتخوف ذوو العقول من ذوى الغواية والجهل » . وعهد كسرى أنوشروان لابنه هرمز حافل بتلك الآداب السلطانية التى تنص صراحة على ما يجب على الملك نحو نفسه ونحو رعيته .

وبطولة أبطال الشاهنامه تستند إلى شعورهم القوى بالواجب . انظر كيف لبى رستم طلب (جَيْو) إنقاذ ابنه (بيژن) وكان أسيراً مغلولا فى مطمورة مظلمة بأرض طولان . وقوله له (لا تهتم فإنى لا أحط السرج عن الرخس حتى آخذ بيد بيژن وأضعها فى يدك) وانظر خطاب جيو للملك كيخسرو (أيها الملك ! إن أمى ما ولدتنى إلا لطاعتك ، وتحمل المكاره فيما هو سبب راحتك . وهأنذا أشد وسطى فى امتثال أمرك ، ولا أسلك إلا سبيل خدمتك ولو أمطر الهواء على ناراً ، وتحولت الأشفار فى عينى شفاراً) وقول (اكشهم) لبيژن وهو يجود بروحه (أيها الحبيب النافج لا تحمل على نفسك كل هذا ، فإنه أشد على مما أنا فيه . واستر جراح رأسى بالترك ، واجتهد فى حملى إلى حضرة الملك ، فإن قصارى بغيتى ، وغاية أمنيتى ، أن أتزود منه بنظرة ، وأقر عينى بطلعته ولو لحظة ، وإذا مت بعد ذلك مت وليس فى قلبى حسرة ، فإنى لم أولد إلا للموت ، ومن أدرك أمله فكأنه لم يمت ، وأيضاً تجتهد فلعلك تستطيع أن تحمل هذين العدوين اللذين أهلكهما الله على يدى إلى المعسكر ، وإن لم تقدر فاحمل رءوسهما وعدتهما حتى تعرضها على الملك ، ليعلم أنى ما هلكت فى غير شىء) .

وروعة شخصية المرأة فى الشاهنامه تقوم على وفور حظها من الأنوثة والوفاء لزوجها ، يدل على ذلك نواح (تهمينة) على ابنها (سهراب) ووفاء (منيزة) لزوجها (بيتزن) فى محنته مع أن أباها كان المسلط على عذابه .

وكما تفرض الشاهنامه القيام بالواجب من حيث هو فضيلة أساسية للحياة الفاضلة فإنها تدل بالأمثلة المحسوسة والوقائع المادية كيف يؤدى الواجب . فينبغى أن نؤدى الواجب محلى بأحسن آداب السلوك من جد ورفق ، وسهولة خلق وضبط نفس ، ورقة شمائل ، ولا أدل على ذلك من الحوار الذى دار بين بطلى الشاهنامه (رستم) و (أسفنديار) عندما اشتد بينهما اللجاج وحمى الخصام ، فهو حوار ينم عن نبل خلق وسراوة نفس . وقد بلغ من دقة حس الفردوسى ورقة قلبه أن أوجب علينا الوفاء لمن أحسن إلينا ولو كان حيواناً أعجم . أنظر بأى قلب وأية شمائل يخاطب رستم الغزالة التى كان طرده لها سبباً فى وقوعه على عين ماء روى منها بعد أن كاد يهلك عطشاً ، فهو يخاطبها بقوله : (لا زلت يا غزالة الريف ، تفيئين إلى

الظل الوريف ، وتكرعين فى الزلال المعين ، وتتقلبين بين الورد والياسمين ، وأيما قوس راعك أنباضه ، فلا زالت متقطعة أوتاره ، فإنك سددت رمقى وشفيت غلتى » .

***

والأصل الثالث من أصول فلسفة الشاهنامه الأدبية طهارة القلب ؛ والفردوسى يحثنا فى غير موضع من كتابه على أن ننقى عن قلوبنا أدواء الحقد والحسد والضغينة . يقول رستم لاسفنديار : « ... وطهر قلبك بفضيلة الرجولة من دنس الداء الدفين » والفردوسى لا يكتفى بأن ينـدب قارئه إلى تطهير قلبه ، بل لقد يتولى هو بنفسه ذلك مستخدماً طريقة العرض الدرامى التى نلحظها فى أكبر الملاحم والقصص . نلحظها فى آثار هوميروس ، وسفوكليس ، واسخيلوس ، وشكسبير ، وملتن ، ودستو يفسكى . وذلك أن يعمد الشاعر إلى حادث رائع مفظع ، فيعرضه عرضاً فنياً قوياً ، فيهز بذلك قلب القارىء ويمخضه ، فيكون ذلك منه بمنزلة الدواء المر يتجرعه المريض على مضض ، ولـكنه تكون فيه سلامته من علته ؛ وقد بلغ الفردوسى بسلوك هذه الطريقة أسمى غايات الفن ، وأتى من رائع القصص ما يشغف القلب حسنه ، ويسحر اللب بيانه . انظر كيف يعرض قصة قتل رستم ابنه سهراب على غير علم منه بأنه ابنه ؟ يقول الشاهنامه : « ... ثم تناوشا الحرب ، وتطاعنا حتى انتثرت كعوب رماحهما ، فاستل كل واحد منهما سيفه ، وتضاربا ، وكأن النار تمطر من سيوفهما ، ولم يزالا حتى تكسرت سيوفهما ، فمدا أيديهما إلى عموديهما ، ورفعاها ، وجعلا يتضاربان ويتقارعان حتى تمزقت الأدراع الموضونة على أكتافهما ، وتقطعت التجافيف على خيلهما ، فضعفا ، ووقفت دوابهما ، و بقيا من العرق غريقين ، ومن العطش محترقين ، فوقف الأب من جانب ، والابن من جانب آخر ، ينظر أحدهما إلى الآخر . فيا عجبا ! كيف انسدت دونهما أبواب التعارف ، ولم تتحرك بينهما عروق التناسب ؟ والإبل مع غلظ أكبادها ، تعطف على أولادها ، والطيور فى جو السماء ، والحيتان فى قعر الماء لا تنكر أولادها وأفراخها ! والإنسان من فرط حرصه تخفى عليه فلذة كبده ويستنكر قرة عينه ولا ينزع إلى ولده ! »

ثم يقول رستم : « لم أر قط قتالاً بهذه الصفة ، ولقد انقطع رجائى من رجولتى » فإذا

ما استأنفا القتال ، قال سهراب لرستم وهو يجهل أنه أبوه : « إنى أرى أن نخلع الجوشن ، ونطرح السيف ، وننكف عن القتال ، فإن قلبي يميل كل الميل إليك ، وإن وجهى ليغمره الحياء منك » . ولكن يخيب رجاؤه ، ويعود الأب وابنه إلى المبارزة ، فيتغلب الأب ويصرع ابنه ، ويجثم على صدره ، ثم يذبحه ذبحاً ، ثم يتبين له ، وقد سبق السيف العذل ، أنه إنما ذبح ابنه ، فيشق جيبه ، ويضرب صدره ، وينتف شعره ، ويندب ولده ، ويحاول استنقاذه من براثن الموت فيعجزه ذلك ؛ ويموت سهراب ، فتتقد لوعة الحزن فى صدر رستم ، ويصيح من فرط العذاب : « من الذى أصيب بمثل ما به أصبت ؟ ومن الذى فجع بمثل ما به فجعت ؟ قتلت ولدى حين شاب رأسى وانقضى عمرى ! » .

إن القارئ ليتابع مشاهد هذه القصة وقلبه يتوثب فى صدره فرقاً وذعراً . فإذا بلغ الكارثة الأخيرة فقد لا يملك دمعه أسى وحزناً . وهذا الذى قصد إليه الشاعر رغبة منه فى أن يمكن فيه لعاطفتى الحنو والرحمة .

ولا يقف الفردوسى عند هذا الحد من تطهير قلب قارئه ، بل يجتهد فى أن يروض من نفسه ويكبح من جماحها بأن يجلو لها تقلب هذه الدنيا ، وتصرف أحوالها بالناس تصرفاً قد يسوء ضعاف النفوس ، ولكنه لا ينال من ذوى النفوس القوية منالاً ، وهو على عادته يعمد إلى أقوى شخصياته فيجعلها مناط فلسفته رامياً بذلك إلى أن نأخذ الدنيا كما هى فنفرح بها إذا أقبلت فى غير اغترار بها ، ولا نأسى عليها إذا هى أدبرت . وإن فلسفته من هذه الناحية لترجح فلسفة الرواقيين الذين يريدون أن نتجرد من العاطفة جملة ، فلا نفرح ولا نحزن ، ولا نغضب ولا نعتب . انظر كيف يصف الشاعر مصير الملك أفراسياب عندما قلب الزمان له ظهر المجن ، وتجهم له وجه القدر ، فآل أمره إلى أن وقع أسيراً فى يد رجل عابد فشد وثاقه واضطره إلى أن يخاطبه بقوله : « أيها العابد ! ما تريد من رجل اختفى فى مغارة ضيقة ؟ » فلما عنفه العابد على ما احتقب من أوزار قال : « بهذا جرت علىّ أقلام قضاء الله فى الأزل ، ومَن المعصوم فى هذه الدنيا الغدارة من الزلل ؟ » . ثم إن مصير الملك دارا واغتيال عبديه له تقربا بدمه إلى الإسكندر ليجرى مجرى حديث أفراسياب من حيث الدلالة على تقلب الدنيا ، وهى ترينا الفردوسى جبريا يرى أن الإنسان لا يملك لنفسه مع القدر نفعاً ولا ضراً .

***

وإذا كان ذلك دأب الدنيا ، فخليق بالعاقل أن يرفضها ويزهد فيها . والزهد فى الدنيا هو الأصل الرابع من أصول فلسفة الشاهنامه الأخلاقية ، والفردوسى لا يألو جهداً فى صرف قلوبنا عن أن تفتن بالدنيا ولكن فى غير إخلال بالواجب الذى يفرضه علينا وجودنا فيها . انظر إلى تصويره الحال المعنوية للملك كيخسرو عندما انقبضت نفسه ، وأزمع التخلى عن الملك ، والذهاب فى الأرض ، فقد عهد إلى ابنه ، وودع أكابر الدولة « ثم سار ... وصحبه رءوس الإيرانيين ... إلى أن صعد إلى جبل ، فأقاموا عليه أسبوعاً ، وخرج فى أثره نساء الإيرانيين ورجالها زهاء مائة ألف نفس ، يبكون ويضجون حتى طن بصياحهم وعويلهم السهل والجبل . ثم بعد أسبوع أشار الملك على الأكابر والسادات بالانصراف من ذلك المكان وقال : إن أمامنا طريقاً لا ماء فيه ولا عشب ، فانصرف دستان ، ورستم وجوذرد ، ولم ينصرف عنه الباقون ، فسار الملك ، وساروا معه حتى وصلوا إلى ماء ، فنزلوا هناك ، وقال لهم الملك : إذا طلعت الشمس غداً حان وقت المفارقة ، فباتوا ليلتهم عند العين . ولما كان الثلث الأخير من الليل ، قام الملك ودخل العين ، واغتسل ثم ودعهم وقال : « إن الثلج غداً يسد عليكم الطريق فلا تهتدون إلى الرجوع إلى إيران ، ولما طلعت الشمس ركب الملك ، وغاب عن أعينهم » .

وحديث الإسكندر الملك الشاب الفاتح الطموح مع أهل مدينة البراهمة المنقطعين عن الدنيا ، والراضين منها بأيسر أمرها يرى إلى أى حد يذهب الفردوسى فى تقرير فلسفته القائمة على العزوف عن الدنيا وعدم الركون إليها .

***

وبعد ، فأرجو أن أكون قد بينت للقارئ السبب فى تقدير غير الفرس للفردوسى وللشاهنامه ، وأختم هذا البحث بأن أنبه على أن مظهر هذا التقدير قديم ، فقد ترجم الفتح بن على البندارى الشاهنامه إلى العربية الفصحى فى أوائل القرن السابع الهجرى [1] ، وأن الشاهنامه قد نقل إلى أشهر اللغات الأوربية الحديثة ، وأن بعض هذه التراجم فى غاية الدقة والعناية والإتقان .

---

(١) وقد نشر زميلى الدكتور عبد الوهاب عزام هذه الترجمة نشراً علمياً محققاً ومن هذه الترجمة اقتبسنا النصوص الواردة فى هذا المقال .

سيرة أحمد بن طولون

لأبى محمد عبد الله بن محمد المدينى البلوى[1]

هذا عنوان سفر جليل لمؤرخ مصرى من أهل القرن الرابع الهجرى هو أبو عبد الله ابن محمد المدينى البلوى ، وضعه فى سيرة رجل من أقوى الشخصيات التاريخية الإسلامية هو الأمير أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية المشهورة . وقد انتقلت مخطوطة هذا الكتاب من مصر إلى الشام على ما يظهر أيام كانت مصر والشام تؤلفان ملكا واحداً ووطناً واحداً . ثم استقرت فى دار الكتب الظاهرية بدمشق ، إلى أن قيض الله لها المؤرخ البحاثة الأستاذ محمد كرد على بك فنفض عنها غبار الخمول والنسيان ، وأدرك من فوره قيمتها العلمية ، فعكف على إعدادها للنشر ، ثم عرضها للناس فى معرض على قشيب . فكان ذلك الجهد منه وهو فى شيخوخته المباركة خير هدية يقدمها إلى مصر التى رعته زمناً فى صباه وصدر شبابه ، كما كان مثلا جميلا من أمثلة الوفاء وتأدية الأمانات إلى أهلها . وفيه فوق كل ذلك إشارة لطيفة إلى اشتباك العلاقة الثقافية بين مصر والشام من عهد بعيد .

ظهر هذا الكتاب القيم ، والحرب الحاضرة قد بدت أشراطها ، ودوت فى الخافقين نذرها ، فلم يحتفل الأدباء والمؤرخون لظهوره كما كان ينبغى ، وشغلوا عنه بما شغل به الناس عامة من أهوال الحرب وخطوبها . فكان ذلك الإهمال الذى لم يتعمدوه من بعض ما باءت به الحرب الحاضرة من إثم ، واحتقبت من أوزار .

***

وتعتبر سيرة أحمد بن طولون للبلوى بحق نصا من النصوص الأساسية الخاصة بالدولة الطولونية تضم إلى المصادر القليلة التى وصلتنا فى هذا الموضوع الهام ونعنى بها سيرة أحمد ابن طولون لابن الداية المتوفى سنة ٣٣٤ ، وقد وصلتنا ملخصة بقلم ابن سعيد المغربى ،

---

(١) نشر فى مجلة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية فى مايو سنة ١٩٤٣ .

وكتاب « المكافأة » لابن الداية كذلك ، وكتاب ولاة مصر وقضاتها للكندى المتوفى سنة ٣٥٠ ، وأخبار سيبويه المصرى للحسن بن زولاق المتوفى سنة ٣٨٧ ، بل إن سيرة البلوى لتعد بقدمها وتفصيلها الوافى أهم مرجع لتاريخ الدولة الطولونية عرف حتى اليوم .

***

والكتاب كما نشره الأستاذ كرد على بك يشتمل على مدخل بقلم الأستاذ الناشر ضمنه الكلام على المؤلف وتأليفه ، وعلى أصل المخطوط الذى طبع منه الكتاب ، وعلى أحمد بن طولون كما صوره البلوى . ثم يلى ذلك متن الكتاب ويقع فى ٣٣٠ صفحة متوسطة تناولت سيرة ابن طولون من أول أمره إلى وفاته . ثم يلى المتن فهارس ضافية ، وجدول تصحيحات لأخطاء وقعت فى الكتاب أثناء طبعه .

***

ومن يقرأ « سيرة أحمد بن طولون » للبلوى قراءة بحث وتحقيق ، تعرض له أمور هى محل النظر من غير نزاع . فأولا من هو البلوى الذى ينسب إليه وضع هذه السيرة ؟ يخبرنا الأستاذ كرد على بك فى مقدمته مستنداً إلى ابن النديم والطوسى والذهبى وابن حجر أنه فقيه عربى الأصل محدث عاش فى أواسط القرن الرابع الهجرى ، وأنه كان شيعيا إماميا ، وربما كان إسمعيليا . وأن مؤرخى رجال الحديث من سنيين وشيعة يرمونه بالكذب ووضع الحديث . فإذا صح أنه شيعى فما الذى حدا به أيا كان مذهبه إلى أن يؤلف سيرة أمير تركى سنى متشدد فى سنيته ؟ يذهب الأستاذ كرد على بك إلى أن ابن طولون ربما كان يسر عطفاً على الإسماعيلية سياسة منه واستظهاراً بهم على تشييد دولته ، وأنه كان يكتم هذا العطف تقية منه ، فأحب البلوى أن يجزيه عطفاً بعطف ، فكتب سيرته . ونحن نخالف الأستاذ الجليل فيما ذهب إليه ، فليس فى سيرة أحمد بن طولون ما يستفاد منه من قرب أو بعد أنه كان يميل إلى الشيعة ، وخاصة الإسمعيلية ، ويرغب فى اصطناعهم ، بل إن فى سيرة البلوى نصوصاً صريحة فى شدة ابن طولون على العلويين والطالبيين . من ذلك قتله علويا اسمه بغا الكبير ثار عليه [1] . وتنكيله بابن الصوفى وهو طالبى بعث عليه ثورة كبيرة بالصعيد [2] . ويروى اليعقوبى أن ابن طولون أخرج الطالبيين من مصر إلى المدينة ، ونكل

---

(١) السيرة ص ٦٢ .   (٢) السيرة ٦٢ — ٦٦ .

بواحد منهم لأنه تخلف عن الخروج(١) كما يذكر الكندى أنه لما غضب أحمد بن طولون على أخيه موسى أمر هذا وكان بطرسوس بلبس البياض إعلاناً منه بميله إلى الشيعة(٢) .

هذا عن دعوى عطف ابن طولون على الإسمعيلية . أما إسمعيلية البلوى ، فالأمر فيها أصبح واضحاً بعد أن بين السيد الزنجانى — وهو الحجة الثبت فى تاريخ التشيع — أن الأصول القديمة لم تشر إلى دعوته الإسمعيلية ، وأن صاحب الفهرست قد خلط بين الداعين إلى المذهب الإسماعيلى والداعين إلى غيره من مذاهب الشيعة(٣) . بقى أن يقال أن البلوى كان إمامىّ المذهب ، وهو ما ذهب إليه عالم آخر بتاريخ التشيع هو الأستاذ إيفانوف(٤) . فإذا صح ذلك فلا جرم أن تشيعه لم يبعده كثيراً ولا سيما فى ذلك العصر عن هدى السنة والجماعة . ويمكن إذن أن نفهم إقدام البلوى على وضع سيرة أمير تركى سنى .

والحق أن البلوى إنما صنف سيرته لا ليرضى نزعة مذهبية خاصة ، ولكن ليرضى قبل كل شىء ميوله الأدبية ، فهو أديب بارع فوق كونه واعظا وفقيها وعالما كما وصفه ابن النديم . رأى فى سيرة أحمد بن طولون أوحد رجال العالم الإسلامى فى النصف الثانى من القرن الثالث مجالا لقلمه و بيانه ، ورأى مادة البحث متوافرة له وفى متناول يده ، ورأى فى الوقت نفسه أن السيرة التى حررها ابن الداية معيبة من الوجهة الفنية ، فسمت به همة الأديب الممتاز إلى أن يكتب هذه السيرة على نحو أتمّ وأوفى وأجمل مما جاء فى سيرة ابن الداية . وقد صرح بغرضه هذا فى مقدمة السيرة حيث يقول :

« ... وأنك قرأت كتاب أحمد بن يوسف فلم يكن موقعه منك الغرض الذى إليه ذهبت ، ولا المعنى الذى له نحوت ، وأنك تريد ما هو أكبر منه شرحا وأكمل وصفاً ، وأن أحمد بن يوسف كان يمر فى شرح قصة ثم يرجع إلى ما هو قبلها وأنه كان يخلط أخباره » إلى أن يقول : « وقلت ما هكذا أرّخ الناس الأخبار ، ولا عليه نظم الآثار . وقد امتثلت أمرك فيما أردت الخ »(٥) .

* * *

---

(١) السيرة هامش ص ٦٣ .

(٢) الكندى فى هامش ص ٦٣ من السيرة .

(٣) السيرة ٣٦٥ — ٣٦٦ .

(٤) السيرة ص ٣٦٥ .

(٥) السيرة ص ٣١ — ٣٢ .

وثم مسألة أخرى ، وهى مدى العلاقة بين كتاب البلوى الذى نحن بصدده وملخص سيرة أحمد بن طولون لابن الداية كما هو وارد فى كتاب المغرب لابن سعيد وكما نشره المستشرق فولرز سنة ١٨٩٤ ، أن التشابه بين الكتابين قوى جداً غير أن كتاب ابن الداية موجز ، وكتاب البلوى مفصل ويحوى بعض زيادات لم ترد فى كتاب ابن الداية .

يعلل الأستاذ كرد على بك هذا التشابه العجيب بأن البلوى سطا على مطول ابن الداية (المفقود) ونقل فصوله بغير حساب . ويقول إن الطبيعة جازته على ذلك بأن قيضت له مؤلفاً آخر هو تقى الدين المقريزى قسطا على كتابه . ولعمرى قد لا يكون عجيبا كل العجب أن يسطو مؤلف من القرن التاسع على مؤلف من أهل القرن الرابع ، إنما العجيب حقا أن يسطو البلوى وهو من أهل القرن الرابع على ابن الداية وهو معاصر له ، ولعل الرجلين تلاقيا وعرف كلاهما الآخر .

أما نحن فنرى لذلك التشابه العجيب سببا غير الذى يراه الأستاذ كرد على بك ، وذلك أن كلا المؤرخين فيما نعتقد استمد كتابه من نفس المصدر الذى استمد منه الآخر . ذلك المصدر هو ديوان الإنشاء المصرى .

لقد جعل أحمد بن طولون للرسائل ديوانا تختم فيه الكتب بعد أن يحررها الكتّاب ويعرضوها عليه[1] وأغلب الظن أن ديوان الإنشاء كانت تحفظ فيه سوى الرسائل الرسمية محاضر مجالس ابن طولون بعد عرضها عليه كذلك .

يدل على ذلك قوله لكاتب استكتبه : « إنى جملتك صاحب خبر على ألفاظى فانظر كل ما يجرى بينى و بين من يخاطبنى من كان من الناس من صغير وكبير ، فاكتب خطابه وجوابى ، وخطابى إياه وجوابه لى ، واعرضه علىّ بالعشىّ »[2] .

وربما كانت تحفظ فى ديوان الإنشاء رقاع التقارير التى كان يرفعها إلى الأمير كتّابه وغلمانه وأصحاب أخباره . من ذلك ما حدّث به نسيم الخادم قال : « كان أصحاب الأخبار يرفعون إلى مولاى رقاعا فى أقوام تكون سببا لاصطفائهم وقتلهم »[3] . ومن ذلك ما حدّث

---

(١) السيرة ص ١١٢ .
(٢) السيرة ص ١٠٠ — ٢٠١ ، ص ١١١ — ١١٢ .
(٣) « ص ٢٢٤ .

به أحمد بن محمد الكاتب من أن أحمد بن طولون ندبه مرة لحضور مجلس جماعة من المنحرفين عن الأمير وتدوين كل ما يجرى منهم ، ففعل ما أمره ، ورفع إليه تقريراً بكل ما حدث[1] .

والدليل على أن سجلات ديوان الإنشاء المصرى هى المنهل الأول الذى نهل منه ابن الداية فى كتابيه « سيرة أحمد بن طولون » و « المكافأة » ، ونهل منه البلوى فى « سيرة أحمد بن طولون » أن الكتب المذكورة تحتوى على نصوص مراسلات رسمية جرت بين ابن طولون والموفق ، و بينه و بين ابنه العباس الثائر عليه ، وأن تلك الكتب تتشابه فى الأخبار المشتركة بينها تشابها عجيبا فى اللفظ والمعنى والأسلوب ، وأنها تتردد فيها نغمة واحدة هى نغمة الإشادة بمحامد ابن طولون ومفاخره ، والتماس المعاذير لأفعاله التى كانت تصدر عن حدة مزاج تبلغ أحيانا مبلغ القسوة والوحشية .

* * *

نكتفى بهاتين المسألتين اللتين أثارتهما قراءتنا مقدمة الكتاب . ثم ننبه بعد ذلك على هنات وقعت فى متن الكتاب وحواشيه ، ولم نجد لها تصحيحا فى جدول التصحيحات الواردة فى آخر الكتاب . من ذلك « الطغرغر » فى ص ٣٣ براء مهملة مكررة . صوابها « الطغزغز » بزاى معجمة مكررة[2] . وفى ص ٨٩ « محمد بن على بن غنم الأرمنى » صوابه « ... بن يحيى الأرمنى »[3] . وقول المتن فى ص ٩٨ « و بلغ لهم كل ما أحبوه » بتعدية الفعل باللام . وقد تكررت هذه التعدية فى ص ١١٨ ، ١٩٠ ، ١٩١ والفصيح تعديته بالباء كما ورد فى ص ٢٧٦ وجاء فى المتن فى ص ١٤٧ « منديل العمل » وعلق الشارح على ذلك فى هامش الصفحة بقوله « الأقرب منديل الغمر ، والغمر ريح اللحم » وعبارة المتن هى الصحيحة ومعناها المنديل الذى كانت تصر فيه الأوراق الخاصة بالأموال وحسبانها . وقد ورد لفظ « العمل » بمعنى « كشف الحساب » فى مواضع عدة من الكتاب . من ذلك قوله فى ص ١٦٣ « قال : فأحضرنا بها عملا مفصلا ... فقال ما عندى لها عمل بتفصيل ...

---

(١) السيرة ص ٢٢٨ — ٢٢٩ .

(٢) انظر كتاب صورة الأرض لابن حوقل ص ١٤.

(٣) سيرة ابن الداية ص ٢٤ والطبرى طبع أوروبا المجموعة الثالثة ص ١٤١٤ .

وأخرج من خفه عملا وناوله الأمير وقال له ... هذه نسخة ما حمل إلى بيت المال عن هذه الضياع » ولفظ « القصيصيين » و « القصيص » الواردة فى متن ص ٢٠٦ وهامشها بالقاف المثناة صوابه بالفاء الموحدة ، و بنو الفصيص التنوخيون ورد ذكرهم فى شعر المتنبى وأخبار سيبويه المصرى وشعر أبى العلاء المعرى[١] .

وجاء فى المتن فى ص ١٧٥ « فلما توسطنا الطريق قام إلى أصحاب الأرباع فأريتهم كتاب لؤلؤ وعرفتهم أنى ذاهب إلى الأمير » وفسر لفظ « الأرباع » فى الهامش « بالمنازل » وهو تفسير لايناسب السياق . والأرباع هنا أرباع جند الشرطة أو الجيش أى أقسامهم . وقد كان جند الكوفة زمن بنى أمية مقسمين أرباعا وجند البصرة أخماسا[٢] وأصحاب الأرباع والأخماس رؤساؤها .

***

وسيرة أحمد بن طولون للبلوى نص تاريخى هام كما قدمنا ، استمد من مصادر قديمة استمداداً مباشراً . فهو من ناحية يتتبع سيرة مؤسس الدولة الطولونية من بدايتها إلى نهايتها . فيرينا ابتداء أمره وتنقله فى معارج الرقى إلى أن بلغ غاية قوته ، ثم اضمحلال أمره وأفول نجمه . وهو فى خلال ذلك يشير إلى مواطن القوة والضعف من تلك الشخصية الجبارة . فبينا يصور لنا مضاء عزيمته وقوة إرادته واستبداده واقتداره العجيب على العمل المتصل وتعهد كل صغير وكبير من شئون دولته ، إذا به يلمح إلى أن إفراطه فى ذلك كله كان السبب الأول فى فساد أمره وتصدع سلطانه ، ولا يعدم من حين لآخر أن يصور لنا ناحيته الإنسانية . فيذكر لنا أنه كان جميل الصوت محباً لسماع الغناء ، جم الإحسان والتصدق ، وأنه يرتاح للجواب المقنع والنكتة اللطيفة ، وأنه فى الجملة أحياناً كان ينسلخ من جلد المارد الجبار ويلبس إهاب الإنسان الوادع اللطيف .

والكتاب من ناحية أخرى يلقى ضوءاً على حياة مصر العامة فى أخريات القرن الثالث الهجرى وأوائل الرابع . فيستطيع من يقرؤه أن يتبين الشىء الكثير عن نظمها الإدارية

---

(١) انظر الرائية التى رثى بها المتنبى محمد بن إسحق التنوخى وأخبار سيبويه ص ٤٧ وسقط الزند ص ٣٣ — ٣٤ من طبعة بولاق .

(٢) الطبرى طبع أوروبا : القسم الثانى ص ١٣١ ، ص ٢٤٠ .

من خراج ومعاون وقضاء وبريد وجاسوسية . كما يتبين أحوال الجماهير وأرباب الحرف والصناعات . وأبلغ من ذلك كله أن الكتاب يصور روح الشعب المصرى المرح الذى لم يعجبه أن يتزعمه متجبر يأخذ بمخنقه مهما يكن عادلا وخيرا . يصور الكتاب ذلك الروح من طريق كلامه على الثورة التى بعثها نفر من كبار المصريين بزعامة العباس بن أحمد بن طولون والتى أيدتها الخلافة العباسة من وراء وراء .

والكتاب من ناحية ثالثة يلقى ضوءا على الدبلوماسية الإسلامية فى الحقبة المذكورة، فهو يبين حال الخلافة العباسية لذلك العهد وانقسام الدولة الإسلامية إلى شرقية وغربية وأثر ذلك ، كما يوضح علاقة أقطار الشرق الأدنى وعمالها الأقوياء بالسلطة المركزية فى العراق .

***

والكتاب يعد تحفة أدبية رائعة يجد فيه مؤرخو النثر الفنى ومن يدرسون الألفاظ والأساليب العربية مادة غزيرة جديرة بالبحث والدرس ؟

من مواقف البطولة الإسلامية

فى القتال*

إن من يطلع على تاريخ الحروب التى وقعت بين الفرس والروم فى أواخر القرن السادس الميلادى وأوائل السابع ، يرى إلى أى حد كانت هذه الحروب راجعة إلى الشهوات والأهواء الشخصية ، شهوات الأكاسرة تارة والقياصرة أخرى ، وإلى أى حد كان يحدوها حب المغنم والسلب والنهب ، وإلى أى حد كان يذكى أوارها حب التشفى والانتقام ، وإلى أى حد كان يصاحبها التخريب والتدمير ، ونقض العهود والمواثيق . فالشهوة ، والغنيمة ، والانتقام ، والتخريب ، والغدر ، كنّ أهداف تلك الحروب التى كادت تترك ربوع المشرق والمغرب خرابا يبابا .

والعجب العاجب أن هذه التقاليد المشئومة استمرت فى الغرب الذى يدين بالمسيحية السمحة طوال العصر الوسيط ومطلع العصر الحديث ، ولعله لم يخل منها حتى يومنا هذا . ولنمثل لذلك بالحروب الصليبية التى ارتكب فيها الصليبيون فى مدن الشام عامة وبيت المقدس خاصة من أفاعيل تقشعر طولها الأبدان ، وبما صنعه الملكان الكاثوليكيان الأسبانيان فردنند وإيزابلا ، بمسلمى غرناطة غداة استيلائهم على عاصمتهم صلحا ، من نقض للعهود المؤكدة ، والمواثيق المغلظة . وبالحروب المعروفة فى التاريخ الأوربى الحديث فى القرنين السادس عشر والسابع عشر بالحروب الدينية ، وأخيراً بما ارتكب فى الحرب العالمية الأخيرة من تخريب وتدمير كان ختامه إلقاء القنابل الذرية على المدن اليابانية ، مما أودى بالآلاف المؤلفة من اليابانيين ، غدراً وبغياً وعدواناً .

ولنضرب صفحاً عن وصف الحرب فى العصور الوسطى عند القبائل الجرمانية التى قضت على الدولة الرومانية ، وغمرت أوربا فى ظلام دامس طول ألف سنة تقريبا ، وعند التتر الذين قضوا على الدولة العباسية ودكوا صرح الحضارة الإسلامية فى المشرق ، فقد يعتذر

(*) مجلة الأزهر ، العدد الأول — ٢١ سبتمبر سنة ١٩٥٢ .

عن هؤلاء وهؤلاء بأنهم همج ليست لهم حضارة الفرس ولا نصرانية الروم ولا مدنية أوربا وأمريكا فى القرن العشرين.

ولكن كم لحوادث التاريخ وتصاريفها من أسرار حرص العلماء ولا يزالون يحرصون على اكتناهها والوقوف عليها ! وكم لله من لطف خفى حارت فى كنهه الأفهام ! ففى وسط هذه الغياهب المدلهمة والظلمات الحالكة ، تبزغ شمس الدعوة الإسلامية ، فإذا الحرب المشروعة هى المنزهة عن شهوة السلطان ، وحب المغنم ، والسمعة ، والمبرأة من عوامل الغدر والخيانة والعدوان ، وإذا بها نظام من نظم العمران ، به يكف الظلم ويقمع الطغيان ، ويستأصل الفساد . وقد عبّر شوقى عن كل ذلك فى قوله مخاطبا الرسول العربى :

الحرب فى حق لديك شريعة ... ومن السموم الناقعات دواء

وإذا بهذه الحرب المشروعة تسمى جهاداً فى سبيل الله ، أى كفاحا لإعلاء كلمته بكل ما تشتمل عليه هذه العبارة من معانى العدالة والإصلاح فى الأرض وتحقيق المثل العليا . وإذا الجهاد أعظم ما يتقرب به العبد إلى الله بعد الإيمان به تعالى وبعد برّ الوالدين ، وإذا المجاهد له إحدى الحسنيين إما الظفر وإما الشهادة . « ولا تحسبنّ الذين قُتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

كانت هذه المبادئ أساسا جوهريا من أسس الدعوة الإسلامية ، اعتنقها المسلمون الأولون وعملوا بها فى حروبهم ، فلا غرو أن حفلت هذه الحروب بذكر الأبطال ومواقف البطولة الصحيحة فى القتال . ونحن نورد فيما يلى ، على سبيل المثال لا الحصر ، بعضا من صور هذه البطولة ، سواء أكانت بطولة آحاد أم بطولة جيوش وجماعات .

١ — أبطال :

يروى أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج من العريش يوم بدر فحرض الناس على القتال ، وقال : « والذى نفسى بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسبا ، مقبلا غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة » . فقال عمير بن حمام من بنى مسلمة ، وفى يده تمرات يأكلهن : « بخ ! بخ ! ما بقى بينى وبين الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء القوم ! » ، ثم قذف بالتمرات من يده ، وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل .

ويروى أنه عليه السلام يوم أحد أخذ سيفاً فهزه وقال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام إليه عمر بن الخطاب فقال : أنا آخذه بحقه ، فأعرض عنه . ثم هزه الثانيـة وقال : من يأخذ هـذا السيف بحقه ؟ فقام إليه الزبير بن العوام وقال : أنا آخذه بحقه ، فأعرض عنه ؛ فوجدا فى أنفسهما . ثم عرضه الثالثة وقال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام إليه أبو دجانة ، فقال وما حقه يا رسول الله ؟ قال : « أن تضرب فى العدو حتى ينثنى ! فأخذه منه ، وأعلم نفسه بعصابة حمراء ومشى إلى الحرب ، وجعل يتبختر بين الصفين ، فقال الرسول « إنها لمشية يبغضها الله إلا فى هذا الموطن » ! ودخل أبو دجانة فى الحرب مبتدئا بالقتال ، فأبلى وأنكى .

ومما استدل به الفقهاء على جواز المبارزة مع التغرير بالنفس ما حدث فى حرب الخندق إذ برز عمرو بن عبدود فارس قريش وفحلها الخنذيذ ، فدعا إلى البراز أول يوم ، فلم يجبه أحد . ثم دعا إلى البراز فى اليوم الثانى ، فلم يجبه أحد . ثم دعا إلى البراز فى اليوم الثالث ، وجعل يعير المسلمين إحجامهم عن مبارزته . فقام على بن أبى طالب فاستأذن رسول الله فى المبارزة ، فأذن له على ضنه به ، وقال « اخرج يا على فى حفظ الله وعياذه ! » . فخرج فتجاولا وثارت عجاجة أخفتهما عن الأبصار ، ثم انجلت عنهما وعلى يمسح سيفه بثوب عمرو وهو قتيل .

٢ — العفو عند المقدرة :

لما نقضت قريش هدنة الحديبية التى كانت بينها وبين الرسول ، عزم الرسول على غزوها وفتح مكة ، وذلك فى رمضان سنة ٨ فخرج من المدينة فى عشرة آلاف وبغتَ قريشاً على غير استعداد ، فلم يسع ساداتها وكبراءها إلا أن يبادروا إلى أخذ الأمان لأنفسهم ولبلدهم ، وقد أعطاهم الرسول هذا الأمان بعد أن أسلموا ونهى الجيش عن أن يقاتل إلا من قاتله ، وقال فى تأمين أهل مكة : « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن » ودخل الرسول وجيشه مكة من أقطارها فلم يقع قتال يذكر ، واجتمعت قريش إليه عند الكعبة معلنة إسلامها ومبايعتها ، فخطبهم عليه السلام فقال « يامعشر قريش ماذا ترون أنى فاعل بكم ؟

فقالوا : « خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ! » فقال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء ! » هكذا عامل الرسول هذه القبيلة التى كذبته ، وآذته ، وأخرجته وأصحابه ، وناوأته أكثر من عشرين سنة ! فضرب بذلك أروع مثل للحلم والعفو عند المقدرة .

٣ — طلب الشهادة فلم يعطها

كان زيد أخو عمر بن الخطاب ممن قتل فى وقعة اليمامة ، إحدى وقائع حرب الردة ، وذلك سنة ١١ فلما رجع الناس قال عمر لابنه عبد الله ، وكان معهم : « ألا هلكت قبل زيد ؟ هلك زيد وأنت حى ! ألا داريت وجهك عنى ؟ فقال عبد الله : « سأل زيد الله الشهادة فأعطيها ، وجهدت أن تساق إلى فلم أعطها ! » .

٤ — لا نامت أعين الجبناء :

لا شك أن خالد بن الوليد أعظم قائد فى الإسلام ومن أعظم قواد العالم على الإطلاق . ولقد سماه الرسول سيفا من سيوف الله ، وكفى بذلك شرفا له وتنويها بقدره . ظهرت عبقريته فى وقائع مؤتة والردة وفتوح العراق والشام . ولكن بطولته تظهر فوق ذلك فى تواضعه ، فعند ما عزله الخليفة عمر بن الخطاب عن التقدم على جيوش الشام لمصلحة ارتآها ، نزل على أمر الخليفة ، وعمل راضيا تحت إمرة أبى عبيدة . وهى تتجلى بوجه أخص فى العبرة التى استخلصها من تجاربه وعبر عنها فى ألفاظ قلائل قالها عند ما حضرته الوفاة ، قال : « لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها ، وما فى بدنى موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية . وهأنذا أموت كما يموت العير فلا نامت أعين الجبناء » .

٥ — قائد محبوب :

كان المثنى بن حارثة الشيبانى يقاتل العجم بالعراق على شاطئ الفرات ، فاشتبك مع الفرس فى وقعة كبيرة تعرف بوقعة البويب وذلك سنة ١٣ هـ . وكان قد انضم إليه قبيل الوقعة جمع من نصارى تغلب حمية لصلة العروبة . وإلى القارئ ما تصف به الرواية هذا القائد وجيشه فى ذلك اليوم : « وأقبل الفرس يقودهم قائدهم مهران فى ثلاثة صفوف ومع كل صف

فيل ولهم زجل ، فقال المثنى للمسلمين : « إن الذى تسمعون فشل ، فالزموا الصمت ! » وطوّف المثنى فى صفوفه يعهد إليهم ، وهو على فرسه الشموس وكان لا يركبه إلا لقتال ، فوقف على الرايات يحرضهم ويهزهم بأحسن ما فيهم ، ولكلهم يقول : « إنى لأرجو ألا يؤتى العرب من قبلكم اليوم ، والله ما يسرنى اليوم لنفسى شىء إلا وهو يسرنى لعامتكم » فيجيبونه بمثل ذلك . وأنصفهم من نفسه فى القول والفعل ، وخلط الناس فى المحبوب والمكروه ، فلم يستطع أحد منهم أن يعيب له قولا ولا فعلا . وقال : « إنى مكبر ثلاثاً فتهيأوا ، ثم احملوا فى الرابعة ! » فلما كبر أول تكبيرة أعجلتهم فارس وخالطوهم ، وركدت خيلهم وحربهم مليا ورأى المثنى خللا فى صفوف بنى عجل ، فجعل يمد لحيته لما يرى منهم ، وأرسل إليهم يقول : « الأمير يقرأ عليكم السلام ويقول لا تفضحوا المسلمين اليوم ! فقالوا : نعم ! واعتدلوا . فضحك فرحاً » .

فلما طال القتال واشتد ، قال المثنى لأنس بن هلال النمرى : « إنك امرؤ عربى ، وإن لم تكن على ديننا ، فإذا حملت على مهران فاحمل معى ! فأجابه ، فحمل المثنى على قلب الجيش الفارسى فأزاله ثم أباده ، وقتل مهران ، قتله غلام من تغلب نصرانى . فلما رأت ذلك مجنبات المسلمين حملوا على مجنبات الفرس ، وجعل المثنى والمسلمون فى القلب يدعون لهم بالنصر ويرسل إليهم من يذمرهم ويقول لهم : « عاداتكم فى أمثالهم ! انصروا الله ينصركم ! » حتى هزموا الفرس .

ومات أناس من الجرحى ، منهم مسعود أخو المثنى فصلى عليهم المثنى ، وقال : « والله إنه ليهون وجدى عليهم أن شهدوا البويب وأقدموا وصبروا لم يجزعوا ولم ينكلوا » .

٦ — العفو عند المقدرة أيضًا :

من أفظع حوادث الحروب وأشنعها ما وقع من الصليبيين فى البيت المقدس غداة استيلائهم عليه فى سنة ٤٩٢ هـ . أجمعت على ذلك جميع المصادر الإسلامية والصليبية على السواء . فلنورد للقارئ مجملا لما حدث عند ما استرد صلاح الدين الأيوبى تلك المدينة من الصليبيين فى سنة ٥٨٣ هـ .

فبعد أن دحر صلاح الدين جيش الصليبيين فى وقعة حطين سار إلى عسقلان فافتتحها وأخذ يتأهب للزحف منها إلى بيت المقدس . وكان حريصاً على أن يجنب تلك المدينة ويلات الحرب والحصار ، فاستدعى وفداً من الصليبيين الذين كانوا بها وطلب إليهم تسليم تلك المدينة التى يقدسها الصليبيون والمسلمون ولكنهم صرحوا له بأنهم لن يسلموها طوعاً أبداً . عند ذلك أقسم لهم أنه لن يأخذها إلا بالسيف .

وتقدم صلاح الدين إلى المدينة وأخذ فى مهاجمتها ، ونقب أسوارها ، وأوشكت جنوده أن تقتحمها . فلما رأى الصليبيون ذلك أنفذوا الأمير بليان لمفاوضة صلاح الدين — فطلب هذا الأمير أن يمنح السلطان بيت المقدس عفوه الذى منحه مدنا صليبية أخرى . فلم يجبه السلطان إلى ما طلب مُسْتَمسكا بيمينه التى أقسمها . عند ذلك قال له بليان : إن فى المدينة ستين ألف مقاتل سيخرجون إليه بعد أن يقتلوا نساءهم وأطفالهم ويدمروا كل ما يسعهم تدميره ، ثم يقاتلونه حتى يقتلوا عن آخرهم . ولقد راع هذا التهديد صلاح الدين ، فاستشار من معه من الفقهاء فأفتوه بأن ما حدث من قتال حول المدينة كاف فى إبرار قسمه ، وأن فى وسعه أن يعتبر كل من فى المدينة من الصليبيين أسرى حرب ، له أن يضرب عليهم الفداء .

وقد أخذ صلاح الدين بهذا الرأى وتم الاتفاق على أن يكون الفداء عن كل رجل عشرة دنانير ، وعن المرأة خمسة دنانير ، وعن كل طفل ديناراً واحداً ، وأن تكون المدة التى يؤدى فيها الفداء ويتم الجلاء أربعين يوما . فمن وجد فى المدينة بعدها كان ملكا مسترقا للسلطان .

وفتحت المدينة أبوابها للسلطان وجيشه وذلك فى السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ هـ . وكانت الليلة ليلة المعراج الشهيرة ، وهى مصادفة عجيبة ، وأقام صلاح الدين على الأبواب أمناء يتقاضون مال الفداء .

فخرج الأمير بليان ومعه سبعة آلاف فقير بعد أن أدى عنهم ثلاثين ألف دينار ، ثم تتابع خروج الصليبيين على الرسم المقرر ، ثم يأتى البطرك الكبير بجر من أموال الكنائس وتحفها وجواهرها ما لا يقدر بمال ، فلم يعرض صلاح الدين لشىء مما معه على الرغم من اعتراض أصحابه ، وأبى أن ينقض عهده ولم يأخذ منه غير الدنانير العشرة المقررة . وانقضت

الأربعون يوما ولا يزال فى المدينة ألوف كثيرة من فقراء الصليبيين لا يملكون فداء . يقول المؤرخ الصليبى « أرنول » — ولعله كان حاضراً ذلك اليوم المشهود — : « فتقدم العادل إلى أخيه السلطان صلاح الدين وقال : سيدى ! لقد أعنتك بحمد الله على فتح هذه البلاد وهذه المدينة وإنى أستوهبك ألفا من أولئك الأرقاء . فأجابه السلطان إلى طلبه وعند ذلك أعتقهم العادل من فوره . ثم جاء بليان والبطرك وطلبا مثل الذى طلب العادل فوهبهم صلاح الدين ألف رقيق أطلقوا فى الحال . وأخيراً يلتفت صلاح الدين إلى أصحابه ويقول : « لقد أدى أخى صدقته ، وكذلك صنع بليان والبطرك ، وقد بقى أن أؤدى أنا صدقتى » . ثم إنه أمر رجالا من حرسه أن ينطلقوا فينادوا فى جميع شوارع المدينة أن كل عاجز عن دفع الفداء له أن يخرج وأنه حر لوجه الله تعالى . يقول أرنول : « وقد استغرق خروج هؤلاء نهاراً كاملا من لدن شروق الشمس إلى أن خيم الظلام » .

ثم يمضى المؤرخ المسيحى المذكور فيقول متحدثا عن أدب صلاح الدين ونبله ورقة قلبه : « إن نساء من نساء فرسان الصليبيين كن قد لجأن إلى بيت المقدس بعد أن قتل أو أسر أزواجهن وعائلوهن فى الحرب ؛ فاجتمعن بعد أن أدين الفداء وحضرن عند صلاح الدين باكيات معولات يشكون إليه سوء حالهن ، فما كان منه إلا أن أطلق لكل من لها زوج فى حبسه زوجها ، وأمر بمال من ماله الخاص لكل من لا عائل لها ، مما ألهج ألسنتهن بالشكر له والثناء عليه .

ويقول المؤرخ الإنجليزى لين بول : « لو لم يكن لصلاح الدين من الأعمال الثابتة إلا أخذه بيت المقدس ، لكان ذلك كافيا فى عده أعظم الفاتحين فى عصره فروسية وأكبرهم قلبا ، بل لعله كذلك فى أى عصر من العصور » .

٧ — وا إسلاماه !

اجتاح التتار أقاليم الدولة العباسية الشرقية ودمروها تدميراً ، ثم دخل زعيمهم هولاكو بغداد فى سنة ٦٥٦ وقضى على الخلافة العباسية ثم اكتسحت جيوشه الشام وأصبحت على أبواب مصر . ولقد أرسل هولاكو إلى سلطان مصر إذ ذاك ، وهو الملك المظفر قطز ، كتابا ملأه تهديداً ووعيداً وطلب إليه فيه المبادرة إلى الخضوع له والاستسلام إليه . فثارت حمية

السلطان واستنفر الناس لجهاد التتار فتثاقلوا لما ثبت فى الأذهان إذ ذاك أن التتر لا يغلبون ولكن السلطان أعلن أنه سائر بنفسه للجهاد على أى حال وليصحبه من يشاء . عند ذلك نفر معه الأمراء بأجنادهم ، فسار بالجيش إلى فلسطين مقدما أمامه الأمير بيبرس ، وجرت بينه و بين التتار وقعة عظيمة عند عين جالوت ، وذلك فى رمضان سنة ٦٥٨ ﻫ .

يقول المقريزى فى وصف بلاء قطز و بيبرس والجيش المصرى فى ذلك اليوم العصيب : « فلما كان يوم الجمعة خامس عشر من رمضان التقى الجمعان ؛ وفى قلوب المصريين وهم عظيم من التتر ، وذلك بعد طلوع الشمس ، وقد امتلأ الوادى وكثر صياح أهل القرى من الفلاحين ، وتتابع ضرب كوسات السلطان والأمراء ، فتحيز التتر إلى الجبل ، فعندما اصطدم العسكران اضطرب جناح السلطان وانتقض طرف منه ، فألقى الملك المظفر عند ذلك خوذته عن رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته : « وا إسلاماه ! » ، وحمل بنفسه و بمن معه حملة صادقة ، فأيده الله بنصره . وقتل كتبغا مقدم التتر ، وانهزم باقيهم ... وأبلى الأمير بيبرس أيضا بلاء حسناً بين يدى السلطان » ، « ومر العسكر فى أثر التتر إلى قرب بيسان ، فرجع التتر وصافوا مصافا ثانياً أعظم من الأول ، فهزمهم الله وقتل أكابرهم وعدة منهم ، وكان قد زلزل المسلمون زلزالا شديداً ، فصرخ السلطان صرخة عظيمة ، سمعه معظم العسكر وهو يقول : « وا إسلاماه » ثلاث مرات « يا الله ! انصر عبدك قطز على التتار » فلما انكسر التتار الكسرة الثانية ، نزل السلطان عن فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقبلها ، وصلى ركعتين شكراً لله تعالى ثم ركب ، فأقبل العسكر وقد امتلأت أيديهم بالمغانم .

تلك وقعة عين جالوت التى صد فيها الجيش المصرى سيل الغزو التترى الجارف ، واستنقذ بها الشام من أيدى التتار ، ورد عن مصر والمغرب الإسلامى كيدهم وجبروتهم ، وفوق ذلك فإنه فى ذلك اليوم وعلى غير علم منه وقى أوربا وحضارتها الناشئة دماراً محققا ، وذلك باعتراف مؤرخى أوربا أنفسهم .

* * *

و بعد ، فلعل القارىء يكون قد رأى من جميع النصوص المتقدمة أن الإسلام قد خفف من ويلات الحرب جهد الطاقة وأنه شرع لها منهاجا قاصداً وسن آداباً كريمة .

كتب الحسبة

وفائدتها فى وضع المعجمين الوسيط والكبير (*)

معنى الحسبة والاحتساب فى اللغة العد والحساب . ويجىء الاحتساب بمعنى الإنكار لشىء ، ومنه قول الكميت :

بأى كتاب أم بأية سنة ترى حبهم عارا على وتحسب

أما فى الشرع فقد عرف الإمام الماوردى الحسبة فى كتاب « الأحكام السلطانية بقوله (هى أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ونهى عن المنكر إذا ظهر فعله) » واستدل على وجوبها بقوله تعالى « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » ويورد حجة الإسلام الغزالى فى كتاب « الإحياء لعلوم الدين » أدلة أخرى على وجوبها مستمدة من القرآن الكريم والآثار والأخبار . وعلى هذا الأساس اعتبر الفقهاء الحسبة وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى هو فرض على القائم بأمور الجماعة الإسلامية يتولاه بنفسه أو يندب له من يراه أهلا له ، وهو المسمى عندهم بالمحتسب . ويوجز ابن خلدون فى مقدمته عمل المحتسب فيقول : «ويتخذ الأعوان على ذلك ، ويبحث عن المنكرات ، ويعزر ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على المصالح العامة فى المدينة ، مثل المنع من المضايقة فى الطرقات ، ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار فى الحمل ، والحكم على أهل المبانى المتداعية للسقوط بهدمها ، وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة ، والضرب على أيدى المعلمين فى المكاتب وغيرها فى الإبلاغ فى ضربهم للصبيان والمتعلمين » . ويفرق ابن خلدون بين اختصاص المحتسب واختصاص القاضى فيقول : « ولا يتوقف حكمه (أى المحتسب) على تنازع أو استعداء ، بل له النظر فى الحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك ويرفع إليه ، وليس له إمضاء الحكم فى الدعاوى مطلقا ، بل فيما يتعلق بالغش والتدليس فى المعايش وغيرها وفى المكاييل والموازين . وله أيضاً حمل المماطلين على الإنصاف وأمثال ذلك مما ليس

(*) بحث ألقى فى المؤتمر السنوى لمجمع فؤاد الأول للغة العربية فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٥١ .

فيه سماع بينة ولا إنفاذ حكم » ثم يمضى فيقول « وكأنها أحكام ينزه القاضى عنها لعمومها وسهولة أغراضها فتدفع إلى صاحب هـذه الوظيفة ليقوم بها . فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء » ويلحظ ابن خلدون التطور الذى طرأ على نظام الحسبة مما اقتضى فصلها عن القضاء فيقول « وقد كانت فى كثير من الدول الإسلامية مثل العبيديين بمصر والمغرب ، والأمويين بالأندلس ، داخلة فى عموم ولاية القاضى ، يولى فيها باختياره ، ثم لما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة ، وصار نظره عاماً فى أمور السياسة ، اندرجت (أى الحسبة) فى وظائف الملك وأفردت بالولاية » .

وهـذه الإشارة الأخيرة من ابن خلدون طريفة وهامة وتحتاج إلى شىء من البيان والتوضيح . فمنذ ظهر منصب « أمير الأمراء » فى بغداد فى سنة ٢٩٦ على يد مؤنس الخادم أصبح صاحب هـذا اللقب أو ما يماثله من الألقاب عام النظر فى السياسة وشئون الحكم الفعلى ، وبقى للخلفاء الاسم والسلطة الروحية فحسب إذا صح هذا التعبير . وقد صادف هذا الانقسام قيام حال خطيرة فى الأمصار الإسلامية الكبرى من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ، مثل غزنة ، وبغداد ، ودمشق ، والقاهرة ، وفاس ، ومراكش ، ومدن الأندلس إذ غدت هـذه المدن العظام مراكز صناعية وتجارية كبيرة ، حافلة بالأسواق ، زاخرة بطوائف التجار ، وأهل الحرف والصناعات ، كما غدت بيئات اجتماعية مختلطه تتزاحم فيها الأهواء ، والبدع ، والنحل ، والميول السياسية المتعارضة ، والمذاهب الدينية المختلفة .

كانت هذه الحال وحدها تقتضى من ولاة الأمور فى الدولة أو الدول الإسلامية سهرا ويقظة حتى لا يضطرب حبل الأمن وتعم الفوضى . فكيف وقد كان معظم أهل الحرف والصناعات ذوى ميول سياسية ، ونزعات مذهبية ، وكان كثير من أهل المذاهب الدينية متعصبين لمذهبهم مستعدين فى سبيل نصرته لحمل السلاح وإراقة الدماء ؟ لقد كانت بغداد ميدانا لفتن دامية متصلة تارة بين الحنابلة وخصومهم وأخرى بين الشيعة وأهل السنة . كما كانت الشام مجالا لنشاط الباطنية المعطلة لأحكام الدين الإسلامى . وكانت القاهرة عرضة لمثل تلك الفتن بعد أن قضى صلاح الدين الأيوبى على الدولة الفاطمية ، فقد كان هوى كثير من أهل الحرف والصناعة مع الدولة الفاطمية الذاهبة . ومثل ذلك يقال عن مدن المغرب والأندلس ، حيث كان كثير من ذوى الحرف والصناعات من أهل الذمة ، وكانوا

فى كثير من الأحيان ضالعين مع الممالك النصرانية التى كانت تناصب المسلمين العداء فى شمال إفريقية والأندلس .

لكى يواجه ذوو السلطان هذه الحال على قول ابن خلدون فصلوا الحسبة عن القضاء ، وصيروها وظيفة ملكية ، و بسطوا يد المحتسب على كل آت بمنكر فى المعاملات والصناعات والتجارات ، وكل نزاع إلى الفتنة والفساد فى الأرض و إقلال راحة الناس ، و بانفصال الحسبة عن القضاء وصيرورتها أداة رقابة وضبط وتنفيذ سريع اتضحت شخصية المحتسب . ويحدثنا المقريزى عن المحتسب فى القاهرة فيقول « ولا يكون إلا من وجوه المسلمين وأعيان المعدلين ، وله استخدام النواب عنه بالقاهرة ومصر (الفسطاط) وجميع أعمال الدولة كنواب الحكم وله حق الجلوس بجامعى القاهرة ومصر يوما بعد يوم و يطوف نوابه على أرباب الحرف والمعايش ... وينظرون المكاييل والموازين ، وللمحتسب النظر فى دار العيار ، ويخلع عليه و يقرأ سجله بمصر والقاهرة على المنبر ، ولا يحال بينه و بين مصلحة إذا رآها ، والولاة تشد معه إذا احتاج إلى ذلك . وجاريه ثلاثون ديناراً فى كل شهر » .

ويحدثنا صاحب « نفح الطيب » عن المحتسب بالأندلس فيقول « أما خطة الاحتساب فإنها عندهم موضوعة فى أهل العلم والفطن ، وكأن صاحبها قاض والعادة فيه أن يمشى بنفسه راكبا على الأسواق ، وأعوانه معه ، وميزانه الذى يزن به الخبز فى يد أحد الأعوان لأن الخبز عندهم معلوم الأوزان ، للربع من الدرهم رغيف على وزن معلوم وكذلك للثمن ، وفى ذلك مصلحة فقد يرسل المبتاع الصبى الصغير أو الجارية الرعناء فيستويان فيما يأتيانه به من السوق مع الحاذق فى معرفة الأوزان . وكذلك اللحم تكون عليه ورقة بسعره ولا يجسر الجزار أن يبيع بأكثر أو دون ما حد له المحتسب فى الورقة ولا يكاد تخفى خيانته ، فإن المحتسب يدس عليه صبيا أو جارية يبتاع أحدهما منه ثم يختبر المحتسب الوزن فإن وجد نقصاً قاس على ذلك حاله مع الناس ، فلا تسأل عما يلقى و إن كثر ذلك منه ولم يتب بعد الضرب والتجريس نفى من البلد » .

* * *

وقد سايرت حركة التأليف والكتابة فى الحسبة هذا التطور مسايرة تامة . فعند ما كانت

الحسبة تابعة للقضاء كان المؤلفون من الفقهاء يكتبون عنها على أنها باب من أبواب الفقه فيذكرون شروطها وأحكامها وآدابها ضمن تآليفهم الفقهية . وأجمع ما وصل إلينا من ذلك الفصل الذى عقده لأحكام الحسبة الماوردى المتوفى سنة ٤٥٠ ﻫ ثم الفصل المطول الذى كتبه فى كتاب الإحياء الإمام الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ ﻫ .

وكلام الماوردى فى الحسبة كلام فقيه متمكن عليم بمختلف المذاهب الإسلامية لعهده يريد أن يرسم صورة للحسبة كما ينبغى أن تكون من حيث المطابقة لأحكام الشرع مع الوضوح والدقة والإيجاز . أما كلام الإمام الغزالى فكلام عالم متصوف يريد أن يرسم صورة مثالية لما ينبغى أن يكون عليه العالم الإسلامى على الإطلاق . وكلامه على الحسبة يجرى هذا المجرى ، فهو غواص على حكمة التشريع ، كثير الاستشهاد بالقرآن والسنن والأخبار وما يقتضيه الذوق السليم ويغمر كل ما يكتب فيض من روحه القوى وإيمانه العميق .

فلما اندرجت الحسبة فى الوظائف السلطانية كما يقول ابن خلدون ، وحدث ما ألمعنا إليه من تعقد الأمور فى الأمصار الإسلامية الكبرى ، اتجه التأليف فى الحسبة اتجاها عمليا يرمى إلى ضبط الحال بتعريف من يتولى الحسبة أسرار الحرف والصناعات وما قد يأتيه أربابها من أمور الغش والخديعة والتدليس وأكل أموال الناس بالباطل .

وقد وصل إلينا من التآليف الموضوعة فى الحسبة والتى نحا أصحابها فيها هذا المنحى الواقعى كتب تزيد على العشرة عدا ، أكثرها من مشرق العالم الإسلامى ومن مصر والشام خاصة وأقلها من المغرب والأندلس . وأهم المجموعة الشرقية كتب أربعة :

١ — « كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة » لعبد الرحمن بن نصر النبراوى الشيزرى المتوفى سنة ٥٨٩ . والراجح أنه وضع هذا الكتاب بطلب من صلاح الدين الأيوبى للاستعانة به فى الاحتساب على أرباب المهن والصناعات وأهل الذمة الذين كان هواهم مع الفاطميين كما تقدم القول . والكتاب يقع فى أربعين بابا وقد نشر فى مصر حديثاً نشرا حسناً . وهذا الكتاب يعتبر فى الحقيقة أصلا للمجموعة الشرقية بنى عليه كل من كتب بعد فى الحسبة فى الناحية العملية .

٢ — فمحمد بن محمد بن أحمد القرشى المصرى المعروف بابن الأخوة والمتوفى سنة ٧٢٩

قد وضع كتابه « معالم القربة فى أحكام الحسبة » وهو يضمن كتابه هذا أبواب كتاب الشيزرى مع زيادة ثلاثين باباً و إضافات فقهية وملحوظات شخصية للمؤلف لها طرافتها التاريخية كما سيأتى .

٣ — ثم يأتى محمد بن أحمد بن بسام المصرى وهو من أهل القرن الثامن الهجرى فيضع كتاباً فى الحسبة يسميه كذلك « نهاية الرتبة فى طلب الحسبة » و يضمنه أبواب الكتابين السابقين و يزيد عليها ثمانية وأربعين باباً و بذلك تتم عدة أبواب كتابه ثمانية عشر باباً ومائة باب استوفى فيها الحسبة على ما يقرب من جميع الحرف والصناعات الموجودة لعهده ومختلف الطوائف والهيئات التى تقضى مصلحة الدولة مراقبتها عن طريق الاحتساب عليها .

٤ — والكتاب الرابع من المجموعة الشرقية هو كتاب « المختار فى كشف الأسرار » لكاتب من كتاب الدولة الأرتقية اسمه عبد الرحمن بن أبى بكر الدمشقى و يعرف بالجو برى وقد وضعه كما يقول فى المقدمة بطلب من السلطان مسعود بناه على ثلاثين فصلا كلها فى التعريف بطرق الغش والتدليس فى الصناعات المختلفة وما يقع من طوائف معينة من الناس من الشعوذة والاحتيال .

أما المجموعة المغربية فتشتمل على كتابين اثنين :

١ — كتاب آداب الحسبة لابن عبدالله محمد بن أبى محمد السقطى المالقى الأندلسى المتوفى فى أوائل القرن السادس الهجرى وكتابه يشتمل على ثمانية أبواب فى الحسبة ضمنها أموراً عاينها بنفسه أثناء ولايته الحسبة بمدينة مالقة .

٢ — والكتاب الثانى عبارة عن رسالة وجيزة لمحمد بن أحمد بن عبدون التجيبى الإشبيلى المتوفى فى أوائل القرن السادس الهجرى ؛ ضمنها ما يراه من وجوه الإصلاح لأحوال مدينة إشبيلية وذلك عن طريق الحسبة على موظفى الحكومة وأرباب الحرف والصناعات . وهو فى رسالته هذه يندد بغش الصناع وأهل الحرف وفساد ذمم بعض الطوائف وانحلال أخلاقها .

***

للكتب المذكورة مزية عظيمة فى دراسة المجتمع الإسلامى كما تصوره حياة المدن الإسلامية الكبرى فى العصور الإسلامية المتأخرة، أى من قبيل سقوط بغداد إلى انبعاث النهضة الحديثة فى أخريات القرن الثامن عشر. فهى من الناحية الاجتماعية تصور ما انتاب العالم الإسلامى من أدواء وعلل وفقر مدقع، مما أدى إلى التفنن فى الغش والتكسب بالمهن الخسيسة والشعوذة والاحتيال حتى صار ذلك صناعة ذات أصول وقواعد وحتى أصبح مبدأ لكثير من الناس قولهم « الحيلة عليهم ولا الحاجة إليهم ». ثم إن هذه الكتب تشتمل على نقد للمجتمع لذاع مثل قول ابن الأخوة فى تعليل ترك الناس دراسة الطب و إقبالهم على دراسة الفقه فيقول « والطب من فروض الكفاية ولا قائم به (اليوم) من المسلمين وكم من بلد ليس فيه طبيب إلا من أهل الذمة. ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام (الطب) ولا نرى أحداً يشتغل به. ويتهافتون على علم الفقه ولا سيما الخلافيات والجدليات، والبلد مشحون من الفقهاء ممن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع. فليت شعرى كيف يرخص الدين فى الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة، و إهمال ما لا قائم به؟ هل لهذا سبب إلا أن الطب ليس يتيسر التوصل به إلى تولى القضاء والحكومة، والتقدم به على الأقران، والتسلط على الأعداء؟ هيهات قد اندرس علم الدين: فالله المستعان، و إليه الملاذ، بأن يعيذنا من هذا الغرور الذى يسخط الرحمن و يضحك الشيطان ».

ويقول ابن الأخوة أيضاً فى ذم طائفة الموكلين بالخصومة أو المحامين من أهل زمانه « وأما الوكلاء . . . فلا خير فيهم ولا مصلحة للناس بهم فى هذا الزمان فإن أكثرهم رقيق الدين يأخذ من الخصمين شيئاً ثم يتمسكون فيه بسبب الشرع فيوقفون القضية فيضيع الحق ويخرج من بين يدى طالبه وصاحبه. فإذا حضر الخصمان فإن الحق يظهر سريعاً من كلامهما إذا لم يكن لهما وكيل. فكان ترك الوكلاء فى هذا الزمان أولى من نصبهم إلا أن يكون هناك امرأة لم تكن من ذوات البروز فتوكل، أو صبى فحينئذ ينصب الحاكم عنه وكيلا ».

و يقول الشيزرى فى أمر التحوط من الباطنية « و يتقدم المحتسب إلى جيران كل مسجد

بالمواظبة على صلاة الجماعة عند الأذان لإظهار معالم الدين و إشهار شعار الإسلام ، سيما فى هذا الزمان لكثرة البدع واختلاف الأهواء ، وتنوع الباطنية ، وما قد صرحوا به من تعطيل الشريعة و إبطال أحكام الإسلام ، فيجب على كل مسلم إظهار أركان الإسلام و إشهار الشريعة فى مقابلة ذلك لتقوى عقائد العامة » .

إن الكتب المذكورة تصور لنا فى الجملة الحياة اليومية فى المدن الإسلامية الكبيرة فتصف الأسواق وحركة التعامل وما قد يقع من منكر يسارع المحتسب إلى إزالته ، كما تصف مختلف الصناعات والحرف وصفاً دقيقاً .

***

ومهما يكن لها من قيمة تاريخية ، فإن قيمتها اللغوية هى الجديرة بالتنويه فى هذا المقام . إن كتب الحسبة العملية التى وصلت إلينا تحوى عشرات بل مئات من الألفاظ والمصطلحات الفنية التى جرى استعمالها منذ أربعمائة عام أو تزيد . ولأورد بعض هذه المصطلحات على سبيل المثال : يقول الشيزرى فى باب الحسبة على البياطرة « وقد ذكر بعض الحكماء فى كتاب البيطرة أن علل الدواب ثلاثمائة وعشرون علة منها الخناق ، والخنان الرطب ، والخناق اليابس ، والجنون ، وفساد الدماغ ، والصداع ، والحر ، والنفخة ، والورم ، والمرة الهائجة ، والديبة والختام ، ثم يمضى فيعد أكثر من أربعين مصطلحاً لأربعين علة من علل الدواب » .

ويقول فى باب الحسبة على الأطباء « وينبغى للطبيب أن يكون عنده جميع آلات الطب على الكمال ، وهى كليات الأضراس ، ومكاوى الطحال ، وكليات العاق ، وزراقات القولنج ، وملزم البواسير ، ومخرط المناخير ، ومنجل النواصير ، وقالب التشمير ، ورصاص التثقيل ومفتاح الرحم ، وبوار النساء ومكمدة الحشا ، وقدح الشوصة ، وغير ذلك مما يحتاج إليه فى صناعة الطب غير آلة الكحالين والجرائحيين مما يألف ذكره فى موضعه » .

ومن المصطلحات التى التقطتها من كتب الحسبة المذكورة والتى نستعمل نحن بعضها فى حياتنا اليومية : الزنجار بمعنى صداء النحاس ، والقبان ، لآلة الوزن المعروفة ، والقرمة التى يقصب عليها اللحم والقطان (بمعنى المنجد) ودقيق العلامة أو الدرمك لدقيق لب الحنطة ، واللحوم

الواقعة المزيلة ، والسمك الفائت ، والسمك الطرى ، والبيض المذر والسمك المذر بمعنى الفاسد ، والزبون بمعنى العميل ، وأرش العيب بمعنى ما يطرح من الثمن لظهور عيب فى السلعة (وهو من أرش الجراح فى الفقه بمعنى ديتها) والطنجير للقدر الكبيرة المتخذة من النحاس ، وهى تقابل لفظ (القزان) عندنا .

***

أما بعد فقد قام المستشرق الهولندى دوزى فى النصف الأخير من القرن الماضى بجهد مشكور ، إذ جمع طائفة كبيرة من الألفاظ والمصطلحات العربية التى لم ترد فى المعاجم العربية ونشرها ، ولكن كم ترك الأول للآخر ! إن من حق الألفاظ والمصطلحات التى ذكرت وأمثالها على مجمعنا ، أن تجمع وتفسر ، ثم تضمن المعجمين الكبير والوسيط . بذلك نكون قد وسعنا معاجمنا ، وزدنا فى مادة لغتنا ، ورددنا إلى هذه الألفاظ والمصطلحات اعتبارها .

ثلاثة حوادث من التاريخ الإسلامى

ساعدت على نمو العربية وانتشارها[1]

ألقى حضرة الأستاذ أحمد أمين فى افتتاح مؤتمر هـذا العام بحثاً قيماً موضوعه تضخم المعاجم العربية ، وقد عرض حضرته أسباب هذا التضخم سبباً سبباً ، وكان البحث منصبا على نقد هذه المعاجم وما وقع فيه واضعوها من أوهام وأغلاط أدت إلى التضخم المذكور . أما البحث الذى أتشرف بإلقائه اليوم فمنصب على ناحية من نواحى نمو اللغة العربية إبان ازدهار الدول الإسلامية القديمة . والنمو غير التضخم ، فالتضخم علة تلحق الكائن الحى فتعيبه وتعله وقد تودى بحياته . أما النمو فدليل صحته ، وقوته ، وحيويته ، وقابليته للبقاء . واللغة لاشك كائن حى ، وإذا كان الواجب يقتضى أن نتعرف علل لغتنا كالتضخم الذى تكلم عليه الأستاذ الجليل ، فما أحرانا أن نتعرف ظواهر فتوتها ونمائها وحيويتها فنكون قد جمعنا بين الحسنيين : بين التخلص من أسباب العلل ، والأخذ بأسباب القوة والنمو والحيوية والمضى بالانتفاع بها فى إنهاضها و إقالتها من عثارها .

ولقد نظرت فى حوادث التاريخ الإسلامى فوجدت أن ثلاثة منها كانت ذات تأثير عميق بعيد المدى فى نمو اللغة العربية وانتشارها العظيم : أول هذه الحوادث تعريب الدواوين على عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ) والثانى أمر الخليفة عمر ابن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ) بتدوين الحديث النبوى ، والثالث أمر الخليفة المأمون العباسى (١٩٨ — ٢١٨ هـ) بنقل كتب الفلسفة من اليونانية إلى العربية . وسأتكلم على هذه الأحداث الثلاثة واحداً واحداً مبينا الباعث عليه ، وكيف تم ، وأثره فى نمو اللغة العربية وانتشارها . ثم أختم كلامى بالمقارنة بين ما حصل منذ أكثر من ألف سنة وما هو حاصل من حيث نهضة اللغة العربية فى العصر الحاضر .

***

---

(١) ألقى هذا البحث فى المؤتمر السنوى لمجمع فؤاد الأول للغة العربية فى يوم ١٥ ديسمبر سنة ١٩٥٢ .

إن نظام الديوان نظام مستحدث فى الدولة الإسلامية ، ظهر على عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب عندما توالت الفتوح وتدفقت الأموال من الأقطار المفتوحة . فاقتضت الحال اتخاذ نظام لتقييد أسماء المقاتلة وقبائلهم ومبالغ أعطياتهم ، فاستشار عمر ذوى الرأى على عادته فى كل أمر حازب وحدث مهم . فأشاروا عليه بوضع الديوان .

ولفظ « الديوان » كما تقول دائرة المعارف الإسلامية قد يكون إيرانى الأصل وذا صلة بكلمة « دبير » الفارسية ومعناها « الكاتب » . ثم أطلق فى الفتوح العربية على السجلات التى تشتمل على حساب الأموال ، ثم أطلق فى الدولة العباسية على كل إدارة من إدارات الدولة كديوان الزمام وديوان الخاتم وهلم جرا .

ولقد كوّن عمر لجنة لتدوين أسماء الجند وبيان أنسابهم وأعطياتهم على نظام اتفق عليه وبينه الماوردى فى كتاب « الأحكام السلطانية » فكان من ذلك الديوان المعروف بديوان الجيش . وهو أول ديوان وضع فى الدولة الإسلامية ، وكان يحرر بالعربية من أول أمره . ثم تلاه ديوان آخر هو ديوان المال والجباية . وكان مقر دواوين الأموال هذه فى عواصم الأقطار المفتوحة . وكانت تسجل فيها أسماء القرى ومساحاتها ومقادير ارتفاعها وتوزيع ذلك على أهلها على هيئة خراج أو جزية ، وكان هذا الديوان يكتب فى كل قطر بلغة أهله ، وكانت فى الغالب لغة الدولة التى كانت لها السيادة عليه قبل الفتح الإسلامى ، فكان ديوان العراق وفارس يكتب بالفارسية ، وديوان الشام بالرومية ، وديوان مصر بالرومية والقبطية . وكان يتولى شئون هـذه الدواوين عمال من أهل الإقليم ، فكان عمال ديوان العراق من موالى الفرس ، وعمال ديوان الشام من الروم ، وعمال ديوان مصر من الروم والقبط .

وقد ظلت دواوين المـال والجباية تكتب فى الأقطار المفتوحة باللغات الأجنبية المذكورة ويتولاها عمال من موالى الفرس والروم والقبط حتى كان زمن عبدالملك بن مروان . وكانت العربية قد انتشرت بين الأعاجم وحذقها قوم منهم إلى جانب لغاتهم الأصلية . ثم إن الدولة الأموية قد أصبحت راجحة النفوذ فى الميزان الدولى ، هذا إلى عصبيتها الشديدة لـكل ما هو عربى ، فلم يكن من الطبيعى أن تظل دواوينها تكتب بلغات غير العربية ، واتجهت سياسة عبدالملك إلى تعريب إدارة الدولة ، وبدأ بالعملة فضربها عربية بعد أن كانت رومية وفارسية . قال البلاذرى بإسناده « إن عبد الملك أول من ضرب الذهب بعد عام الجماعة

أى سنة ٧٤ . وضرب الحجاج الدراهم آخر سنة ٧٥ ثم أمر بضربها فى جميع النواحى سنة ٧٦ هـ » ثم اتجهت عزيمة عبد الملك وعامله الحجاج إلى تعريب الدواوين .

يروى البلاذرى نقلا عن المدائنى عن أشياخه فى بيان السبب الذى من أجله نقل ديوان العراق فيقول « قالوا لم يزل ديوان خراج السواد وسائر العراق بالفارسية ، فلما ولى الحجاج العراق استكتب زادان فروخ بن بيرى ، وكان معه صالح بن عبد الرحمن مولى بنى تميم يخط بين يديه بالفارسية والعربية . . . . فوصل زادان فروخ صالحاً بالحجاج وخف على قلبه ، فقال له ذات يوم : إنك سببى إلى الأمير وأراه قد استخفنى ، ولا آمن أن يقدمنى عليك وأن تسقط . فقال لا تظن ذلك ! هو أحوج إلىّ منه إليك لأنه لا يجد من يكفيه حسابه غيرى . فقال والله لو شئت أن أحول الحساب إلى العربية لحولته ، قال فحول منه شطراً حتى أرى ، ففعل ، فقال له تمارض ! فتمارض ، فبعث إليه الحجاج طبيبه ، فلم ير به علة . وبلغ زادان فروخ ذلك فأمره أن يظهر . ثم أن زادان فروخ قتل فى أيام عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندى . . . فاستكتب الحجاج صالحاً مكانه فأعلمه الذى كان جرى بينه وبين زادان فروخ فى نقل الديوان ، فعزم الحجاج على أن يجعل الديوان بالعربية ، وقلد ذلك صالحاً . فقال له مراد نشاه بن زادان فروخ ، كيف تصنع بدهوية وشيشوية ؟ قال أكتب عشر ونصف عشر . قال كيف تصنع بويد ؟ قال أكتبه « وأيضاً » والويد النيف والزيادة تزاد . فقال قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية ! وبذلت له الفرس مائة ألف درهم على أن يظهر العجز عن نقل الديوان ويمسك عن ذلك ، فأبى ونقله . فكان عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد يقول : لله در صالح ! ما أعظم منته على الكتاب . ويقال إن الحجاج أجل صالحاً أجلا حتى قلب الديوان » .

هذا عن نقل ديوان العراق وفارس . أما ديوان الشام فيروى البلاذرى أيضاً سبب نقله فيقول « قالوا ولم يزل ديوان الشام بالرومية حتى ولى عبد الملك بن مروان . فلما كانت سنة ٨١ أمر بنقله ، وذلك أن رجلا من كتاب الروم احتاج أن يكتب شيئاً فلم يجد ماء فبال فى الدواة ، فبلغ ذلك عبد الملك فأدبه ، وأمر سليمان بن سعد بنقل الديوان ، فسأله أن يعينه بخراج الأردن سنة ، ففعل ذلك ، وولاه الأردن . فلم تنقض السنة حتى فرغ من نقله وأتى

به عبد الملك فدعا بسرجون كاتبه ، فعرض عليه ذلك ، فغمه ، وخرج من عنده كئيباً ، فلقيه قوم من كتاب الروم ، فقال : اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة ؛ فقد قطعها الله عنكم ! قال : وكانت وظيفة الأردن التى قطعها له معونة مائة ألف وثمانين ألف دينار » .

أما ديوان مصر فيقول الكندى فى كتاب « الولاة والقضاة » فى أمر نقله « وبويع الوليد بن عبد الملك ... فأقر أخاه عبد الله على صلاة مصر وخراجها وأمره بالدواوين فنسخت بالعربية ، وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية ، وصرف عبد الله بن أشناس عن الديوان وجعل عليه ابن يربوع الفزارى من أهل حمص »[1] .

ومهما يكن ما ترويه المصادر من أسباب مباشرة لتعريب الدواوين ، فالذى لا شك فيه أن عبد الملك وابنه الوليد وعاملهما الحجاج كانوا شديدى العصبية لكل ما هو عربى وأن الدولة قد اتجهت إلى تعريب إدارتها كما قدمنا ، استكمالا لمظاهر سيادتها وتوفيرا لكرامتها .

ولقد ترتب على هذا الحادث التاريخى الهام عدة أمور خطيرة : —

فالعربية الفصحى أفادت ألفاظاً جديدة كثيرة كما يؤخذ من ترجمة دهوية وشيشوية وويد ، فهى مثال لما حصل بالفعل على نطاق واسع وظهرت فى العربية ألفاظ كثيرة إما معربة أو منقولة عن أصولها الأعجمية المستعملة فى الحساب والمساحة والزراعة والتجارة والصناعة مما لم يكن للعرب عهد به من قبل .

ثم إن الأعاجم ، مسلمين وغير مسلمين ، أقبلوا على تعلم العربية بعامل المصلحة الذاتية ، وذلك للانتظام فى أعمال الكتابة والخراج وما يتصل بهما ، ولسهولة التقاضى فى المنازعات التى كان ينظر فيها قضاة من العرب بطبيعة الحال . وبذلك لم يكد ينصرم القرن الأول الهجرى حتى كانت العربية قد عمت أهل فارس والعراق والشام ومصر وغلبت الفارسية والرومية والقبطية على أمرها فأخذت هذه اللغات تتضاءل وتضمحل فى الأقطار المذكورة حتى صارت إلى الزوال أو ما يقرب من الزوال .

---

(١) وإتماما لهذا العرض التاريخى أقول إن السيد حسن حسنى عبد الوهاب العلامة التونسى وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية أخبرنى أن ديوان المغرب نقل من اللغة اللاتينية إلى العربية فى حوالى الوقت الذى عربت فيه دواوين المشرق وأنهم عثروا فى بعض نواحى المغرب على دينار عربى من عهد الأمير موسى ابن نصير .

وبانتشار العربية بين الأعاجم واضمحلال اللغات الأجنبية ثم ذهابها ظهرت فى الأقطار المفتوحة لهجات عربية شعبية محلية تبين لنا المصرية منها مجموعات البردى التى كشفت فى مصر والتى تصاحب تاريخ مصر الإسلامى من أول الفتح العربى إلى القرن السادس .

تشتمل هـذه الوثائق النفيسة على رسائل صادرة عن ولاة مصر مثل قرة بن شريك وغيره وبعض المثقفين من العرب ومكتوبة بلغة عربية صحيحة فصيحة ، كما تشتمل على عدد عظيم من وثائق المبايعات والمداينات ، وعقود الزواج والتمليك والشئون اليومية . وهذه مكتوبة بلغة شعبية مباينة للفصحى وفيها كثير من خصائص العامية المصرية الحاضرة ، من ذلك إبدال الضاد من الظاء فى « احفض » بدلا من « احفظ » وإسقاط الهمزة رسما ونطقا إسقاطا يكاد يكون مطردا فيقال « ويضاً » بدلا من « وأيضاً » و « حد عشر » بدلا من « أحد عشر » وعدم المبالاة بالإعراب فيقال « اثنين » حيث يجب أن يقال « اثنان » وهلم جرا . وقد نشر جانبا من هذه البرديات المحفوظة بدار الكتب المصرية الأستاذ المستشرق أودولف جروهمان النمسوى فى ثلاثة أسفار كبار طبعتها دار الكتب قبل الحرب الأخيرة كما وضع جنابه حديثا كتابا قيما فى هذا الموضوع أسماه «من عالم البرديات العربية»(١) .

وأهم النتائج التى ترتبت على تعريب الدواوين من حيث مستقبل الثقافة الإسلامية أن أصبحت اللغة العربية الأداة الوحيـدة للتخاطب وتبادل الآراء والأفكار فى العالم الإسلامى الذى كان يمتد إذ ذاك من حدود الهند والصين إلى سواحل المحيط الأطلسى .

* * *

هـذا عن تعريب الدواوين وما ترتب عليه من الآثار ؛ أما تدوين الحديث النبوى فالمعروف أنهم كانوا طوال القرن الأول يكرهون كتابة الحديث حتى لا يكون إلى جانب القرآن الكريم كتاب آخر يشغل المسلمين عن تلاوته وتدبر معانيه . بيد أن هذا التحرج لم يمنع نفرا من الصحابة والتابعين أن يكتبوا مجموعات من الأحاديث لأنفسهم لا بقصد النشر والتداول . فلما ظهرت أحاديث لا يعرفها أعلام الصحابة والتابعين قوى الاتجاه إلى تدوين الأحاديث الصحاح . يروى الخطيب البغدادى فى كتاب « تقييد العلم » عن ابن

(١) نشرته حديثا « جمعية الدراسات التاريخية المصرية » .

شهاب الزهرى أنه قال « لولا أحاديث تأتينا من قبل المشرق ننكرها ولا نعرفها ما كتبت حديثا ، ولا أذنت فى كتابته » فلما ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز أمر ابن شهاب الزهرى بجمع السنة وكتابتها . وعن إبراهيم بن سعد قال « أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن فكتبناها دفترا دفترا فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفترا » . ثم استفاض تأليف الكتب فى الحديث بعد ذلك حتى كانت الكتب السنة المشهورة .

والذى نخصه بالملاحظة من هذه الظاهرة العظيمة أن الأحاديث سواء كانت مروية باللفظ أو بالمعنى ، هى طبقة عالية من البلاغة ، فأفادت اللغة من تدوينها نموذجا للعبارة البليغة مكن للفصحى بعد المنزلة التى بلغتها بالقرآن الكريم أى تمكين ؛ وأن حرص المسلمين فى كل عصورهم على هذين المصدرين الأقدسين و بالغ عنايتهم بهما أقام الفصحى على أساس راسخ لا يتطرق إليه وهن ما دام فى الأرض مسلمون و إسلام .

ثم إن السنة المروية عن الرسول العربى تعد المصدر الثانى من مصادر التشريع الأسلامى ، ومن ثم وضعت كتب فى الحديث مرتبة على أبواب الفقه كموطأ الإمام مالك وصحيح البخارى ، فكان منها مادة عظيمة غذت لغة الفقه الإسلامى وعلم الحديث وابتعثت فيها تعبيرات ومصطلحات يعرفها من يطلع على الكتب المؤلفة فى هذين العلمين الجليلين .

***

ثم انتقل إلى الحادث الثالث وهو أمر المأمون بنقل كتب الفلسفة اليونانية إلى العربية ، فأقول لما فتح العرب بلاد الشام والعراق ومصر وجدوا فى أمهات مدنها مدارس للسريان والفرس والقبط تدرس بها العلوم القديمة وخاصة علوم اليونان ، وكانت هذه العلوم قد نقلت إلى السريانية فى الشام والعراق رغبة من النساطرة واليعاقبة فى درسها بلغتهم ومبالغة منهم فى مقاطعة اللغة اليونانية ، لغة الكنيسة البيزنطية التى انفصلوا عنها من الناحية الدينية ، وكان أكثر ما يدرس فى هذه المدارس الفلسفة اليونانية وخاصة المنطق وما وراء الطبيعة والطب والنجوم والكيمياء . وقد نقلوا كذلك كتبا عدة فى الرياضيات وغيرها عن الفارسية والهندية والقبطية والنبطية .

واستمرت هذه الحال فى العصر الأموى وأخذ المسلمون يتصلون شيئاً فشيئاً بهذا الجو

العلمى الذى كان يسود بلاد الشرق الأدنى بفضل مدارس الإسكندرية وأنطاكية وقيصرية ونصيبين والرها وجنديسابور ، حتى رووا أن الأمير خالد بن يزيد بن معاوية درس الكيمياء على راهب إسكندرى اسمه ماريانوس وأنه ألف فى الكيمياء ثلاث رسائل . فلما كان زمن العباسيين الأوائل ازداد إقبال المسلمين على دراسة هذه العلوم ، وكان الخليفة المنصور ولع خاص بالطب والنجوم فترجمت له كتب فى هذين العلمين عن السريانية . وكان للبرامكة أثر كذلك فى تشجيع النقل عن السريانية والفارسية ، فلما جاء المأمون وكان ميالا بطبعه إلى البحث الفلسفى وآراء المعتزلة كالقول بخلق القرآن وغيره من مسائلهم ، فقد سلك مسلكا جديداً بالمرة ، إذ أنشأ فى بغداد « بيت الحكمة » للدرس والبحث . والظاهر أنه أنشأ بيت الحكمة هذا على مثال مدارس السريان التى أشرت إليها ، ثم إنه أحب أن تنقل كتب الفلسفة الإغريقية عن اليونانية رأساً دون وساطة لغة أخرى كالسريانية وغيرها . ويروى ابن النديم فى « الفهرست » السبب الذى بعث المأمون على ذلك وهو أن المأمون رأى فى منامه أرسطوطاليس وسأله بعض الأسئلة ، فلما نهض من نومه طلب ترجمة كتبه ، فكتب إلى ملك الروم يسأله الإذن فى إنفاذ ما يختار من الكتب القديمة المدخرة ببلد الروم ، فأجابه إلى ذلك بعد امتناع ، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق ، وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم ، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا ، فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل ، وجعل يحرض الناس على قراءة تلك الكتب ، ويرغبهم فى تعلمها كما يذكر ابن العبرى فى كتابه « مختصر تاريخ الدول » .

واقتدى بالمأمون كثير من رجال الدولة وجماعة من أهل الوجاهة والثروة فى بغداد ، فتقاطر إليها المترجمون من أنحاء العراق والشام وفارس وفيهم النساطرة واليعاقبة والصابئة والمجوس والروم والبراهمة يترجمون من اليونانية والفارسية والسريانية والهندية والنبطية واللاتينية وغيرها . وأقبل الناس على الاطلاع والبحث أيما إقبال . وقد ظلت الحال على ذلك حتى أنه لم يكد ينتهى القرن الرابع حتى كان قد تم نقل أهم كتب القدماء إلى العربية .

ولقد كان أثر هذا النقل الواسع المدى عظيما بالإضافة إلى اللغة العربية فقد نقل المترجمون مئات الألفاظ الفلسفية والطبية والكيميائية والرياضية وغيرها إلى اللغة العربية ، مترجمين بعضها إلى ما يقابله فى العربية وناقلين بعضها بلفظه مما حمل علماء اللغة على أن يخصوه بتأليف

خاصة مثل كتاب « المعرب والدخيل » للجواليق . ومهما يكن من شيء فقد أفادت اللغة العربية مادة غزيرة مكنت النحاة والمتكلمين والفلاسفة الإسلاميين من أن يتناولوا مسائل علومهم بلغة مواتية ، وألفاظ دالة على المعانى التى يريدون التعبير عنها .

* * *

أما بعد ، فإنا إذا اعتبرنا ما أداه تعريب الدواوين إلى اللغة العربية فى مجال المصطلحات الإدارية والمالية ، وتدوين الحديث فى مجال السنة والفقه ، ونقل كتب الفلسفة والطب والرياضة والكيمياء فى ميدان العلوم العقلية والطبيعية ، فإنا نجد أن اللغة العربية قد أصبحت فى القرن الرابع بحراً زاخرا ، مما اقتضى وضع معاجم تجمع مادتها وتبين معانى مفرداتها . وهذا كله بفضل ما أوتيت هذه اللغة نفسها من قوة وحيوية عجيبة ، ثم بفضل السياسة التى انتهجتها الدولة بإزائها على النحو الذى بينّاه .

ثم أختم كلمتى فأقول : ما أشبه الليلة بالبارحة ! فبعد أكثر من ألف سنة عادت اللغة العربية إلى شبه الحال التى كانت عليها فى أزهى عصور الإسلام . لقد عربت الدواوين بعد أن كانت تكتب بلغات أجنبية بين تركية وفرنسية وإنجليزية ، ثم ها هى ذى حركة نقل قوية عن اللغات الأوربية فى مختلف العلوم والفنون والآداب يقوم مجمعنا على توفير المصطلحات العربية اللازمة لإنجاحها . وكما كانت العربية أداة للتفاهم وتبادل الرأى والفكر فى الدولة الإسلامية القديمة ، فإنها بسبيل أن تصبح كذلك فى عالم شرقى حديث يمتد من أقاصى أندونيسيا إلى مراكش ، وهو لعمرى عالم أوسع وأشمل من العالم الإسلامى القديم . ولكن معنى هذا كله تزايد العبء الملقى على أبناء العروبة وحماة لغة الضاد ، وأخص بالذكر منهم رجال مجمعنا الموقر . إن الآمال المعقودة بهم فى جعل العربية تنهض فى المستقبل القريب نهضتها فى الماضى البعيد لآمال قوية لا يعرف اليأس إليها سبيلا . فإذا ما تحققت هذه الآمال — وهى متحققة بإذن الله — فسيكون للعربية شأن أى شأن فى نشر الثقافة العليا فى القارتين الأسيوية والأفريقية . والله ولى التوفيق .

أثر مصر

فى الأحداث الإسلامية حتى آخر العصر

العباسى الأول*

لم تكن مصر فى نظر العرب عند ما أقدموا على فتحها فى سنة ١٨ هـ كغيرها من الأقطار التى فتحوها فى نهضتهم العظمى ، بل كان لها فى أخيلتهم وخواطرهم مكانة ممتازة لا تشبهها إلا مكانة قطر آخر هو الشام ، ذلك بأن القرآن الكريم ذكر مصر فى مواضع عدة ذكراً كريماً تارة بالتصريح وأخرى بالإشارة والتلميح ، فمن ذلك قول القرآن مخبراً عن فرعون « أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى ؟ » . وقوله مخبراً عن يوسف عليه السلام « ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » . وقوله : « ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق » . وقوله : « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونَعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوما آخرين » . وقوله : « ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا » .

وكما اشتمل القرآن على جملة آيات فيها تنويه بقدر مصر وخطرها وثرائها ، فإن السنة ذكرت مصر ونوهت بأهلها خاصة لأسباب وردت فى قصص الكتب المقدسة . من ذلك ما يروى من أن النبى (ص) قال : « إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحما » وفسروا « رحماً » بأن هاجَر أم إسماعيل عليهما السلام كانت مصرية وأنها ولدت لإبراهيم ولده إسمعيل الذى هو أصل عرب الحجاز ، فكان القبط أخوال العرب الإسماعيلية إذا أخذنا بنظرية النسب العربية .

والمعروف من التاريخ المقدس أن مصر دخلها غير واحد من الأنبياء والرسل ، قدمها

(*) بحث ألقى فى الجمعية الملكية للدراسات التاريخية فى ١٥ أبريل سنة ١٩٥٠ .

إبراهيم الخليل ، ودخلها يعقوب وابنه يوسف وإخوته ، وفيها ولد ونشأ موسى عليه السلام ، ومنها خرج بنو إسرائيل ، كما دخلها عيسى وأمه مريم عليهما السلام .

فإذا ما صرنا إلى أخبار عرب الجاهلية وجدنا أن مصر كانت متجراً لهم تحمل إليهم منها فيما يحمل الثياب المعروفة بالقباطى ، جمع قُبطية ، وقد ورد ذكر هذا الضرب من الثياب فى الشعر العربى القديم .

كل هذه الذكريات المستمدة من المصادر التى ذكرنا كانت تجول بخواطر العرب عند ما أقدموا على فتح مصر ، فلما تم لهم فتحها فعلا واختلطوا بأهلها ، وعاينوا نيلها العجيب ، وتربتها الخصبة ، وخيراتها الوافرة ، وآثارها الرائعة ، ووضعها الجغرافى الفريد ، ودعة أهلها وانصرافهم إلى العمل والتكسب بالزراعة والصناعة والتجارة ؛ كل ذلك جعلهم يرون أن قد صدق الخبرَ الخبرُ . فانطلقت ألسنتهم تشيد بجو مصر ، وخيرات مصر ، ونيل مصر ، وعجائب مصر ، وجعلوها « جنة الدنيا » و « كنانة الله فى أرضه » ، وقالوا « من أراد أن يذكر الفردوس أو ينظر إلى مَثَلِه فى الدنيا فلينظر إلى أرض مصر حين تخضر زروعها وتنور ثمارها » . (ابن عبد الحكم ص ٥) .

ومن قبيل ذلك الوصف البديع الذى يقال أن عمرو بن العاص بعث به إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يصور فيه اختلاف مناظر الأفق المصرى من لدن أن يكون مغموراً بمياه الفيضان ، إلى أن ينحسر عنه الماء ، وتحرث الأرض ، وتخضر بالعشب والنبات ، وتنضج الزروع ، وتتنوع ألوانها ، فيقول : « فبينا مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء ، إذا هى عنبرة سوداء ، فإذا هى زمردة خضراء ، فإذا هى ديباجة رقشاء ، فتبارك الله الخالق لما يشاء » .

والحق أن من بين الشعوب التى اختلفت حكوماتها على مصر لم يحب مصر ويفتن بها غير المصريين القدماء ، والعرب ، فقد بلغ من فتنة الأولين بها أن ألهوا وعبدوا نيلها وأرضها وسماءها . أما الآخرون فمنعهم دينهم من التورط فى شىء من ذلك ، فراحوا يتغنون بمحاسنها فى منثورهم ومنظومهم . وكل من هؤلاء وهؤلاء كان أطول أمداً ، وأعظم أثراً فى تاريخ مصر ، ممن دخلها فاتحا مسيطراً ، أو متجراً مستعمراً .

من أجل ذلك لم تلبث مصر أن استحالت قطرا عربيا إسلاميا فى زمن أوجز مما يجرى

فى الحسبان عادة . ذلك بأن الصلة الاستغرافية القديمة التى ترمز إليها قصة إبراهيم الخليل وهاجَر المصرية ومولد إسماعيل أبى عرب الشمال ، لها ظل من الحقيقة ، فالمصريون والعرب هما فى الحق أبناء بيئة تكاد تكون واحدة ، والعلاقات التاريخية بينهما من فجر التاريخ مشتبكة متصلة ، ثم إن مصر كانت قد تعربت إلى حد ما قبل الفتح العربى ، فجزيرة سيناء كانت تعمرها قبائل عربية انضم بعضها إلى جيش عمرو بن العاص فى زحفه إلى مصر ، وفى الجاهلية عبرت إلى مصر واستقرت على سواحل البحر الأحمر وفى شمال السودان قبائل عربية ينص ابن خلدون على بعضها كقبيلة الكنز مثلا . فبداية استعراب وادى النيل سابقة على الفتح العربى . ثم جاء الفتح وحصلت هجرات كبيرة أشهرها هجرتان ، هجرة القبائل الفاتحة مع عمرو بن العاص ، وأكثرها من عرب اليمن ، ثم هجرة قيسية عدنانية كانت فى خلافة هشام بن عبد الملك سنة ١٠٩ ، وقد استقرت فى الحوف الشرقى ، ويقابل ما نسميه الآن بمديرية الشرقية . ثم يحدث الامتزاج فيستقر العرب فى الأرض ، يزرعونها ويعملون فيها ، ويقبل القبط على التعرب بتكلم العربية ودخول الجم الغفير منهم فى الإسلام . وبذلك تصبح مصر قطراً عربيا إسلاميا يتمتع بخصائص مكنته من أن يشترك فى الأحداث الكبرى التى وقعت فى الدولة الإسلامية عامة ، وها نحن أولاء نستقرئ هذه الأحداث ونبين مدى تأثير مصر فيها منذ الفتح حتى آخر العصر العباسى الأول ، أى إلى قرب منتصف القرن الثالث الهجرى .

ولكى نجلو الحوادث التى شاركت مصر فيها نقول إن حوادث الدولة الإسلامية من قيام الخلافة إلى آخر العصر العباسى الأول تقع فى ثلاثة ميادين كبيرة ، ميدان الفتوح الحربية ، وميدان الأحداث السياسية ، وميدان الحركة الفكرية .

الفتوح الحربية :

كان العداء مستحكما ومتصلا بين الدولة العربية الناهضة والدولة البيزنطية طوال العصر المذكور ، فكان الروم يحاولون ارتجاع ما فقدوا من أملاكهم فى آسيا وأفريقية ، وكان العرب من ناحيتهم مضطرين إلى صد هذا العدوان . ولقد وقع عبء قتال الروم فى ذلك

العهد على الشام ومصر بحكم وضعهما الجغرافى ، واضطلعت مصر بنصيبها من هذا العبء اضطلاعاً رائعا . كما كان لها أثر قوى فى مد نطاق الدولة العربية غربا وجنوباً وشمالا بمحض جهودها ومواردها . إن مصر كانت فى نظر الخلفاء باب المغرب والوسيلة إليه فعولوا عليها فى فتحه وبسط سلطانهم عليه . لذلك نجد عمرو بن العاص غداة فراغه من أمر مصر يكر على برقة فيستولى عليها سنة ٢٢ ﻫ ويتبع ذلك بالاستيلاء على طرابلس سنة ٢٣ ﻫ ثم يستأذن الخليفة عمر بن الخطاب فى غزو إفريقية فلا يأذن له على عادته فى التمسك والتريث إزاء المشروعات الخطيرة ، ولكن عثمان بن عفان يطلق يد عبد الله بن سعد عامله الجديد على مصر فيجتاح إفريقية ، ثم يأتى عقبة بن نافع الفهرى فيؤسس مدينة القيروان ، ويكتسح شمال إفريقية ، كل ذلك بجيوش مصر وموارد مصر . نعم إن فاتحى المغرب من بعد عقبة وخاصة حسان بن النعمان وموسى بن نصير قد مكنوا للدولة العربية فى المغرب حتى سواحل المحيط بجيوش عربية غير مصرية ، ولكن مصر كانت دائما رداءً لهم تساعدهم بأسطولها ومالها . وحتى الأندلس النائية قد اشترك جند مصرى فى تهدئة أحوالها ضمن حملة كلثوم بن عياض القشيرى ، ونزل هذا الجند المصرى كورة تدمير التى سميت « بمصر » إشارة إلى أن الجند الذى نزلها أصله من مصر .

هذا فى الغرب أما فى الجنوب فقد غزا عبد الله بن سعد بن أبى سرح بلاد الأساود سنة ٣١ ويريدون بها النوبة ، وكانت الحرب عنيفة استبسل فيها العرب والسودان ، فجنح ابن أبى سرح إلى السلم ، لما رأى من شجاعة السودان وبراعتهم فى الرماية فى الوقعة المعروفة بيوم دمقلة ، فعقد بينه وبينهم هدنة على شروط معينة .

أما فى الشمال فكان هدف الدولة الأموية الاستيلاء على القسطنطينية والقضاء على الدولة البيزنطية . وكان معاوية بن أبى سفيان حريصا على إدراك هذه الغاية ، وتوسل إلى ذلك بإنشاء بحرية عربية قوية فى سواحل الشام والاستعانة بالأسطول المصرى والاستيلاء على جزائر البحر الأبيض الشرقية . وافتتح معاوية برنامجه سنة ٢٨ بالاستيلاء على قبرص ثم كانت الوقعة البحرية المعروفة بذات الصوارى سنة ٣٤ فى أواخر عهد عثمان . قالوا إن الأمبراطور قسطنطين سار فى أسطول ضخم يريد به ارتجاع ما فقد ، إما الشام أو مصر ،

فسارع الأسطولان الشامى والمصرى إلى لقائه . وكانت الوقعة بين الفريقين على الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى ، فانتصر المصريون انتصارا حاسما ودمر الأسطول البيزنطى وعاد الإمبراطور مفلولا فقتله بعض أتباعه بجزيرة صقلية جزاء له على تلك الهزيمة الشنعاء . وفى سنة ٤٤ أغزى معاوية الأسطول الشامى جزيرة رودس ، واشترك فى الغزو الأسطول المصرى بقيادة عقبة بن عامر الجهنى ، ففتح رودس عنوة (البلاذرى ٢٤٤) وفى سنة ٤٩ كانت الحملة العظيمة التى أعدها معاوية لغزو القسطنطينية ، وغزا فيها ابنه يزيد وعدد من الصحابة فيهم أبو أيوب الأنصارى . وقد اشترك فى هذه الحملة الأسطول المصرى بقيادة عابس بن سعيد المرادى . (الكندى ص ٣٩)

ويدخل فى هذا الصراع عمل مصر على انتزاع جزيرة إقريطش من أيدى الروم . ولذلك قصة طريفة ، فقد ورد على مصر فى أوائل القرن الثانى جماعة من مهاجرة الأندلس ممن أجلاهم الأمير الحكم لقيامهم بثورة الربض المشهورة ، فولى بعض هؤلاء المهاجرين وجهه شطر مدينة فاس التى كانت تؤسس فى ذلك الوقت فأنزلهم إدريس بن عبد الله بها وانتفع بكفايتهم فى الصناعات المختلفة . أما سائر المهاجرين فتابعوا السير شرقا حتى بلغوا مصر فى وقت اضطراب أمورها بالفتنة بين الأمين والمأمون . واستطاعوا احتلال الأسكندرية بضع عشرة سنة إلى أن قدم عبد الله بن طاهر واليا على مصر من قبل المأمون ، فحاصرهم بالإسكندرية حتى نزلوا على حكمه ، ثم إنه أعانهم بسفن ومال وسلاح فساروا إلى إقريطش سنة ٢١٢ هـ فاحتلوها بزعامة أبى حفص عمر بن عيسى الأندلسى .

***

الأحداث السياسية :

من ذلك نرى إلى أى حد أسهمت مصر فى حركة الفتوح الإسلامية الكبرى فقد قامت فيها بدور كان حاسما فى أمر المغرب والسودان ، وخطيرا بالإضافة إلى الحروب العربية البيزنطية . وقد جرت مصر فى ذلك على المألوف من تاريخها قديما وحديثا . ففى وسعها كما تهيأت لها الأسباب أن تصبح قوة من قوى البحر المتوسط يحسب لها فى الميزان الدولى كل حساب .

ولم يكن ممكناً أن تظل مصر وقد اتضحت مكانتها فى الفتوح الكبرى بمنأى عن

مجرى الأحداث السياسية والانقلابات العامة التى رجّت الدولة الإسلامية رجًّا عنيفاً ، والحق أننا نلحظ أثر مصر بارزاً فى أشد هذه الحوادث وأحرجها . ولنبدأ بالفتنة الكبرى التى كان أفظع أحداثها مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان .

لا نريد أن نخوض فى هـذا المقام فى أسباب هذه الفتنة فقد اختلطت فيها العوامل الاقتصادية والاجتماعية بعصبية القبائل العربية على قريش . ولـكنا نبادر إلى القول إلى أنه قد يكون عجبا من العجب أن تشترك مصر فى هذه الفتنة وأن تبوء هى بالجانب الأكبر من إثمها ، مع أنها فى ذلك الوقت كانت أرغد أقاليم الدولة الإسـلامية حالا وأحسنها إدارة ونظاما . غلطة صدرت عن السياسة العليا هى فى نظرنا السبب فى انقلاب مصر على عثمان ، تلك عزلُ عثمان لعمرو بن العاص عن مصر وتوليته مكانه أحـد أقربائه وهو عبـد الله بن سـعد بن أبى سرح ، وعمرو رجل نفّاع ضرّار ، يرجى للشر كما يرجى للخير . ولم يفطن الخليفة الثالث لذلك عندما عزل عمراً عن مصر ، كما فطن له من بعد معاوية . أجل ! فقد أقام عمرو على حدود فلسطين يرقب الأحوال ويؤلب على عثمان فى الحجاز وفى مصر . ثم يتفاقم الخطب ، وينجم قرن الفتنة فى غزوة ذات الصوارى نفسها ، وتلبى مصر دعوة الداعين إلى الجهاد ، لا فيما وراء الثغور ، ولـكن فى المدينة نفسها ، فتخرج من مصر عصابة مؤلفة من ٥٠٠ رجل فيهم عبد الرحمن بن عديس البلوى وكنانة بن بشر التجيبى ومحمد بن أبى بكر الصديق . ويحاولون إقناع الخليفة باعتزال الأمر فيأبى ، فيجرءون عليه ويحاصرونه فى داره ، ثم يقتحمونها عليه ويقتلون الشيخ الهرم والصحابى الجليل وهو يقرأ فى مصحفه (١٨ ذى الحجة سـنة ٣٥) . ويعود المصريون إلى مصر بعد أن ولوا علىّ ابن أبى طالب الخلافة ، عادوا وهم يرتجزون :

خذها إليك واحذرن أبا حسن ... أنا نمر الأمر إمرار الرسن

ونطعن الملك بلين كالشطن ... بالسيف كى نخمـد نيران الفتن

ولـكن الرواية لم تتم فصولا ، لقد انصدعت بمقتل عثمان وحدة الدولة الإسـلامية وانقسمت إلى معسكرين متعادبين ، معسكر علىّ وصحبـه ، ومعسكر معاوية وحزبه . ولقـد أخذت مصر جانب علىّ بطبيعة الحال فى هذا الصراع العنيف ، وجعلت تتقبل عماله راضية ، ولـكن معاوية كان أدهى من ألا يفطن إلى أهمية مصر وضرورة حصوله

عليها ، فأخذ يشجع الأقلية المعروفة فيها بالعثمانية ، كما جعل يتخلص من عمال علىّ على مصر الواحد تلو الآخر ، بالحيلة تارة وبالاغتيال أخرى ، إلى أن ظهرت نتيجة التحكيم ولم تكن فى مصلحة على ، فأرسل معاوية سنة ٣٨ عمراً إلى مصر على رأس جيش فانتزعها من يد محمد بن أبى بكر عامل علىّ ، وكان ذلك بعد وقعة هائلة تعرف بيوم المسناة ، عدها عمرو أهول وقعة خاض غمارها على كثرة ما شهد من الوقائع من قبل . وتظهر فرقة الخوارج ، ويجمع نفر منها على اغتيال الثلاثة الذين كانوا فى نظرهم سبب كل البلاء وهم : علىّ ، ومعاوية ، وعمرو . ويقتل علىّ ، وينجو معاوية وعمرو ويستقر أمر الخلافة لمعاوية فى سنة ٤١ هـ .

ولكن مصر تمضى فى مخاصمة الأمويين ، فعندما اشتد الخلاف بين آل الزبير وبنى أمية أخذت مصر جانب عبد الله بن الزبير وبايعته بالخلافة . ولكن ما هى إلا أن انتصر مروان بن الحكم فى وقعة المرج المشهورة سنة ٦٥ حتى أسرع مروان إلى مصر وانتزعها من عامل ابن الزبير .

ودان المصريون للأمويين مكرهين ، فلما ظهرت الدعوة العباسية بث دعاتها الدعوة للعباسيين بمصر ، فاستجاب لها المصريون بوجه عام ، ذلك بأن المتأخرين من خلفاء بنى أمية جفوا العنصر العربى اليمنى الذى كان يشد ملكهم ، فانحرف عنهم اليمانيون ، وهم جمهرة عرب مصر . وظهر أثر ذلك فى وقعة الزاب التى هزم فيها مروان بن محمد ، وفرّ على أثرها إلى مصر وجيوش العباسيين تتعقبه . ولقد أجمع المصريون على منع مروان من دخول مصر فاضطر إلى دخولها عنوة ، ولكنه كان قد تقطعت به الأسباب فأدركه العباسيون فى بوصير من أعمال الأشمونيين وقتلوه . ولو أن المصريين لم ينحرفوا عن الأمويين وقاموا فى نصرتهم قياما حسنا لتغير مجرى الحوادث فى أغلب الظن تغيراً كبيراً .

* * *

لم يكد الأمر يستقر لبنى العباس حتى دهمتهم ثورة عظيمة قام بها العلويون من بنى الحسن بن على بن أبى طالب ، فقد رفع لواء الثورة بالحجاز سنة ١٤٤ محمد بن عبد الله الحسنى العلوى الملقب بالنفس الزكية ، وثار أخوه إبراهيم بن عبد الله بالعراق . وتفاقم الأمر واشتد الخطب على الخليفة المنصور وتجرد له تجرداً تاما . وبثت الدعوة فى مصر للعلويين

فاستجاب لها المصريون . وخاف المنصور اتصال الحركة العلوية المصرية بالحركة العلوية بالحجاز ، فأمر بطم خليج أمير المؤمنين الموصل بين النيل والبحر الأحمر . ولكن حركة العلويين بالحجاز والعراق باءت بالفشل وغُلب الزعيمان العلويان على أمرهما وقتلا . عند ذلك انتهت الثورة العلوية فى مصر (سنة ١٤٥) .

ولما وقعت الحرب بين الأخوين الأمين والمأمون انقسم المصريون حزبين أحدهما مشايع للأمين والآخر للمأمون . ووقعت الحرب فعلا بين الحزبين ولم تنطفئ جذوتها فى مصر إلا عندما بلغ المصريين مقتل الأمين سنة ١٩٨ . ولكن المصريين لم يلبثوا أن ثاروا بالمأمون وخلعوه عند ما بلغهم نبأ أخذه البيعة بولاية العهد للإمام على الرضا العلوى ، فلما بلغهم موت على الرضا وانخذال إبراهيم بن المهدى الذى ادعى الخلافة فى بغداد أخلدوا إلى السكون .

بقى الحدث الأخير والخطير . لقد قامت الدولة العباسية على أكتاف الموالى من عجم فارس وخراسان ، والواقع أن انتصار العباسيين على الأمويين كان انتصاراً للعجم على العرب وإيذاناً بذهاب نفوذ العرب السياسى ولا شك أن ذلك كان الحافز الأول لثورات العرب طوال العصر العباسى الأول فى العراق والشام ومصر ، وإن اتخذت هذه الثورات صوراً شتى كما رأينا . ثم يأتى الخليفة المعتصم فيكيل للنفوذ العربى الضربة القاضية . وذلك بعد أن تكامل له جيش تركى قوى ، فيسقط العرب من الديوان ، ويأمر بقطع عطائهم . وكتب بذلك إلى عامله على مصر نصر بن عبد الله الملقب بكيدر ، فأنفذ كيدر أمر الخليفة . يقول الكندى : « ولما قطع العطاء خرج يحيى ابن الوزير الجروى فى جمع من لخم وجذام وقال هذا أمر لا نقوم فى أفضل منه لأنه منعنا حقنا وفيأنا واستمع إليه نحو من خمسمائة رجل » .

ولكن كل هذه الثورات إن كانت قد تمخضت عن شىء فإنما تمخضت عن تحول خطير فى وضع مصر السياسى . لقد شعر المصريون بقوتهم وتنبه وعيهم القومى ، فأخذوا يعملون على الاستقلال بشئونهم الداخلية على أقل تقدير ، والدليل على ذلك أن أسرة عربية مصرية تعرف بآل السرى بن الحكم تولت أمور مصر بإجماع جند مصر اثنتى عشرة سنة (من ٢٠٠ إلى ٢١١) فكان ذلك تمهيداً لاستقلال مصر فعلا عن الدولة العباسية وقيام الدولة الطولونية فى سنة ٢٥٤ هـ .

الحركة الفكرية :

لا شك أن الحركة الفكرية من أجل حوادث القرون الثلاثة الأولى من حياة الدولة الإسلامية ، وإنا لنستمتع بالتراث الضخم الذى خلفه لنا ذلك العصر الزاهر فى ميدان العلوم والفنون والآداب الإسلامية ، نعم إن الحركة الفكرية ازدهرت فى الشام والعراق بحكم أنهما كانا مقر الخلافة الأموية والعباسية . ولكن ينبغى ألا نغمط مصر نصيبها من هذه الحركة ، فالحق أن الفسطاط غدت بيئة علمية تذكرنا البصرة والكوفة ، وأصبح جامع عمرو أشبه بجامعة تدرس بها علما الحديث والفقه كما تدرس الآداب العربية .

أما الحديث فقد هبط مصر عدد كبير من أجلاء الصحابة الذين أدركوا لرسول (صلم) وشرفوا بصحبته والسماع منه ، فكانوا رواة لعدد كبير من الأحاديث روى عنهم ثم دون بعد ، من هؤلاء عمرو بن العاص وقد رووا عنه أكثر من عشرين حديثاً ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، رووا عنه أكثر من مائة حديث ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ورووا عنه ثمانية أحاديث ، وأبو أيوب الأنصارى ولهم عنه تسعة أحاديث ، وقيس بن سعد بن عبادة ، وجابر بن عبد الله الأنصارى ، ورووا عن كل منهما أحاديث غير معينة العدد ، وفَضَالة بن عبيد الأنصارى ، ولهم عنه نحو عشرين حديثا ، وعقبة بن عامر الجهنى الذى تولى إمرة مصر ولهم عنه نحو مائة حديث . ويعنى ابن عبد الحكم فى تاريخه بالنص على ما تفرد هؤلاء بروايته من الأحاديث وما شاركهم فيه غيرهم من محدثى الأقطار الأخرى ، وهو بحث على طريف . وبذلك أسهم المصريون فى جمع سنة الرسول (ص) وهى المصدر الثانى للتشريع الإسلامى بعد القرآن ، فلما ابتدأ تدوين الحديث النبوى بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز كانت الرواية المصرية ذات محل بارز فى كتب الحديث التى ظهرت ابتداء من القرن الثانى الهجرى .

والقرآن والحديث هما مادة الفقه الإسلامى الأساسية ، ولاشك أن اشتغال المصريين بهما كان مؤديا لامحالة إلى اشتغالهم بالفقه ، فإذا تذكرنا أن نظاما محكما للقضاء قد قام فى مصر الإسلامية من أول الأمر ، وأن القضاء كان لا يتولاه فى الصدر الأول إلا الراسخون فى العلم بالكتاب والسنة والقادرون على الاجتهاد والاستنباط ، فقد تبين لنا أن وسائل الدراسة الفقهية قد

تكاملت وسائلها فى مصر فى زمن مبكر لا يكاد يعدو أوائل القرن الثانى ، وذلك مستفاد من ظهور طائفة كبيرة من أئمة الفقهاء الذين رفعوا دراسة الفقه مكانا عليا . نخص منهم بالذكر « الإمام الليث بن سعد » المتوفى سنة ١٧٥ ، وكان فقيه مصر وعالمها ، ولد بقلقشندة ، وكان له اتصال بالإمام مالك ، يكاتبه فى مسائل التشريع ويحاجه ، ولقد عرض عليه الخليفة المنصور ولاية مصر فأباها . ثم « أبا محمد عبد الله بن وهب » المتوفى سنة ١٩٧ وقد شهد له الإمام مالك ، وكان يكتب إليه « إلى فقيه مصر ... » ثم « الإمام الشافعى » المتوفى سنة ٢٠٤ ولد بغزة من أرض الشام وتنقل فى الأقطار الإسلامية ، ولقى الإمام مالكا ، وأخذ عنه « الموطأ » ورحل إلى العراق غير مرة ، ودون مذهبه هناك ، ثم رحل إلى مصر سنة ١٩٩ واستقر بها ، وفيها كملت مواهبه الفقهية ، وأملى على تلاميذه بجامع الفساط كتبه الجديدة التى يعبر عنها « بالقول الجديد » ويجمعها « كتاب الأم » ، وهو المذهب الذى أداه إليه اجتهاده فى مصر .

ثم « أبا محمد عبد الله بن عبد الحكم » المتوفى سنة ٢١٤ وقد بلغ هو وابناه محمد وعبد الرحمن صاحب « كتاب فتوح مصر » منزلة عالية فى العلم والجاه ، وكان صديقاً للشافعى وعليه نزل الشافعى حين جاء مصر فأكرم مثواه وبلغ الغاية فى إكرامه .

ولا يفوتنا فى هذا المقام أن نشير إلى أن محمد بن جرير الطبرى ، شيخ المؤرخين والمفسرين وفد على مصر مرتين فى سنتى ٢٥٣ و ٢٥٦ وكتب عن علماء الفسطاط ، وجرت له فيها نوادر ذكرها ياقوت فى ترجمته .

ولقد كان موقف علماء مصر من مسألة القول بخلق القرآن مشرفا لهم . فقد امتنعوا عن متابعة المأمون والمعتصم والواثق فى القول بخلق القرآن ولقوا من جراء ذلك العزل والحبس والتشهير ، ولكنهم احتملوا كل ذلك فى صبر وإباء حتى انجابت الغمة بمجىء المتوكل وأبطاله امتحان الفقهاء والعلماء فى مسألة القول بخلق القرآن .

ذلك مبلغ تقدم العلوم الشرعية فى مصر حتى الثلث الأول من القرن الثالث الهجرى وهو تقدم لا شك عظيم . ومشاركة من مصر فى تحرير علوم الحديث والفقه نذكرها بمزيد الإعجاب .

أما الحركة الأدبية فلم تبلغ فى مصر مبلغ العلوم الشرعية إلا أن مصر أنجبت شعراء

بلغاء لم تصل إلينا دواوينهم كاملة للأسف أمثال مُعَلًّى الطائى ، وسعيد بن عفير ثم أنها اجتــذبت إليها طائفة من كبار شعراء العراق أمثال ابن قيس الرقيات وأبى نواس ، ولا ننسى أن الشاعر المبدع أبا تمـام الطائى نشأ وتأدب فى جامعة الفسطاط .

* * *

ذلك مبلغ ما أسهمت به مصر فى الأحداث العامة فى الدولة الإسلامية حتى منتصف القرن الثالث ، ومنه نتبين أن مصر شاركت فى كل مناحى الحياة العامة من حيث الفتوح الحربية والحوادث السياســية ، والحركة الفكرية ، وكان ذلك مما أبرز شخصيتها وكشف عن جلالة قدرها وخطرها وهيأ لها السبيل إلى أن تصبح بعد فى العصر العباسى الثانى دولة إسلامية قوية أثرت فى التاريخ الإسلامى بل فى التاريخ العام أبلغ الآثار . وموعدنا لبيان ذلك بحث آخر ومقام آخر إن شاء الله .

القسم الثانى

المغرب والأندلس

موسى بن نصير

١٩ — ٩٨ هـ

هو أبو عبد الرحمن موسى بن نصير فاتح المغرب والأندلس ، وناشر الإسلام واللغة العربية فيهما والممهد لقيام الحضارة الإسلامية فى هذين القطرين العظيمين .

وشخصية موسى بن نصير يحفها الغموض من كثير من نواحيها ، كما أن سيرته تناولها القصاص فأحالوها قصة للخيال منها حظ غير قليل ، ولكنا نقصر حديثنا على الثابت المستيقن من أخباره .

كان أبوه نصير من قبيلة بكر بن وائل الربعية العراقية ، أسره خالد بن الوليد فى وقعة عين التمر سنة ١٢ مع فتيان آخرين كانوا فى بيعة يتعلمون الإنجيل ، والظاهر أن نصيرا أسلم غداة الأسر ، ثم انتقل إلى الحجاز ودخل فى قبيلة لخم اليمنية ، وتزوج منها امرأة رزق منها ابنه موسى فى سنة ١٩ هـ فى خلافة عمر بن الخطاب . ثم نجد نصيرا بعدُ فى الشام على خيل معاوية ، فلما عزم معاوية على الخروج لحرب على بن أبى طالب لم يخرج معه نصير تحرجاً ، وقبل معاوية عذره ، ولم يكرهه على الخروج معه .

عاصر موسى فى صباه أحداثا جساما ، منها مقتل الخليفة عثمان ، والحرب بين على ومعاوية ، وثورة آل الزبير . وكان فى موسى طموح وتطلع إلى المجد شديد ، فلم يجر على سنة أبيه من البعد عن السياسة ومحرجاتها ، بل خاض غمارها ، فأخذ جانب عبد الله بن الزبير ، واشترك فى وقعة المرج بالشام سنة ٦٤ ولما انتهت تلك الوقعة الكبيرة بهزيمة أنصار ابن الزبير وانتصار مروان الأموى وحزبه ، كان موسى من بين الذين أراد مروان ضرب أعناقهم من أنصار ابن الزبير ، ولكن موسى استجار بعبد العزيز بن مروان فشفع فيه لدى أبيه لما رأى من عقل موسى ولبه ، وقبل أبوه شفاعته . وأصبح موسى من ذلك

الوقت حتى آخر حياته من أشد أنصار الأمويين إخلاصا لهم ولدولتهم .

***

ويتولى الخلافة بعد مروان ابنه عبد الملك ، فيظهر موسى على مسرح الحوادث مرة أخرى ، ولكن فى العراق لا فى الشام ، وفى البصرة بالذات . فقد تدخل أول الأمر فى المنافسات الحزبية الناشبة إذ ذاك بالبصرة ، مما يدل على أنه أصبح شخصية ملحوظة وذات اعتبار خاص ، ثم يوليه الخليفة خراج البصرة فيتهم بأنه احتجن مالا من مال الدولة وتشتد عليه وطأة الحجاج أمير العراق بإيعاز من الخليفة ، ولا ندرى مبلغ هذه التهمة من الصحة فلعلها راجعة إلى الحزازات الحزبية الفاشية إذ ذاك فى العراق . ومهما يكن من الأمر فقد فر موسى إلى مصر واحتمى مرة أخرى بعبد العزيز بن مروان . ويخف الأمير إلى الخليفة ومعه موسى ، وتسوى المسألة بأن يحمل الأمير عن موسى نصف المال المطلوب ، ثم يعود إلى مصر ومعه صاحبه .

***

فى ذلك الوقت ، أى فى أواخر العقد الثامن من القرن الأول الهجرى ، اضطربت أحوال المغرب وانتقضت البربر وفسدت أمور ذلك الأقليم ، هذا إلى أن المغرب الأقصى لم يكن قد فتح بعد . فرأى عبد العزيز بن مروان ، وكان إليه أمر المغرب ، أن ليس لإصلاح هذه الحال غير موسى بن نصير فولاه عليه ولاية عامة فى سنة ٧٩ هـ على أرجح الأقوال ، وبتلك الولاية شرع موسى يخط صفحة مجده وفخاره الباقى على الزمان .

كان موسى إذ ذاك قد استحكمت سنه ، ونضجت مواهبه ، وتمت تجاربه ، فأقبل على عمله الضخم بهمة عظيمة ، وعزيمة متقدة ، مستعينا فى جميع أمره بأبنائه النجباء عبد الله وعبد العزيز ومروان ، وبرجال من البربر اصطفاهم واصطنعهم بصلة الولاء أمثال طارق بن زياد وطريف ابن مالك . فقمع فتنة البربر فى شىء من العنف والشدة ، ثم استمالهم بعد إلى الإسلام فأسلموا وتكلموا العربية ، ثم حمل بهم وبالعرب على المغرب الأقصى ففتحه ونشر فيه الإسلام واللغة العربية ، وخلط البربر بالعرب وعاملهم جميعا معاملة واحدة ، وهى سياسة حكيمة لم تكن إذ ذاك متبعة فى المشرق . وبذلك أصبح تحت يده قوة عظيمة جملته يمد عينيه إلى

ما وراء خليج الزقاق ، إلى إسبانيا . ولكنه يرى أن الفرصة فى أمر إسبانيا لم تسنح بعد ، فيترك أمرها مؤقتاً ويعود إلى مقر إمارته بالقيروان ، تاركا مولاه طارق بن زياد فى طنجة ومعه حامية قوية ليرقب الأحوال وينهى إليه ما عسى أن يكون من تطور الأمور .

***

كانت إسبانيا إذ ذاك تحت حكم القوط ، وكانت فى حال اضطراب سياسى وانحلال عام . يتنازع الملك فيها فريقان ، فريق يمثل الأسرة المالكة الشرعية وعلى رأسه رجل يقال له يليان وفريق آخر يمثله « لذريق » الذى اغتصب الملك اغتصاباً . فلجأ ممثلو الفريق الأول إلى طارق يلتمسون منه النصرة ، ويهونون عليه أمر الأندلس ، فأحالهم طارق على مولاه موسى ، فأدرك موسى أن الفرصة فى أمر إسبانيا قد أمكنت ، وكتب إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك يستأذنه فى غزو إسبانيا ، فجاءه الرد بالإذن على أن يلتزم الحيطة والاحتراس الشديد .

وعمل موسى بما أشار به الخليفة ، فاختبر السواحل الإسبانية بالسرايا ، سرية إثر سرية فجاءت نتيجة اختباره مشجعة له على الشروع فى الغزو ، فسير طارقاً على رأس جيش قوى أكثره من البربر وأقله من العرب ، فنزل طارق بالصخرة التى عرفت بعد « بجبل طارق » ثم تقدم غرباً والتقى بلذريق فى وقعة البحيرة فى رمضان سنة ٩٢ ، فيهزم لذريق ويقتل فيما يقال وينتصر طارق انتصاراً حاسماً ، ثم يزحف طارق من فوره نحو طليطلة عاصمة الدولة القوطية فيدخلها عنوة .

عند ذلك يرى موسى أن قد آن أن ينهض بنفسه لإتمام ما شرع فيه من الفتح وليتفادى ما عسى أن يحل بطارق وجيشه بعد أن أوغل فى أرض العدو . فركب البحر فى سنة ٩٣ فى أسطول كان قد أخذ فى إعداده عند تسييره طارقاً وسلك طريقاً غير الطريق التى سلكها طارق ، وفتح مدناً عظاماً ثم التقى بطارق فى طليطلة ، ثم سار ومعه طارق يفتح الأقاليم الشمالية الشرقية حتى بلغ جبال البرانس الحاجزة بين إسبانيا وفرنسا .

والعجيب من أمر موسى ، وهو شيخ قد أربى على السبعين ، أن يهم بأن يعبر جبال

البرانس ويسير مشرقاً فاتحاً كل ما يعترضه حتى يستولى على القسطنطينية ويأتى دار الخلافة بالشام .

ويبلغ هذا الحلم مسامع الخليفة ، فيرى فيه بطبيعة الحال إسرافاً وتغريراً ، فيستدعى الفاتحين موسى وطارقاً من فوره إلى الشام . فلا يسع موسى إلا أن يصدع بالأمر فيخرج سنة ٩٥ قاصداً الشام ، ومعه من الغنائم والسبى والأسرى ما لم يسمع بمثله فى تاريخ الفتوح العربية .

***

كان من حق هذا الفاتح المظفر والشيخ الكبير أن ينعم فى البقية الباقية من عمره بنعمة الراحة والدعة ، ولكن أبت عليه الأقدار ذلك . قالوا : إنه لما بلغ موسى فى طريق عودته فلسطين كان الخليفة مريضاً مرض موته ، فكتب إليه ولى العهد سليمان بن عبد الملك يطالب إليه عدم العجلة فى السير حتى يتوفى الخليفة ، فتصير إليه الأموال التى مع موسى . ولكن موسى أسرع السير وقدم على الخليفة قبل وفاته بثلاثة أيام . فلما تولى سليمان الخلافة أراد الانتقام من موسى لعصيانه أمره ، فأقبل يحاسبه حساباً عسيراً وطالبه بأموال جسام عجز موسى عن أدائها فجعل يعذبه ، ثم إن موسى استجار بيزيد بن المهلب وكان أثيراً لدى الخليفة الجديد ، وسوى الأمر بأن افتدى موسى نفسه بمال عظيم يؤديه ما عاش . وظل موسى يستعين قومه من لخم وأحياء العرب على أداء ما التزم به حتى أدركه الموت فى وادى القرى سنة ٩٨ هـ . ولقد عدت نكبة موسى هذه من سيئات الخليفة سليمان بن عبد الملك ، وكانت فى الحق كثيرة .

***

هذا هو الجانب الأعم والأشهر من سيرة البطل الفاتح موسى بن نصير . غير أن لهذه السيرة جانباً آخر لا يقل طرافة عما ذكرنا . فالرواية تصف موسى بالعقل والورع والتقوى والشجاعة ، وبأنه لم يهزم له جيش قط ، وتصفه ببلاغة العبارة والقدرة على قول الشعر الحسن وبالإحاطة بالمعارف السلطانية من حرب وإدارة وسياسية ، وتصفه فوق ذلك كله بأنه تابعى جليل روى الحديث عن تميم الدارى ورواه عنه هو آخرون . ولكن أمراً واحداً

هو سر نجاحه وعظمته ، ذلك حرصه على القيام بواجبه ، ففي سبيل الواجب قام بما قام به من الفتوح العظام ، وفي سبيل الواجب احتمل ما احتمل من الأذى والضُّر .

قالوا : إن يزيد بن المهلب سهر ليلة مع الأمير موسى ، فقال له : « يا أبا عبد الرحمن ! فى كم كنت تعتد ، أنت وأهل بيتك ، من الموالى والخدام ؟ أتكونون فى ألف ؟ » فقال : نعم ! وألف ، وألف ، إلى منقطع النفس ! » قال : « فلم ألقيت بنفسك إلى التهلكة ؟ أفلا أقمت فى قرار عزك ، وموضع سلطانك ؟ فقال : والله ! لو أردت ذلك ، لما نالوا من أطرافى شيئاً ! ولكنى آثرت الله عز وجل ورسوله ، ولم أر الخروج عن الطاعة ! » .

أما بعد ، فقد يكون سليمان بن عبد الملك قد نال بطغيانه وجبروته من مال موسى وبدنه ، أما مجد موسى ، وعظمة موسى ، فلم يستطع سليمان بن عبد الملك أن ينال منهما منالا ما ؟

حـــديث

الفتية المغررين من أهل لشبونة*

كان جغرافيو الأغريق يعتقدون أن الأرض المعمورة يحيط بها بحر عظيم سموه « أقيانوس » ، وقد تابعهم جغرافيو العرب فى اعتقادهم هذا ، وأطلقوا على البحر الذى يحيط بالمعمورة أسماء مختلفة : منها البحر المحيط ، وبحر الظلمات ، والبحر الأخضر ؛ كما قسموه باعتبار الجهات الأربع إلى محيطات أربعة : شمالى وجنوبى وشرقى وغربى .

والمحيط الغربى هو الذى تسميه الجغرافيا الحديثة بالمحيط الأطلسى أو الأطلنطى .

***

لم يجرؤ من القدماء على النفوذ إلى المحيط الغربى والإيغال فيه إلا الفينيقيون أهل مدينة صور ، وإلا أعقابهم القرطجنيون أهل قرطجنة ، فهم الذين نفذوا إليه ، وركبوا ثبجه ، ولججوا فيه شمالا حتى الجزائر البريطانية ، وجنوبا حتى منعطف خليج غانة العظيم ، وللملاح القرطجنى (هنو) القدح المعلى فى كثير من هذه الأسفار البحرية العظيمة .

ولكى يحتكر الفينيقيون هذا البحر ، ويستأثروا بخيرات جزائره وسواحله الأوربية والأفريقية ، ويمنعوا الأغريق من منافستهم فيها ، ملأوا أسماع الناس واسترهبوهم بأباطيل لفقوها عن هذا البحر وأذاعوها ، فقد صوروه بحراً عظيم الأهوال عاتى الرياح ، يركبه ظلام حالك ، وتسبح فيه كائنات منكرة الأشكال ، وتعمر جزائره التنانين والأغوال والسعالى ، وتستقر فى جوفه براكين تقذف بالنار والحمم والدخان ، وأنه نهاية المعمور ومنقطعه ، وأنه ليس فيه ولا وراءه مطمع لطامع .

ولقد عمل هذا التخويف والإرهاب عمله فى ملاحى الأغريق وطلاب الاستعمار منهم ، فتحاموا ركوب هذا البحر المخوف ، وقصروا نشاطهم التجارى والاستعمارى على البحر

(*) الثقافة : العدد ١٣٦ ، سنة ١٩٤١ .

الأبيض المتوسط . على أن هذه الأراجيف لم تمنع الخيال الإغريقى من تناول هـذا البحر والذهاب فى تصوره كل مذهب . فلقد تغنى هوميروس بغروب الشمس فى لجة هذا المحيط ، كما قرر أفلاطون فى بعض حوارياته أنه كان فى هـذا المحيط الغربى جزيرة عظيمة تسمى « أطلنطة » ، وأنه كان بها دولة عظيمة غزت أراضى البحر الأبيض المتوسط ، ولم يثبت لها إلا أهل أثينا ، وأن هذه الدولة كانت ذات نظام جمهورى مثالى ، ثم يقول الفيلسوف : إن هذه الجزيرة انقضى أمرها بأن طغى عليها البحر فأغرقها ، ولم يبق منها إلا جزائر صغار ترى فوق سطح المحيط .

والواقع أن المحيط الأطلسى ظل لغزاً غامضاً يستثير أعجب الأخيلة وأغرب التصورات ، إلى أن تمكن العرب فى القرن الثالث الهجرى من أرض المغرب الأقصى والأندلس ، وأصبحوا فعلاً مشرفين على هـذا الخضم العظيم ، وأنشأوا فيه الأساطيل الجرارة لرد عادية أهل الشمال عن سواحلهم ؛ وعندئذ نجدهم يقدمون على ركوب البحر المحيط فى غير ما خوف ولا وجل ، ويعرفون الشىء الكثير عن سواحله وجزائره ، ويصفون كل ذلك وصفاً لا بأس به فى جملته .

* * *

ومن أعجب ما يروى عن عرب الأندلس فى هذا الصدد حديث فتية من مدينة لشبونة ، ومن أهل القرن الثالث الهجرى أو التاسع الميلادى ، شاقهم المجهول من أمر المحيط الغربى ، فأحبوا أن يقفوا على مداه ، ويجلوا الغامض من أسراره ، فقاموا برحلة بحرية وعادوا منها بعد أهوال رأوها ، وقصوا حديث رحلتهم على أهل بلدهم .

ولقد أورد الشريف الإدريسى خلاصة حديثهم فى كتابه « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » ، قال :

« ومن مدينة لشبونة كان خروج المغررين فى ركوب بحر الظلمات ليعرفوا ما فيه ، وإلى أين انتهاؤه . . . ولهم بمدينة لشبونة بموضع من قرب الحمة درب منسوب إليهم يعرف بدرب المغررين إلى آخر الأبد ، وذلك أنهم اجتمعوا ثمانية رجال كلهم أبناء عم ، فأنشأوا مركباً حمالا وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر ، ثم دخلوا البحر فى أول طاروس

الريح الشرقية (أى هبو بها ؟) ، فجروا بها نحواً من أحد عشر يوما ، فوصلوا إلى بحر غليظ الموج كدر الروائح كثير التروش (الصخور التى لايكاد يسترها الماء) قليل الضوء ، فأيقنوا بالتلف ، فردوا قلاعهم فى اليد الأخرى ، وجروا فى البحر فى ناحية الجنوب اثنى عشر يوما ، فخرجوا إلى جزيرة الغنم ، وفيها من الغنم ما لا يأخذه عد ولا تحصيل ، وهى سارحة لا راعى لها ، ولا ناظر إليها ، فقصدوا الجزيرة ، فنزلوا بها ، فوجدوا عين ماء جارية ، وعليها شجرة تين برى ، فأخذوا من تلك الغنم . فذبحوها ، فوجدوا لحومها مرة لايقدر أحد على أكلها ، فأخذوا من جلودها ، وساروا مع الجنوب اثنى عشر يوما ، إلى أن لاحت لهم جزيرة ، فنظروا فيها إلى عمارة وحرث ، فقصدوا إليها ليروا ما فيها ، فما كان غير بعيد حتى أحيط بهم فى زوارق هناك ، فأخذوا وحملوا فى مركبهم إلى مدينة على ضفة البحر ، فأنزلوا بها فى دار ، فرأوا بها رجالا شقراً زعراً شعور رؤوسهم ، شعورهم سبطة ، وهم طوال القدود ، ولنسائهم جمال عجيب . فاعتقلوا فيها فى بيت ثلاثة أيام ؛ ثم دخل عليهم فى اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربى ، فسألهم عن حالهم وفيم جاءوا ، وأين بلدهم . فأخبروه بكل خبرهم ، فوعدهم خيراً ، وأعلمهم أنه ترجمان الملك . فلما كان فى اليوم الثانى من ذلك اليوم أحضروا بين يدى الملك ، فسألهم عما سألهم الترجمان عنه ، فأخبروه بما أخبروا به الترجمان بالأمس من أنهم اقتحموا البحر ليروا ما به من الأخبار والعجائب و يقفوا على نهايته . فلما علم الملك ذلك ضحك وقال للترجمان : خبر القوم أن أبى أمر قوماً من عبيده بركوب هذا البحر ، وأنهم جروا فى عرضه شهراً إلى أن انقطع عنهم الضوء وانصرفوا من غير حاجة ولا فائدة تجدى .
ثم أمر الملك الترجمان أن يعدهم خيراً ، وأن يحسن ظنهم بالملك ، ففعل . ثم صرفوا إلى موضع حبسهم إلى أن بدأ جرى الريح الغربية ؛ فعمر بهم زورق وعصبت أعينهم ، وجرى بهم فى البحر برهة من الدهر ، قال القوم قدرنا أنه جرى بنا ثلاثة أيام بلياليها حتى جىء بنا إلى البر فأخرجنا ، وكتفنا إلى خلف ، وتركنا بالساحل إلى أن تضاحى النهار ، وطلعت الشمس ، ونحن فى ضنك وسوء حال من شدة الكتاف ، حتى سمعنا ضوضاء وأصوات ناس فصحنا بأجمعنا ، فأقبل القوم إلينا فوجدونا بتلك الحال السيئة ، فحلونا من وثاقنا وسألونا ، فأخبرناهم بخبرنا ، وكانوا برابر ، فقال لنا أحدهم : أتعلمون كم بينكم و بين بلدكم ؟ فقلنا : لا ، فقال : إن بينكم و بين بلدكم مسيرة شهرين . فقال زعيم القوم : وا أسفى ! فسمى المكان

إلى اليوم « أسفى » وهو المرسى الذى فى أقصى المغرب » .

ويتم الإدريسى حديث هؤلاء الفتية فى موضع آخر من كتابه عند ذكر جزائر المحيط الأطلسى فيقول : « وفى هذا البحر أيضاً جزيرة الأخوين الساحرين اللذين يسمى أحدهما شرهام ؛ والثانى شرام . ويقال إنهما كانا بهذه الجزيرة يقطعان على المراكب التى تمر بهما بظلمهما ، ويهلكان جميع أهلها ويأخذان أموالهم ، فمسخ الله بهما بظلمهما ، وبقيا حجرين على ضفة البحر قائمين ، ثم عمرت هذه الجزيرة بالناس ، وهى تقابل مرسى آسفى . . .

. . . ولهذه الجزيرة قصة غريبة أخبر عنها المغررون من أهل مدينة لشبونة بالأندلس حين أسقطوا إليها بمركبهم » .

ويؤخذ من سياق كلام الإدريسى أن هؤلاء الفتية كتبت لهم السلامة وعادوا إلى بلدهم ، وحدثوا أهل لشبونة بما رأوا وعاينوا فى رحلتهم ؛ ولكن أهل لشبونة لم يروا فى هؤلاء الفتية بعد كل الذى سمعوه منهم إلا رجالا مغررين مخاطرين ، وسموا الدرب الذى فيه دورهم بدرب المغررين .

* * *

ومهما يكن رأى أهل لشبونة فى هؤلاء الفتية ورحلتهم ، فإن ما قاموا به طريف حقاً ، ورحلتهم هى الأولى من نوعها بعد رحلات الفينيقيين القدماء . ومعالم قصتهم صحيحة صادقة من الوجهة العلمية . فالظاهر أنهم عندما ساروا أول الأمر أحد عشر يوماً متجهين شمالا إنما أصبحوا فى محاذاة إرلندة ، فلما ساروا بعد ذلك نحو الجنوب اثنى عشر يوما و بلغوا الجزيرة التى سموها جزيرة الغنم ، إنما بلغوا الجزيرة المسماة الآن بماديرا . ويذكر العلامة دافزاك نقلا عن العالم الطبيعى برتلو أن بهذه الجزيرة كثيراً من المعز تقتات بنوع من عشب هذه الجزيرة هو السبب فى مرارة لحومها . أما جزيرة الأخوين الساحرين اللذين مسخا حجرين فهى الجزيرة التى تعرف الآن بجزيرة (لنسلوت) و بطرفها الشمالى صخرتان متقابلتان هما اللتان تحدث عنهما الفتية فى حديثهم ؛ وهذه الجزيرة هى فى أغلب الظن التى جرى للفتية مع ملكها الحديث الذى قصه الإدريسى .

وكما ذابت معلومات الفينيقيين والقرطجنيين عن البحر المحيط وجزائره فى أوهام القدماء

من اليونان والرومان ، فكذلك ذابت معلومات هذه القصة فى أوهام أوربى العصور الوسطى ، وظهر ذلك واضحاً فى القرن الحادى عشر خاصة ، ولا أدل على ذلك من قصة رحلة مزعومة تضاف إلى راهب إرلندى يعرف بالقديس براندان .

كان هذا الراهب من أهل إرلندا ، وقد عاش فى القرن السادس الميلادى ، وينسبون إليه أنه أراد أن يبلغ الجنة التى جعلها الله مباءة لصالحى القديسين ، والتى توهمها جزيرة من جزائر المحيط الأطلسى . فأعد سفينة شحنها بالزاد ، وركب فيها هو وسبعة عشر من أصحابه الرهبان ، ثم ضربوا بها فى عرض البحر ، فبلغوا جزيرة الغنم وجزيرة الطيور (لكثرة ما بها من طير الماء ، وقد وصفها الإدريسى) ، وعاينوا من العجائب والغرائب الشىء الكثير : من ذلك جزيرة جرداء طلعوا إليها ، فلما أوقدوا بها ناراً لإصلاح طعامهم اهتزت بهم ، فأسرعوا إلى الفرار منها ، فإذا هى حوت عظيم راكد على سطح الماء . ومنها أنهم عاينوا طائراً هائلا يختطف الوحوش الكبار . ثم يعود الراهب وأصحابه من رحلتهم هذه إلى إرلندة ، ويقصون على قومهم ما رأوا وعاينوا .

ومع أن الراهب براندان من أهل القرن السادس الميلادى ، فإن قصة رحلته المذكورة لم تظهر إلا فى القرن الحادى عشر . وقد أبى من دونوا أخبار القديسيين أن يسجلوا هذه القصة ، واعتبروها حديث خرافة ، والواقع أن قصة الراهب الأرلندى ليست إلا قصة الفتية المغررين التى ذكرناها مع ما أضيف إليها من أخبار عجيبة أخذت من أسفار السندباد البحرى المشهورة فى قصص « ألف ليلة وليلة » ، وذلك كحكاية الحوت الذى ظنه الراهب جزيرة ، وحكاية الطائر الهائل الذى هو (الرخ) فى قصص السندباد .

* * *

أما بعد ، فقد جرى فى أوربا — فى القرن الماضى — جدل شديد بين المؤرخين ، مداره أى الشعوب الثلاثة أسبق إلى ركوب المحيط الأطلسى وكشف غوامضه : الجنويون أم الفرنسيون ، أم البرتغاليون ؟ ومن العجيب أنه لم يذكر من هؤلاء المؤرخين ذاكر أن هذه الشعوب الثلاثة قد سبقت إلى ركوب هذا المحيط لكشف غوامضه بمئات السنين ، وأن السابقين إلى ذلك كانوا أولئك « الفتية المغررين » من أهل لشبونة .

زرياب المغنى*

إذا قدر للأندلس أن يكتب تاريخها الفنى والاجتماعى ، فلا شك أن أنضر صفحة فى ذلك التاريخ المجيد وأعجبها قد تكون صفحة أبى الحسن على بن نافع المغنى الملقب بـ « زرياب » . فهو رجل استطاع وحده أن ينقل أمة بأسرها من حال البداوة إلى حال الحضارة . وذلك بشيئين اثنين : تحبيب الموسيقى إليها ، وتنظيم حياتها اليومية .

***

فتح المسلمون الأندلس فى العقد الأخير من القرن الأول الهجرى ، وانتشرت قبائلهم العربية والبربرية فى سهولها وحزونها ، ولكنهم ظلوا حتى أواخر القرن الثانى بداة جفاة ، كلما اجتمعت كلمتهم لم يلبثوا أن تفرق بينهم الإحن والعداوات المنبعثة عن العصبية القبلية . فكأنهم لا يزالون ضاربين فى هضاب نجد وسهول تهامة ومفاوز إفريقية وشعابها . ثم أخذت شئونهم السياسية تستقر وتتسق بفضل مجهودات المتقدمين من أمراء الدولة الأموية الأندلسية : عبد الرحمن الداخل ، وهشام ، والحكم ، وعبد الرحمن الأوسط . أما الأحوال الاجتماعية فظلت على ما كانت عليه بداوة واضطرابا .

وعلى العكس من ذلك كان المشرق الإسلامى فى ذلك الزمان ، فقد استبحر فيه العمران وبلغت المدنية الإسلامية فيه غايتها ، وتعلق فيه ذوو الدعة واليسار بأسباب الكمالى من شئون الحياة بعد أن استكملوا الضرورى والحاجى منها على حد تعبير ابن خلدون . وقد ساعفهم فى ذلك عامل الدين وعامل التاريخ معاً . فأما المعتدلون منهم فكانوا يستندون إلى أن الدين الإسلامى دين يسر يحب من المؤمن أن يكون هينا لينا موفور الحظ من الظرف والكياسة ، غير فظ ولا غليظ القلب ، ولا ناس نصيبه من الدنيا . وأما المتطرفون فوجدوا فى تقاليد الفرس والروم الاجتماعية ما جعلهم يؤثرون العاجلة ويحرصون على لذة الحياة الدنيا ومتعها ، أيا كانت الطرق الموصلة إليها .

(*) الرسالة ، العدد ٧ ، سنة ١٩٣٣ .

وقد تألفت من هؤلاء وهؤلاء طبقة أرستقراطية ، مرهفة الأذواق ، رقيقة الطباع ، ترى فى الموسيقى ومجالس الأنس والطرب وحفلات السمر خير ما ينقعون به غلة تلك الأذواق المرهفة والطباع المترفة . هذا هو السبب المباشر فى تقدم صناعة الغناء فى ذلك الزمان ، وبلوغها الغاية على أيدى إبراهيم بن المهدى ، و إبراهيم الموصلى ، وابنه إسحق . وهذا هو السبب كذلك فى استفاضة مجالس الأنس والطرب لذلك العهد فى مدن الشرق الإسلامى عامة وبغداد خاصة ، وفى بلوغ هذه المجالس درجة من التأنق يمكن تصورها إذا عرفنا أنهم وضعوا لها آدابا كانوا يأخذون بها من يحضرها من الندماء ، والجلساء ، والسمار .

من ذلك أن يكون الغناء قوامها ، وأن يحتفل لها بلبس الثياب المصبغة الأنيقة ، وأن يزين المجلس بالأزهار والرياحين ، وألا يحضرها إلا من كان مهذباً خفيف الروح ، حاضر البديهة ، قادراً على قول الشعر وارتجاله ، فضلا عن تذوقه وروايته عند ما يقتضى المقام ذلك .

إلى هذا الشرق اتجه أمراء بنى أمية الأندلسيون ، وهم أبناء خلائف دمشق ورصافتها ، يستهدونه فنانين ومعلمين يهذبون ما غلظ من طباع العرب والبربر والمولدين ، وينظمونها جميعاً فى نسق واحد . وقد أهدى المشرق إلى المغرب غير واحد من المغنين أمثال علون ، وزرقون . ولكن زريابا كان أعظم هؤلاء جميعاً وأبعدهم أثراً .

* * *

كان أبو الحسن على بن نافع مولى للخليفة المهدى العباسى ، ولسمرة لونه ورقة شمائله لقبوه بزرياب ، تشبيها له بطائر أسود غرد يعرف عندهم بهذا الاسم . وقد تكاملت لزرياب كل أسباب النبوغ والتفوق موهوبها ومكسوبها ؛ فكان شديد الذكاء ، لطيف الحس ، عارفاً بالنجوم والأقاليم ، شاعراً فصيح الشعر . غير أنه كان إلى الغناء أميل و به أشغف . وقد درسه علما فى كتب الأقدمين من حكماء اليونان ، وعملا على أستاذه إسحق الموصلى زعيم المغنين فى ذلك الوقت ، ولشدة افتتان زرياب بالموسيقى كان تفكيره فيها لا يكاد ينقطع حتى أنه ليلهم « النوبة والصوت » وهو نائم فيهب من نومه مسرعا ، ويقيد ما وقع له أو يلقيه على جاريتيه غزلان وهنيدة ، ثم يعود إلى مضجعه عجلا ، ومن ثم قيل

إنه كان يأخذ ألحانه عن الجن كما قيل فى إبراهيم الموصلى نفســه . قالوا وكان يحفظ عشرة آلاف مقطوعة من الأغانى بألحانها . ولم يأل زرياب جهداً فى أن يأخذ نفسه بالأدب الرفيع والسلوك العالى المصطلح عليه فى البيئة التى كان يعيش فيها ببغداد ، بيئــة البلاط وقصور الأمراء ورؤساء الدولة العباسية .

***

ويذكرون أن السبب فى هجرة زرياب من المشرق إلى المغرب ، أنه غنى يوما فى حضرة هارون الرشيد ، فأخذ الخليفة بصناعته وظرفه وطلب إلى إسحق أن يعنى به حتى يفرغ لسماعه . ولــكن إسحق لم يلبث أن تحركت فى نفسه عوامل الغيرة والحسد والحقــد على تلميذه ، فخلا به وخيره بين الموت والحياة ، بين أن يقيم ببغداد فيعرض حياته للهلاك ومهجته للتلف ، وبين أن يذهب فى أرض الله العريضة فينجو بحياته ، ووعده إذا هو اختار ثانى الأمرين أن يعينه على الرحيل بما شاء من المال وغير المال ، فاختار زرياب الرحيل عن المشرق بأسره ، ووفى له إسحق بما وعده به من المعونة .

وتذكره الرشــيد بعد أن فرغ من شغله الذى كان منهمكا فيه ، وطلب إلى اسحق إحضاره فقــال : « ومن لى به يا أمير المؤمنين ؟ ذلك غلام مجنون يزعم أن الجن تــكلمه وتطارحه ما يزهى به من غنائه ، فما يرى فى الدنيا من يعدله ، وما هو إلا أن أبطأت عليه جائزة أمير المؤمنين ، وترك استعادته ، فقدر التقصير به والتهوين لصناعته ، فرحل مغاضباً ذاهباً على وجهه مستخفياً عنى ، وقد صنع الله تعالى فى ذلك لأمير المؤمنين ، فإنه كان به لمم يغشاه ويفرط خبطه ، فيفزع من رآه » . يقول المقرى « فسكن الرشيد إلى قول إسحق وقال : على ما كان به ! فقد فاتنا منه سرور كثير » .

* * *

خرج زرياب من بغداد يؤم المغرب ، فلمــا كان بأفريقية اتصل بصاحبها زيادة الله الأغلبى . ولــكنه لم يطب له المقام بها ، فرحل عنها إلى المغرب الأقصى ، وهنا كتب إلى الحــكم بن هشام ، أمير الأندلس المعروف بحبه للموسيقى ، يستأذنه فى دخول الأندلس والصيرورة إليه ، فأذن له الأمير فى ذلك من فوره . وعبر زرياب البحر إلى عدوة الأندلس

وبينما هو يتأهب للرحيل إلى قرطبة إذ سمع بوفاة الحكم ، فهم أن يعود أدراجه إلى المغرب لولا أن كتب إليه الأمير الجديد ، عبد الرحمن الأوسط ، يستقدمه ويعده أن ينيله كل ما تصبو إليه نفسه من مال وجاه ، فقدم عليه زرياب . ويروون أن عبد الرحمن احتفل لمقدمه أعظم احتفال إذ خرج بنفسه من قرطبة لتلقيه . وما هو إلا أن سمع غناءه وحديثه حتى شغف به ، فغمره بفضله وإنعامه ، وأجرى عليه من الرواتب والأرزاق الشيء الكثير ، حتى كان يركب بين يديه مائة مملوك . وقدمه الأمير على سائر المغنين ، وبلغ من شدة شغفه به أن جعل فى قصره باباً خاصا يستدعيه منه كلما أحب سماع غنائه الرائع ، وحديثه العذب الطريف .

وقد لقى زرياب الجميل بالجميل ، وجزى على المعروف بالمعروف ، ولكنه قصد إلى ذلك من طريق غير مباشر ، قصد إليه من طريق النصح والإخلاص للأندلس التى أصبحت له وطناً ، ولأهل الأندلس الذين أصبحوا قومه ومعشره . فعكف على رفع مستوى الموسيقى الأندلسية ، وعلى النهوض بالمجتمع الأندلسى حتى يدانى المجتمع الشرقى ببغداد . وقد وفق فيما قصد إليه كل التوفيق .

* * *

يمكن القول بأن زريابا نهض بالموسيقى الشرقية نهضة جديدة مطبوعة بطابعه ، وذلك بما أدخله على العود من إصلاح وتحسين ، وبما استن من طرق جديدة فى إلقاء الغناء وتعليمه . فقد اتخذ لنفسه وهو بالمشرق عوداً جعله على الثلث من وزن العود القديم ، وصنع أوتاره من حرير لم يغسل بماء ساخن فأكسبها أنوثة ورخاوة ، واتخذ بَمّها ومَثْلَثَها من مصران شبل أسد : « فلها فى الترنم والصفاء والجهارة والحدة أضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان ، ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب المتعاورة بها ما ليس لغيرها » . فلما كان بالأندلس زاد أوتار العود الأربعة المقابلة للطبائع الأربع وترا خامسا يقوم مقام النفس من الجسد ، فاكتسب به عوده ألطف معنى وأكمل فائدة كما يروى المقرى . واتخذ مضراب العود من قوادم النسر بدلا من مرهب الخشب ، « وذلك للطف قشر الريشة ونقائه وخفته على الأصابع وطول سلامة الوتر على كثرة ملازمته إياه » . أما من حيث إلقاء الغناء ، فقد رسم زرياب أن يبدأ فى الإلقاء بالنشيد بأى نقر كان ، ثم يؤتى فى أثره بالبسيط ، ويختم

بالمحركات والأهزاج . أما مذهبه فى تعليم الغناء فيقول فيه المقرى : « وكان إذا تناول الإلقاء على تلميذ يعلمه أمره بالقعود على الوساد المدور المعروف بالمسورة ، وأن يشد صوته جداً إذا كان قوى الصوت ، فإن كان لينه أمره أن يشد على بطنه عمامة ، فإن ذلك مما يقوى الصوت فلا يجد متسعاً فى الجوف عند الخروج على الفم ، فإن كان ألص الأضراس لا يقدر على أن يفتح فاه ، أو كانت عادته زم أسنانه عند النطق ، راضه بأن يدخل فيه قطعة خشب عرضها ثلاث أصابع ، يبيتها فى فمه ليالى حتى ينفرج فكاه . وكان إذا أراد أن يختبر المطبوع الصوت المراد تعليمه من غير المطبوع أمره أن يصيح بأقوى صوته : يا حجام ! أو يصيح آه ! ويمد بها صوته ، فإن سمع صوته بها صافياً ، نديا ، قويا ، مؤديا ، لا تعتريه غنة ، ولا حبسة ، ولا ضيق نفس ، عرف أن سوف ينجب ، وأشار بتعليمه ، وإن وجده خلاف ذلك أبعده » . هذه العبارة تشير فى صراحة إلى أن زريابا أنشأ بالأندلس فى أوائل القرن الثالث الهجرى ما يصح أن نسميه بلغة الوقت الحاضر معهداً لتعليم الموسيقى .

ولم يكن زرياب أقل ابتكاراً فى شئون الحياة اليومية منه فى مجال الموسيقى والفن ، وهذا محل العجب من سيرته . فقد ابتكر لأهل الأندلس ألواناً من الطعام استطابوها ونسبوا بعضها إليه ، وعلمهم أن يشربوا من آنية الزجاج الرقيق بدلا من آنية المعدن . وهو أول من اجتنى لهم البقلة الشهية المعروفة بالهليون وكانوا لا يعرفونها من قبل ، وعلمهم أن يبسطوا سفر الأديم فوق الموائد الخشبية فذلك أنظف لها وآنق لمنظرها ، وعلمهم أن يلائموا بين ما يلبسون وبين فصول السنة الأربعة ، فيتدرجوا من الخفيف الأبيض صيفاً إلى الثقيل الملون شتاء ، ولفتهم إلى أنواع من الطيب والعطر لم يلبثوا أن أقبلوا عليها وفضلوها على ما كانوا يتعطرون به من قبل ، كما علمهم كيف ينظمون شعورهم ، تصفيفاً ، وتدويراً ، وإرسالا .

* * *

لا ندرى بالدقة متى توفى زرياب . والغالب أن وفاته كانت فى إمارة الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨ — ٢٧٣ هـ) وكما رزق زرياب الحظوة عند أهل الأندلس فى حياته فقد رزقتها ذكراه عندهم بعد مماته . ذلك بأن مذهبه فى الغناء وما رسم لهم من أسلوب المعيشة ظل باقياً متوارثا فيهم حتى آخر أيامهم . فلما انتهى أمر الأندلس وخرج من

تبقى من أهلها إلى بلدان إفريقية الشمالية انتقل إليها بانتقالهم مقدار غير قليل من صناعة زرياب وآدابه . يقول ابن خلدون عند ذكره زريابا « فأورث بالأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف وطما منها بأشبيلية بحر زاخر وتناقل منها بعد ذهاب حضارتها إلى بلاد العدوة بأفريقية والمغرب وانقسم على أمصارها وبها الآن منها صبابة على تراجع عمرانها وتناقص دولها » .

ويقول المقرى « وكان زرياب قد جمع إلى خصاله هذه الاشتراك فى كثير من ضروب الظرف ، وفنون الآداب ، ولطف المعاشرة ، وحوى من آداب المجالسة وطيب المحادثة ومهارة الخدمة الملوكية مالم يجده أحد من أهل صناعته حتى اتخذه ملوك أهل الأندلس وخواصهم قدوة فيهما سنه لهم من آدابه واستحسنه من أطعمته ، فصار إلى آخر أيام أهل الأندلس منسوباً إليه معلوماً به » .

* * *

أما بعد ، فقد كان أهل رومية القديمة على عهد نيرون يلقبون سرياً من سراتهم اسمه بطرونيوس برب الظرف وسلامة الذوق ، لأنه كان عندهم مضرب المثل فى ذلك .

أما أهل الأندلس فقد وصفو زريابا بأنه « معلم الناس المروءة » والمروءة عندهم كمال الإنسانية ، وهو لا شك أجمل أوصافه ، وأحقها بأن يحفظه عليه التاريخ ويذكره به ؟

حكيم الأندلس

عباس بن فرناس (*)

مما يوصف به العقل اليونانى القديم أنه عقل لطيف ، نفاذ ، بحاث ، شكاك ، غواص على حقائق الأشياء ، حريص على الوصول إلى أسرار هذا الوجود ونواميسه التى يقوم عليها نظامه ، معنى بفهم قوى الطبيعة وتسخيرها لمصلحة الإنسان .

بهذه الخصائص العقلية بلغ الأغريق القدماء ما بلغوا من تقدم فى أنواع المعرفة على اختلافها ، وأصبحوا المثل الأعلى فى البحث العلمى الصحيح .

ومن الشخصيات العلمية الإسلامية التى يصح أن توصف بما يوصف به الأقدمون من علماء الأغريق من حيث الشغف بالبحث العلمى ، والمخاطرة فى سبيل ذلك إلى أبعد حدود المخاطرة ، رجل أندلسى من أهل القرن الثالث الهجرى والتاسع الميلادى ، اسمه عباس بن فرناس ، ويلقب بحكيم الأندلس .

وقد فسر اللغويون الحكمة بأنها عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم ، وسموا من يحسن دقائق الصناعات ويتقنها حكيماً ، ولكن الخوارزمى فى كتابه « مفاتيح العلوم » يقول عند كلامه على الكيمياء : « والمحققون لهذه الصناعة يسمونها الحكمة على الإطلاق » . ولعل وصف عباس بن فرناس بالحكمة إنما جاء من اشتغاله بالكيمياء كما سترى ، فلقب بالحكيم كما لقب من قبله خالد بن يزيد بن معاوية بحكيم بنى أمية ، وذلك لبصره بالكيمياء خاصة .

* * *

كان أبو القاسم عباس بن فرناس من مولدى الأندلس ، أى إسبانى الأصل ، وقيل بل كان من أصل بربرى ، أى أفريقى الأصل . وكان من موالى بنى أمية ، وكان أهله من

(*) الثقافة : العدد ١٣٤ يوليه سنة ١٩٤١

كورة تاكرنا الأندلسية . ثم انتقل إلى قرطبة ، وسكن منها الربض الغربى . والظاهر أن ذلك كان فى أوائل القرن الثالث ؛ وقد عاصر ثلاثة من أمراء الأندلس : الحكم الربضى ، وابنه عبد الرحمن الأوسط ، وحفيده محمد بن عبد الرحمن (١٨٠ — ٢٧٣ هـ) واتصل بهم جميعاً وحسنت مكانته عندهم .

وفى هذا العصر اشتد إقبال المسلمين على علوم اليونان إلى درجة لم تعهد من قبل ولا من بعد ، فنقلت إلى اللغة العربية أمهات كتب الأغريق والسكندريين فى الفلسفة والطب والرياضيات والطبيعيات . وناصر الخلفاء والملوك وأعيان المسلمين هذه الحركة العظيمة أيما مناصرة ، وكان الخليفة المأمون زعيم أنصارها بالمشرق ، كما كان الأمير محمد بن عبد الرحمن زعيمهم بالأندلس .

وإذا فقد نشأ أبو القاسم عباس بن فرناس فى جو مشبع بالروح الأغريقى ، وكان على حظ من صفاء الذهن ، ودقة الملاحظة ، وحب البحث العلمى ، والتوفر عليه دون سواه ، فلم يلبث أن هضم ما وصل إلى يده من تآليف الأغريق على كثرته ، واستطاع فى قليل من الزمن أن يرد ما هضم اختراعات وابتداعات تشرف عالم العصر الحديث فضلا عن العصر الوسيط .

ويعد المؤرخون لعباس بن فرناس أموراً فى العلم كان أولا فيها ، وأموراً لم يسبق إليها فى الأندلس على أقل تقدير . من ذلك أنه أول من فهم كتاب العروض للخليل بن أحمد وحل رموزه ، وعنه أخذه الناس فى الأندلس . قالوا : « أدخل بعض التجار كتاب « المثال » فى العروض للخليل ، فصار إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، ولم يبن عليه ولا على أصحابه ولا فهموه ، وصار الكتاب مطروحاً فى داخل القصر يتلهى به الجوارى ، حتى إن بعضاً ليقول لبعض : صير الله عقلك كعقل هذا الذى ملأ كتابه من مفاعيلن ، مفاعيلن ؛ وبلغ خبره ابن فرناس ، فكتب إلى الأمير يسأله إخراج الكتاب إليه ، ففعل . ونظر فيه بحذقه فانفتح عليه وأدرك علم العروض منه ، وقال بفضل نظره إن هذا الكتاب يدل على أن ما قبله يفسره . فأرسل الأمير عبد الرحمن إلى المشرق يطلب تمامه فجىء إليه بكتاب « الفرش » فاستكمل به عباس نظره وفتحه على الناس ، وكان أول من

أخذ عنه علم العروض فى الأندلس . ووصله الأمير عبد الرحمن على ذلك بثلاثمائة دينار وكساه .

وقالوا إنه أول من فك الموسيقى بالأندلس . ولا شك أن المراد بذلك أنه اهتدى إلى حل رموز كتاب يونانى قديم فى الموسيقى ، على نحو ما صنع بكتاب العروض الآنف الذكر .

* * *

على أن مكانة عباس بن فرناس العلمية إنما تقوم على تمكنه من علوم الحكمة الرياضية والطبيعية . والحكمة الرياضية تشمل عندهم علم العدد ، والهندسة ، والهيئة ؛ ومن أدلة براعته فى هذه العلوم أنه صنع فى بيته كهيئة السماء ، ركبها على منهاج الحكمة ، ومثل فيها أفلاكها ، وأقام فيها آلات تخيل إلى الناظر فيها أنها نجوم وغيوم ، وبروق ورعود ، وأراها كثيراً من عيون الناس مفتخراً عليهم بحكمته ؛ فذاع ذكرها فى الناس وكثر حديثهم عنها ، من بين مطر له مثن عليه ، أو مزدر لعمله مستهزئ به .

وطلب إليه الأمير عبد الرحمن عمل آلة لرصد حركات الكواكب والنجوم تسمى عندهم «ذات الحلق» . ويقول أستاذنا العلامة المرحوم كرلونلينو : إن هذه الآلة مذكورة فى كتاب المجسطى لبطليموس وفى كتاب ألفه برقلوس اليونانى أحد علماء القرن الخامس الميلادى ، وإنها تشتمل على سبع حلقات معدنية متحركة متداخلة ، ويقاس بها ما يقاس بالأسطرلاب المسطح ، وأنها تسمى بالفرنسية sphére armillaire . وقد عملها عباس بن فرناس ورفعها للأمير عبد الرحمن ، وبعث معها بهذه الأبيات :

قد تم ما حملتنى من آلة ... أعيا الفلاسفة الجهابذ دونى
لو كان بطليموس ألهم صنعه ... لم يشتغل بجداول القانون
فإذا رأته الشمس فى آفاقها ... بعثت إليه بنورها الموزون
ومنازل القمر التى حجبت معاً ... دون العيون بكل طالع حين
يبدون فيه بالنهار ، كما بدت ... بالليل فى ظلماتهن الجون

وكلفه الأمير محمد عمل آلة لمعرفة الأوقات ، فعمل له آلة تعرف بها الأوقات بالليل والنهار بغير رسم ولا مثال ، وتسمى « المنقالة » ، ورفعها إليه وقد نقش عليها هذه الأبيات على لسان حال تلك الآلة :

ألا إنني للدين خير أداة إذا غاب عنكم وقت كل صلاة
ولم تر شمس بالنهار ولم تبن كواكب ليل حالك الظلمات
بيمن إمام المسلمين محمد تجلت بى الأوقات للصلوات

وكما اشتغل عباس بن فرناس بعلوم الحكمة الرياضية فكذلك اشتغل بعلوم الحكمة الطبيعية . فهو أول من استخرج الزجاج من الحجر بالأندلس . واشتغل بالكيمياء ، وكان على حد تعبيرهم صاحب « نيرانجيات » . والنيرانجيات لفظ فارسى الأصل ، وفسروها بأن الغرض منها تمزيج القوى التى فى جواهر العالم الأرضى لتحدث عنها قوة يصدر عنها فعل غريب .

ولكن لا شك فى أن أكبر مظهر لحكمة ابن فرناس وجراءته العلمية أنه حاول تطيير جثمانه فكان — إذا صح ذلك — أول طيار نعلمه فى التاريخ . قالوا إنه كسا نفسه بريش قشاعم النسور على سَرَق الحرير ، ومد لنفسه جناحين على وزن وتقدير قدره فتهيأ له أن استطار فى الجو من ناحية الرصافة بقرطبة ، واستقل فى الهواء ومكث فيه حتى وقع فى مكان مطاره على مسافة بعيدة . وقد تأذى بذلك مؤخره لأنه لم يحسن الاحتيال لوقوعه ، ولم يقدر أن الطائر إنما يقع على زمكانه أى ذنبه ، فسها عن ذلك ولم يتخذ لنفسه ذنباً . وقد أفزع من رأى طيرانه من أهل الصحراء ، فكثر حديثهم عما عاينوا منه ؛ من ذلك قول مؤمن ابن سعيد ، وكان مغرى بهجو ابن فرناس :

يَطُم على العنقاء فى طيرانها إذا ما كسا جثمانه ريش قشم

* * *

ولما كثرت أعاجيب ابن فرناس ، وتعددت ابتداعاته جرى له ما يجرى لكل مبتدع يفجأ الناس بما لم يألفوا ، فكان الخاصة يغمزونه ويرمونه بالحمق والسخف ؛ من ذلك قول مؤمن بن سعيد فى هيئة السماء التى أحدثها عباس فى داره :

قعدت تحت سماء لابن فرناس فخلت أن رحى دارت على رأسى
سماء أنوك سواها وحففها بجية ذات أنياب وأضراس
لها نجوم تنبى أن خالقها إذا نظرت إليها أحمق الناس

يمسى ويصبح من شغل بصنعتها نجىّ همٍّ وتفكير ووسواس
كان الجدير بأن يرق إليه بها راق فيدحو بها منه على الراس

وقد كان ابن فرناس كتب إليه مهازلا :

دن لسمانى يا خلق خالقها واستشعر الخوف من صواعقها

فرد عليه ابن سعيد بأبيات من نفس الوزن والروى أفحش فيها .

أما العامة فكان سخطها أشد وأذاها أبلغ . فقد رمته بالزندقة والسحر والكيمياء ، وطعنت فى دينه ؛ ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل كتب بعضهم وثيقة بزندقته ورفعها إلى قاضى الجماعة بقرطبة ، وشهد عليه بعضهم بأنه سمعه يقول مفاعيلن ، مفاعيلن ؛ كما شهد آخر بأنه رأى الدم يفور من قناة داره ليلة كذا ، إلى دعاوى من هذا القبيل . وكان القاضى رجلا حصيف العقل ، فنظر فيما اتهم به ابن فرناس نظرة تحقيق وتعقل ، واستشار فقهاء قرطبة فى الأمر ، فلم يجد بعد كل ذلك سبيلا إلى عقابه ، وأفلت ابن فرناس بجريعة الذقن كما يقولون .

ولعمرى إن العامة لمعذورة إذا هى نفرت من رجل عجيب جاء قبل أوانه بألف سنة من الزمان .

قاض فاضل (*)

هو أحمد بن بقى بن مخلد قاضى الجماعة بقرطبة على عهد أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) . كان أبوه بقى بن مخلد عالماً فاضلا ورعاً زاهداً . وهو أحد الذين عرض عليهم القضاء فأبوا قبوله تحرجاً ، وذلك أن أمير الأندلس المنذر بن محمد (٢٧٣ — ٢٧٥) أراد أن يوليه القضاء فأبى . فذهب إلى استكراهه فاعتذر اعتذاراً لطيفاً وقبل الأمير عذره وقد نشأ ابنه أحمد نشأة حسنة جميلة ، وعرف منذ حداثة سنه بالفضل ، ووسم بحب الخير . وكان أمير الأندلس عبد الله بن محمد (٢٧٥ — ٣٠٠) يشاوره ويأخذ برأيه مع أن سنه إذ ذاك لم تكن تزيد على خمس وعشرين سنة . فلما تولى أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر الخلافة ولاه صلاة الجماعة بقرطبة ، ثم ولاه بعد ذلك قضاء الجماعة بها وأقره على الصلاة ، وذلك فى سنة ٣١٤ هـ .

* * *

وكان منصب قاضى الجماعة بقرطبة أحد المناصب الثلاثة التى تعتبر أركان الحكم فى الأندلس على عهد بنى أمية ، وهى إمارة الثغر الأعلى بسرقسطة وإمارة الأسطول بالمرية وقضاء الجماعة بقرطبة . وربما كان قاضى الجماعة يأتى لمنزلته الدينية ومكانته الاجتماعية بعد الحاجب الذى كان عندهم بمنزلة رئيس الوزراء عندنا ؛ وكثيراً ما كانوا يلقبون قاضى الجماعة بالوزير القاضى تفخيما لشأنه وتعظيما لقدره . وكان اختصاصه عندهم يشمل النظر فى المواريث والوصايا والتحجير والأحباس وأموال اليتامى وقضايا الطلاق ، وقد تجمع له فوق ذلك إمامة الصلاة العامة ، وهى صلاة الجمعة والعيدين وصلاة الاستسقاء ، كما كان الإشراف على الحسبة داخلا فى اختصاصه . من أجل ذلك كانوا لا يسندون قضاء الجماعة إلا إلى كل من عرف بغزارة العلم والبراعة فى الفقه ، ووصف بالفضل والورع ونزاهة الضمير . ولعله لم يتول قضاء الجماعة بقرطبة رجل أجمع لتلك الخصال من أحمد بن بقى ، حتى ليمكن

(*) الثقافة : العدد ٢٦١ سنة ١٩٤٣ .

اعتباره المثل الصالح للقاضى الشرعى فى عصر ازدهار الدولة الإسلامية بالأندلس .

* * *

كان ذا معيشة سهلة ساذجة ، « إذا طرقه ضيف ليلا لم يذبح له شيئاً من الطير ، وقال الليل أمان لها ، ويقتصر على العسل والسمن والبيض وما شاكل ذلك فيقربه إلى الضيف » .

وكان متواضعاً ، سئل مرة عن نسبه وولائه فقال ولاؤنا لامرأة من أهل جيّان . وكان ولى عهد الدولة الحكم المستنصر يعجب من صدقه فى ذلك ويقول : لو شاء لادعى أشرف الأنساب ثم لا يجد فى ذلك مكذبا .

وكان رءوف القلب ، رفيق العقوبة إذا عاقب . جاءته مرة امرأة تخاصم زوجها فجعلت تستطيل على زوجها بلسانها وتؤذيه بصلفها ، فنظر إليها ابن بقى وقال لها : أقصرى ! وإلا عاقبتك ! فانكسرت المرأة شيئاً ثم عاودت الصلف ، فقال لها القاضى مرة أخرى : أقصرى ! وإلا عاقبتك ! فانكسرت شيئاً ثم عاودت الصلف . عند ذلك عطف عليها أحمد بن بقى فجعل يقول لها : أنت ظالمة ! أنت ظالمة ! أنت ظالمة ! ثم قال : ألم أخوفك من قبل هذا ؟ ولم تزد عقوبته المرأة على ذلك .

وكان كثيراً ما يدرأ الحدود الشرعية بالشبهات يتعمدها سياسة منه للعامة ورفقاً منه بها . قالوا أتاه المحتسب مرة برجل به رائحة الشراب ، فقال القاضى لكاتبه : استنكهه ! ففعل ، فقال : نعم ! عليه رائحة الشراب . فظهر بوجهه الكراهية لذلك ، ثم قال لآخر ممن كان حاضراً مجلسه : استنكهه أنت ! ففعل ، فقال : أجد رائحة ولا أدرى إن كانت رائحة مسكر أم لا ؟ فتهلل وجه القاضى وأمر بتخلية سبيله .

* * *

ومع أنه كان رءوف القلب رفيق العقوبة يرى الرفق والتجاوز فى كثير من المواطن أبلغ من العنف والمؤاخذة ، فإنه كان فى صميم واجبه القضائى مثال الدقة والدأب والاستقصاء . كان لا يوقع شهادته فى وثيقة حتى يقرأها من أولها إلى آخرها . من ذلك أن صديقاً له أرسل إليه مرة بوثيقة كتبها على رجل بمال ليشهده عليها . وقد ذكر فى الوثيقة سبباً يجعلها واهنة . فلما قرأها ابن بقى وتبين له ما فيها من الوهن كره ألا يوقع عليها فيسخط

صديقه ، وكره أن ينبه المشهود عليه إلى وهنها . فأطرق ملياً ثم رفع رأسه وقال للمشهود عليه : أتشهدنى على أن لفلان عندك كذا وكذا مثقالا إلى أجل كذا وكذا ؟ قال نعم ! فعقد شهادته على هذا اللفظ بعينه لا غير .

وكان جم العناية بأمر الوثائق خاصة ، شديد التعقب عليها . وكانت الوثائق يحررها رجل اسمه محمد بن إبراهيم بن الحباب كثير الزهو والاعتداد بعمله ، فغاظه تعقب القاضى عليه وقال : من أين يتعاطى ابن بقى أنه أعلم بالوثائق منى ؟ وبلغ قوله القاضى . فانتهز فرصة عرضه عليه وثائق ، واستفرغ جهده فى التعقب عليها حتى أخذ مواضع أبانها له وأمره بتغييرها ، فغيرها وأتاه بها . فانتقد عليه فيها مرة أخرى . فأرسل إليه ابن الحباب يقول : إنى أقر لك أنك أعلم بها منى وأشهد بذلك ، فدعنى من كثرة هذا البحث والكشف وإلا حلفت ألا أكتب وثيقة ؛ فتركه ابن بقى بعد ذلك وسامحه .

* * *

وكان من عادة ابن بقى فيما يتخاصم عنده فيه أن ينفذ الظاهر البين ، ويستعمل الأناة والتؤدة فيما التبس عليه منه ، حتى تظهر له الحقيقة أو يصير المتخاصمان إلى التصالح والتراضى . وربما جر ذلك التمسك والتمهل فى القضايا المشتبهة إلى تأخير الأحكام زمناً طويلا قد يضجر الخصوم . وقد عيب عليه ذلك فى حضرة الخليفة الناصر وبما عرف به من لين الجانب ، فقال : أعوذ بالله من لين يؤدى إلى ضعف ، ومن شدة تبلغ إلى عنف ؛ ثم جعل يذكر فساد الزمان واحتيال الفجار ، وما يحدث من الأمور المشتبهة التى لا تتبين له حقيقتها ولا يكشف له وجهها ، ثم قال : قد اشتبه على عمر بن الخطاب رضى الله خصومة قوم طال نظره فيها ، فكره أن يحكم مع الاشتباه فأمرهم بابتداء الخصومة من أولها .

ومما يصدق مذهبه هذا فى التوقف عند الشبهات أنه رفعت إليه خصومة وقعت بين الحاجب محمد بن موسى — والحاجب عندهم كما قدمنا بمنزلة رئيس الوزراء عندنا — وبين رجل اسمه يحيى بن إسحق . وكانت شهادة الشهود فى مصلحة الحاجب . ولكن القاضي اصطنع الأناة ولم يعجل الحكم لشبهة وقعت فى نفسه . فأرسل إليه الحاجب يقول : « قد عرفت محبتى لك ، وشحى بجميع أسبابك ، وقد دار عندك على يحيى بن إسحق

ما قد علمت من المخاصمة ، وقد شهدت عليه عندك البينة المدول ، وتأنيت عن الحكم عليه » .
فقال القاضى للرسول : « تبلغ الحاجب عنى السلام وتقول له : إن محبتنا كانت لله ولوجهه ، ويحيى بن إسحق وغيره فى الحق سواء ، وقد دخل على ارتياب ، ولا والله ما أحكم على يحيى ابن إسحق بشىء حتى يتضح عندى أمره بنور كاتضاح الشمس فى الدنيا ، فإنه لا يجيرنى أحد من يحيى بن إسحق إن جافانى الخصومة بين يدى الله » . فأدى الرسول هذه المقالة للحاجب وهو ساكت لا يقول شيئاً . وجعل بعض من حضر من الوزراء يقع فى القاضى ويبدى ويعيد فى ذلك . فتحول الحاجب إليه أخيراً وقال له : « يا أخى ! القاضى والله رجل صالح ، ولا نزال بخير ما كان هو وشبهه بين أظهرنا .
والله ما زاده فعله عندى إلا محبة واعتقاداً » .

* * *

قالوا : وكان أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر يثق به ويجله ويعرف حقه ولم يعزله عن القضاء حتى توفى سنة ٣٢٤ عن أربع وستين سنة .

بين خليفة وقاض (*)

أما الخليفة فهو أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر لدين الله الذى استوى على عرش الأندلس خمسين سنة (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) تعد بحق أزهى عصور الأندلس، ومن أمجد العصور الإسلامية على الإطلاق. تولى والأندلس على أسوأ حال: شمل ممزق، وفتن ضاربة أطنابها، وعدو يتحفز لينقضّ عليها من فوقها ومن أسفل منها. فما زال بالفتن حتى قطع دابرها، وبالأعداء يجاهدهم تارة بنفسه، وأخرى بأبرع قواده، حتى خضد شوكتهم، وكسر شرتهم، وأنزلهم على حكمه.

ولما رأى التياث أمر الخلافة العباسية بالمشرق، واستفحال أمر العبيديين بالمغرب، استقر فى نفسه أنه أحق بلقب الخلافة من العباسيين والعبيديين جميعاً، لأنه أجمع منهم لشروطها فأعلن خلافته فى سنة ٣١٦ هـ وبايعه الشعب بالخلافة طائعاً راضياً. ثم إنه رفع للعلم والحضارة بالأندلس مناراً عالياً. وعنى بالبنيان والعمارة فشيد مدينة الزهراء التى كانت تضرب بروعتها الأمثال. وطار صيته فى الخافقين وازدلفت إليه ملوك أوربا، وقدمت عليه وفودهم طالبة موادعته وموادته، فكان بحق أوحد ملوك العالم فى عصره.

* * *

وأما القاضى، فهو أبو الحكم منذر بن سعيد البلُّوطى، أصله من فحص البلوط فى شمالى قرطبة، ولد فى العقد الثامن من القرن الثالث الهجرى، ونشأ وتفقه بالأندلس على عبيد الله ابن يحيى بن يحيى الليثى وأمثاله، ثم رحل إلى المشرق حاجا وطالباً للرواية، على عادة كثير من علماء الأندلس فى ذلك الزمان، واجتمع فى رحلته بجمهرة من علماء المشرق، وظهر فضله هناك. وممن سمع عليهم بمكة: محمد بن المنذر النيسابورى، سمع عليه كتابه المؤلف فى اختلاف العلماء، المسمى «بالأشراف»، كما روى بمصر كتاب «العين» للخليل عن أبى العباس بن ولاد، والشعر القديم عن أبى جعفر بن النحاس. ثم عاد إلى وطنه، وقد

(*) مجلة الأزهر، المجلد الثالث والعشرون ٢٥ مايو سنة ١٩٥٢.

استحكمت سنه وكملت تجاربه وتمت ثقافته ، وأصبح معدوداً فى كبار فقهاء الأندلس وثقافتها فى العلم ، وقد صنف كتباً فى علوم الفقه والكلام والتفسير ، وكان يغلب عليه التفقه بمذهب داود الظاهرى ، ويأخذ به نفسه وذويه ، فلما تولى القضاء كما سيجيىء ، كان لا يقضى إلا بمذهب مالك ، لأنه المذهب الذى كان عليه العمل بالأندلس ، على أنه كان مع ذلك واسع الأفق فى مسائل الفقه ، ميالا إلى الاجتهاد ، غير ملتزم للتقليد ، يشير إلى ذلك قوله :

عذيرىَ من قوم إذا ما سألتهم دليلا أجابوا : هكذا قال مالك

فإن زدت قالوا : قال سحنون مثله وقد كان لا تخفى عليه المسالك

فإن قلتُ : قال الله ، ضجوا وأعولوا علىّ وقالوا : أنت خصم مماحك

وكما كان منذر فقيهاً متبحراً فى الفقه ، كان خطيباً مفوّهاً وواعظاً جهير الصوت بليغ العبارة . قريب الدمعة ، حسن الترتيل ، قوى التأثير فى سامعيه ، وكان فوق ذلك شاعراً ، وشعره من قبيل شعر العلماء ، وقد أورد المقرى فى كتابه نفح الطيب ، مساجلات شعرية جرت بينه وبين أبى على القالى وغيره من الأدباء . وكانت فيه مع جده وورعه ، دعابة ربما انخدع بها من لا يعرف باطنه ، فإذا أراد النيل من دينه تكشف له عن أسد ورد لا يرام حماه .

* * *

والظاهر أن منذر بن سعيد كان يحيا فى قرطبة حتى سنة ٣٣٩ حياة فقيه يدرس العلم ويصنف الكتب ويساجل العلماء والأدباء ، دون أن يلى للسلطان عملا ، مع فضله وتقدم سنه . لذلك لم يكن الناصر يعرفه شخصياً على نحو ما يعرف السلطان كبار رجال دولته . اللهم إلا أن يدعى فى زمرة الفقهاء إلى الحفلات الرسمية ، التى كثيراً ما كانت تعقد فى البلاط على عهد الناصر . ثم عرضت ظروف نبهت الخليفة إلى مكانة منذر وفضله وخطره ، ورفعته فى طرفة عين إلى مكان الصدارة من رجال الدولة . ففى عام ٣٣٩ قدم قرطبة وفد عاهل القسطنطينية ، يحمل إلى الناصر تحفاً وهدايا ، ويرغب فى توثيق أواصر الود والصداقة بين الناصر والعاهل البيزنطى . وقد أراد الخليفة أن يستقبل هذا الوفد فى بعض مجالس الزهراء أفخم استقبال وأعظمه . وقد أتى المقرى فى كتاب « نفح الطيب » على وصف

ذلك الحفل بالتفصيل . قال : «وتقدم الناصر إلى الأمير الحكم ابنه وولى عهده بإعداد من يقوم من الخطباء ويقدمه أمام إنشاد الشعراء ، فتقدم الحكم إلى أبى على القالى البغدادى ، ضيف الخليفة وأمير الكلام ، وبحر اللغة ، أن يقوم ، فقام وحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم انقطع وبهت ، فما وصل إلا قطع ، ووقف ساكتاً مفكراً ، فلما رأى ذلك منذر بن سعيد ، وكان ممن حضر فى زمرة الفقهاء ، قام بدرجة من مرقاة أبى على ووصل افتتاحه بكلام عجيب ، بهر العقول جزالة ، وملأ الأسماع جلالة . وخرج الناس يتحدثون عن حسن مقامه ، وثبات جنانه ، وبلاغة لسانه ، وكان الناصر أشدهم تعجباً منه . وأقبل على ابنه الحكم فسأله عنه ، ولم يكن يثبت معرفته ، فقال له : هذا منذر بن سعيد البلوطى ، فقال والله لقد أحسن ما شاء . وأراد الخليفة مكافأته والانتفاع بمواهبه ، فولاه الصلاة والخطابة فى المسجد الجامع بمدينة الزهراء . ثم حدث بعد قليل من الزمن أن توفى قاضى الجماعة بقرطبة ، فولى الخليفة منذرا قضاء الجماعة بقرطبة ، وأقره على الصلاة بالزهراء .

* * *

وهكذا نشأت الصلة بين الخليفة الناصر لدين الله وبين القاضى منذر بن سعيد . نشأت من مناسبة عارضة أعجب فيها الخليفة بالقاضى والقاضى بالخليفة . غير أنه سرعان ما وقعت الوحشة بين الخليفة وقاضيه ، وذلك لاختلاف وجهة نظر كلٍّ إلى الأمور .

أما الخليفة فكان ينظر إليها نظرة ملك عظيم ربما جانبه الصواب فى تصرفاته على غير قصد منه ، ولكنه يحب مع ذلك أن يعرف له حقه من التبجيل والتكريم ، أما القاضى فكان يرى أن واجبه يحتم عليه أن يجرى فى تصرفاته على أساس العدالة المطلقة ، مهما علا مكان المتقاضى إليه ولو كان الخليفة نفسه .

قالوا إن الناصر احتاج إلى شراء دار فى قرطبة لإحدى نسائه ، فوقع استحسانه على دار واسعة ذات مستغلات وافرة ، وكانت لأيتام فى حَجْر القاضى . فأرسل الخليفة من قوّمها بقدر ما طابت نفسه ، وأرسل ناساً أمرهم بمداخلة وصى الأيتام فى بيعها عليهم ، فذكر أنه لا يجوز البيع إلا بأمر القاضى منذر ، فأرسل الخليفة إلى القاضى فى بيع هذه الدار فقال لرسوله : البيع على الأيتام لا يصح إلا لوجوه : منها الحاجة ، ومنها الوهى الشديد ، ومنها

الغبطة ، فأما الحاجة فلا حاجة بهذه الأيتام إلى البيع ، وأما الوهى فليس فيها ، وأما الغبطة فهذا مكانها . فإن أعطاهم أمير المؤمنين ما تستبين به الغبطة أمرت وصيهم بالبيع و إلا فلا . فنقل جوابه إلى الخليفة ، فأظهر الزهد فى شراء الدار طمعاً فى أن يغير القاضى رأيه . ولكن القاضى لم يغير رأيه ، ثم إنه خاف أن تنبعث من الخليفة عزيمة تلحق بالأيتام ضرراً ، فأمر وصى الأيتام بنقض الدار و بيع أنقاضها ، ففعل ، فكانت قيمة الأنقاض أكثر مما قومت به للسلطان . عند ذلك أرسل الخليفة إلى القاضى منذر يسأله عما دعاه إلى نقض الدار ؟ قال أخذت فيها بقوله تعالى « أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر ، فأردت أن أعيبها ، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » مقوموها لم يقوموها إلا بكذا ، وقد قبض فى أنقاضها أكثر من ذلك . و بقيت القاعة والحمام ، ونظر الله للأيتام ، فلم يسع الخليفة إلا أن يقر القاضى على ما عمله ، وقال : « نحن أولى من انقاد إلى الحق ، فجزاك الله عنا وعن أمانتك خيراً » .

* * *

وهكذا أذن الخليفة للحادث أن يمر بسلام ، وإن كان أبقى فى نفسه شيئاً من الموجدة على القاضى الذى تحداه على هذا النحو الذى لم يعهده . ثم سرعان ما وقع حادث آخر كان أشد من الحادث الأول وأدهى . لقد كان الناصر بطبعه ميالا إلى العمارة ، مشغوفاً بتشييد البنيان يرى أن ذلك من أبهة الملك والدليل الباقى على فخامة الدولة ، وينسبون إليه أنه القائل :

هم الملوك إذا أرادوا ذكرها من بعدهم فبألسن البنيان
أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم ملك محته حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاظم شأنه أضحى يدل على عظيم الشأن

ولقد أقبل على عمارة الزهراء أيما إقبال ، وأنفق من أموال الدولة فى تشييدها وزخرفتها ما أنفق ، وهى لا تعدو فى حقيقة أمرها أن تكون مجموعة من القصور الفاخرة مخصصة لنزله وسكنى خدمه وحشمه وحرسه ، وكان ربما أشرف بنفسه على شئون البناء والزخرفة حتى شغله ذلك ذات مرة عن شهود صلاة الجمعة ثلاث جمع متواليات . فاشتد ذلك على خطيب المسجد الجامع بالزهراء و إمام الصلاة فيه ، ورأى خروجاً من تبعة التقصير فيما أوجب

الله على العلماء من تنبيه الغافل وتذكير الناسى ، أن يأتى على الخليفة درساً قد يكون ثقيلا على نفسه ، ولكن فيه شفاء له من علة الإسراف ، ورد إلى طريق الصواب . ورأى أن يكون ذلك على ملأ من الناس وفى المسجد الجامع بالزهراء نفسها . وعلم أن الخليفة سيشهد صلاة الجمعة بعد طول انقطاعة عن شهودها ، فأعد خطبة قوية ضمنها كل ما كانت تجيش به نفسه من المعانى . فلما كان يوم الجمعة وحضر وقت الصلاة اعتلى المنبر ، والخليفة حاضر والمسجد غاص بالمصلين ، فابتدأ فى أول خطبته بقوله تعالى « أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون » إلى قوله « قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين » ثم مضى فى ذم تشييد البنيان ، والاستغراق فى زخرفته ، والإسراف فى الإنفاق عليه ، بكل كلام جزل ، وقول فصل ، تلا قوله تعالى « أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم ، والله لا يهدى القوم الظالمين » وراح يخوف من الموت ويحذر من فجاءته ويدعو إلى الزهد فى هذه الدار الفانية ، ويحض على الإعراض عنها ، ونهى النفس عن اتباع الهوى ، فأسهب فى ذلك كله وأضاف إليه من آى القرآن ما يطابقه ، وجلب من الحديث والأثر ما يشاكله ، حتى ادكر من حضر من الناس وخشعوا ورقوا وبكوا وضجوا ودعوا ... وأخذ الخليفة من ذلك بأوفر حظ ، وقد علم أنه المقصود به ، فبكى وندم على تفريطه .

غير أن الخليفة وجد على منذر لغلظ ما قرعه به فشكا ذلك لولده وولى عهده الحكم بعد انتهاء الصلاة وانصراف الخطيب ، وقال : والله لقد تعمدنى منذر بخطبته ، وما عنى بها غيرى فأسرف على ، وأفرط فى تقريعى وتأنيبى ولم يحسن السياسة فى وعظى ، فزعزع قلبى ، وكاد بعصاه يقرعنى ، ثم استشاط غيظاً عليه ، فأقسم أن لا يصلى خلفه صلاة الجمعة خاصة ، فجعل يلتزم صلاتها خلف صاحب الصلاة بقرطبة ويجانب الصلاة بالزهراء .

هذه كل العقوبة التى نال بها الخليفة الخطيب الذى تجاوز الحد فى وعظه وإرشاده . ولقد قال له الحكم : فما الذى يمنعك من عزل منذر عن الصلاة بك واتخاذ غيره مكانه ؟ ولكن الخليفة زجره وقال له « أمثل منذر بن سعيد فى فضله وخيره وعلمه ، يعزل لأرضاء نفس ناكبة عن الرشد ، سالكة غير القصد ؟ هذا ما لا يكون . . . بل يصلى بالناس حياته وحياتنا إن شاء الله ، فما أظننا نعتاض منه أبداً » .

ثم إن الجفوة تأكدت واشتدت بين الخليفة والقاضى ، وود ولى العهد لو أزالها أو خفف من حدتها ، فقيل إنه اعتذر إلى الخليفة عما قال منذر وقال يا أمير المؤمنين : إنه رجل صالح وما أراد إلا خيراً ، ولو رأى ما أنفقت وحسن تلك البنية ، لعذرك ، ويريد بالبنية هنا القبة التى بناها الناصر بالزهراء واتخذ قراميدها من فضة . و بعضها مغشى بالذهب ، وجعل سقفها نوعين : صفراء فاقعة إلى بيضاء ناصعة ، يستلب الأبصار شعاعها . فلما قال له الحكم ذلك ، أمر ففرشت بفرش الديباج . وجلس فيها لأهل مملكته . ثم قال لقرابته ووزرائه : أرأيتم أم سمعتم ملكا كان قبلى صنع مثل ما صنعت ؟ فقالوا لا والله يا أمير المؤمنين ! ، وإنك لأوحد فى شأنك ! فبينما هم على ذلك ، إذ دخل منذر بن سعيد واجماً نا كساً رأسه ، فلما أخذ مجلسه قال له ما قال لقرابته ، فأقبلت دموع القاضى تنحدر على لحيته وقال : والله ! يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان يبلغ منك هذا المبلغ ، ولا أن تمكنه من قيادتك هذا التمكن ، مع ما آتاك الله تعالى وفضلك به على المسلمين ، حتى ينزلك منازل الكافرين ! فاقشعر الخليفة من قوله ، وقال له انظر ما تقول ! كيف أنزلنى منازلهم ؟ قال : نعم ! أليس الله تعالى يقول « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون » : الآيات . فوجم الخليفة ، ونكس رأسه ملياً وجعلت دموعه تنحدر على لحيته ، ثم أقبل على منذر وقال له : « جزاك الله عنا وعن الدين خيراً فالذى قلت هو الحق » ثم قام من مجلسه وأمر بنقض سقف القبة وأعاد قرمدها ترابا على صفة غيرها .

وهكذا أقر الخليفة للقاضى بأنه على الحق فيما قال . وزال ما كان فى نفسه من الموجدة عليه .

ولكن بقى أن يرضى القاضى عن الخليفة . ولم يكن ذلك بعيداً . فقد قحطت الأندلس فى آخر مدة الناصر (سنة ٣٥٠ هـ) فأمر منذراً بالخروج للاستسقاء ، فخرج ، واجتمع له الناس فى مصلى الربض ، وصعد الخليفة فى أعلى مصانعه المرتفعة ليشارك الناس فى الخروج إلى الله . وأبطأ القاضى حتى اجتمع الناس ، ثم خرج نحوهم ماشياً متضرعاً مخبتاً ، وقام ليخطب . فلما رأى خشوع الجمع وإخباتهم رقت نفسه وغلبته عيناه ، فبكى حيناً ، ثم

افتتح خطبته فقال : « يا أيها الناس : سلام عليكم ! » ثم سكت ووقف شبه الحصر ، ولم يكن من عادته ، ونظر الناس بعضهم إلى بعض ، لا يدرون ما عراه ، ثم اندفع فى خطبته ، فهز القلوب ، وأبكى العيون ، وكان الخليفة أشد الحضور وجلا وخشوعا ، وأغزرهم بكاء وأحرهم دعاء ، فلما رأى القاضى منه ذلك تهلل وجهه وقال : « قد أذن الله بالسقيا . إذا خشع جبار الأرض ، فقد رحم جبار السماء » قالوا وكان كما قال ، فلم ينصرف الناس إلا عن السقيا .

وتوفى الخليفة الناصر فى سنة ٣٥٠ أما القاضى منذر فكانت وفاته فى سنة ٣٥٥ فى خلافة الحكم المستنصر . وقد ظل حتى وفاته على قضاء الجماعة بقرطبة والخطابة والصلاة بجامع الزهراء ، كما رسم الناصر .

وإن الإنسان لا يدرى بأى هاتين الشخصيتين هو أشد إعجاباً ؛ أبالخليفة فى نبله ، وسعة احتماله ، و إذعانه للحق عند وضوحه ، أم بالقاضى فى عدالته ، وصراحته ، وشجاعته وشدة إخلاصه لدينه وواجبه . ألا حيا الله تلك النفوس الكبار فعلى مثلها تصلح الدول وتستقيم أمور الناس ؟

١ - الناحيــــة التاريخية

من شعر ابن هانئ الأندلسي (*)

لقد وجد كثير من كبار الشعراء على مختلف العصور فى الحوادث العامة المعاصرة لهم أو السابقة عليهم مادة لقرائحهم ، ومسرحاً لخيالهم ، فاتخذوا منها موضوعات بنوا عليها قصائدهم ومسرحياتهم . فعل ذلك هوميروس فى إلياذته ، وشكسبير فى مسرحياته ، والمتنبى فى سيفياته ، وشوقى فى اجتماعياته وسياسياته . فهل للمؤرخ أن يعد شعر هؤلاء الشعراء مصدراً من مصادر التعريف بهذه الحوادث ؟ وإذا جاز له ذلك ، فإلى أى مدى يكون اعتماده على الشعر فى تاريخ الحوداث المذكورة وتصويرها ؟ إن الأمر ليس سهلا كما يتبادر إلى الذهن لأول وهلة ، فالشاعر ينظر إلى الأشياء بعين الخيال دائماً ، وهو بحكم فنه الرفيع ذاتى فى تناوله الحوادث ، فهو يزنها ويحكم لها أو عليها تبعاً لما تبعث فى نفسه من عاطفة وتثير من إحساس . أما المؤرخ فبحكم صناعته واقعى النظر إلى الحوادث ، يصورها كما هى فى الواقع ، أو كما يعتقد أنه حالها فى الواقع على أقل تقدير ؛ وينبغى أن يضبط عاطفته جهد طاقته ، فلا يجعل لها على قلمه سلطاناً ، وأن يتقيد بالواقع كل التقيد ، يسبح فى محيطه مهما يكن كثيفاً ؛ فإن حلق فوقه فلكى يتمكن من رؤيته والإحاطة به لا أكثر ولا أقل .

وإذاً فبين الشاعر المؤرخ والمؤرخ المختص تباين شديد على ما يظهر . ولكن يظهر أن التباين بينهما ليس تاماً ، فهناك أساس مشترك بينهما ، هو الواقع والحقيقة ؛ كلا الشاعر والمؤرخ فى مرد أمره يرجع إلى الواقع ويغترف من بحره . وليس الاختلاف بينهما إلا اختلافاً بين أسلوبيهما فى التعبير عن الحقيقة والواقع . فالمؤرخ يقصد إلى الحوادث قصداً مباشراً ، ويعنى بمادتها وجسمها ، إذا صح هذا التعبير ، فهو يوقتها ويعللها ، ويرد بعضها إلى بعض ، جاعلا الصدق فى كل ذلك شعاره ومبدأه ، متحاشياً الخطأ فى القياس أو الاستنباط . أما الشاعر فلا يقصد إلى الحوادث قصداً مباشراً ، وإنما يتناولها من بعيد جداً ، يتناولها مصعدة مقطرة متبلورة ، إن صح هذا التعبير . يتناولها من حيث تأثيرها فى نفسه ؛ ومبلغ

(*) الثقافة العدد ٦٠ سنة ١٩٤٠ .

تأثر نفس الشاعر بحادث ما واهتياجه له رهن بمقدار تأثر البيئة التى يعيش فيها بهذا الحادث واهتياجها له . فالشاعر يسجل أثر الحوادث فى المحيط الذى يعيش فيه . والشاعر الحق هو الذى يعد ترجماناً صادقاً لإحساسات البيئة التى وجد فيها . ولنمثل لذلك بشعر أبى الطيب المتنبى فالمتنبى يمجد سيف الدولة فى قصائده السيفيات ؛ ولعله فى قرارة نفسه يعتقد أن سيف الدولة من حيث رقعة ملكه وسعة موارده ، لا يزيد على أن يكون أميراً إقطاعياً من أمراء الدولة الإسلامية المترامية الأطراف ، وقد يكون أقل شأناً وخطراً من أمراء بنى بويه شرقاً ، وخلفاء الأندلس غرباً . وهو لا شك يعلم أن فى سيف الدولة عيوباً لا تشق رؤيتها على مثله؛ ولكنه مع ذلك يغض النظر عن عيوبه ويضفى على سيف الدولة حللا منشرة من مدائحه . ذلك بأنه إنما أراد أن يصور رأى الناس لعهده فى هذا البطل وفى وقائعه مع الروم دفاعاً عن الثغور الإسلامية ؛ فى حين أن هذا البطل وهذه الوقائع ليست فى نظر المؤرخ المدقق شيئاً كبيراً بالقياس إلى أبطال المسلمين الذين جاهدوا الروم قبل سيف الدولة وبعده ، ولا إلى الوقائع العظيمة التى جرت بينهم وبين قياصرة بيزنطة . وناحية أخرى من شعر المتنبى ، ذلك أنه يمدح الأفراد ويهمل الجماعات أو يذمها أبرح الذم ، يمدح سيف الدولة ويهمل أهل الشام ، ويمدح كافورا الإخشيدى ويذم المصريين ، حتى ليكاد يلحقهم بالسوام المهملة . ولقد كنا نقرأ كل ذلك فنهز رءوسنا ونقول شاعر يريد الافتنان والإغراب . ولكن الحقيقة أن المتنبى لم يرد افتناناً ولا إغراباً ، وإنما هو من حيث يريد أو لا يريد ، يصور ما لحق نفوس المسلمين عامة وأهل الشرق الأدنى خاصة من ضعف وفتور ، انتهى بأن طمع فيهم الروم أولا والصليبيون أخيراً ، فغزوهم فى عقر دارهم ، وتغلبوا على حوزتهم حقبة طويلة من الزمان . فهل يقال بعد ذلك إن شعر المتنبى لا يجدى على المؤرخ لأنه شاعر كثير الذهاب مع الخيال ؟ كلا ثم كلا ! فالمتنبى بأسلوبه الشعرى الخاص قد سد نقصاً فى كتب التاريخ ، ولا غنى للمؤرخ الحديث عن ديوانه عند ما يؤرخ الشرق الأدنى فى القرن الرابع الهجرى .

وما يقال عن المتنبى يمكن أن يقال عن كل شاعر آخر كبير تصدى لتسجيل الحوادث العامة فى شعره . على أنه ليس كل شاعر يستطيع أن يتناول الحوادث على نحو ما تناولها المتنبى أو شكسبير ، فالقدرة على تصفية الحوادث وتقطيرها وبلورتها لم توهب إلا لعباقرة الشعراء وفحولهم فحسب .

ونحن نعتقد أن من هؤلاء أبا القاسم بن هانئ الأندلسى . وقبل أن نفصل القول فى ذلك نعرف القارئ بهذا الشاعر تعريفاً موجزاً .

***

هو أبو القاسم محمد بن هانىء الأزدى الأندلسى ، يقال إنه من ولد المهلب بن أبى صفرة القائد الأموى المشهور ، ولقب بالأندلسى للتفرقة بينه و بين ابن هانىء الحكمى الذى هو أبو نواس . كان أبوه هانىء من قرية من قرى المهدية بأفريقية ، وكان شاعراً أديباً ، ثم انتقل إلى الأندلس ونزل البيرة وقيل قرطبة ، وولد له ابنه محمد صاحب الترجمة بأحد هذين البلدين سنة ٣٢٠ أو سنة ٣٢٦ على خلاف فى ذلك ، وإن كان التاريخ الأول هو الأرجح عندنا . ونشأ محمد بقرطبة وتعلم بها وحذق علوم عصره وخاصة اللغة والأدب والفلسفة ، ثم انتقل إلى إشبيلية ونزلها واتصل بصاحبها واختص به ؛ غير أنه سرعان ما نبت به إشبيلية والأندلس عامة ؛ ذلك بأن ابن هانىء عرف بحرية الفكر ، واتهم بمذهب الفلاسفة ، ورمى بالغلو فى التشيع ، هذا إلى استهتار ، وفساد فى السيرة ، واعوجاج فى الطريقة . وكانت الأندلس أيامئذ حديثة عهد بخلافة سنية جديدة ، أقامها الناصر ليعفى بها على الخلافة العباسية المضمحلة ، ويتحدى بها الخلافة الفاطمية الشيعية التى ظهرت فى شمال إفريقية ؛ وكانت الدولة الأندلسية فوق ذلك واقعة تحت نفوذ فقهاء المالكية ؛ فكانت الفلسفة والمشتغلون بها محل مقت الخاصة والعامة على السواء . ولقد بلغ من ذلك أن أحرقت كتب الفيلسوف الأندلسى ابن مسرة علناً فى شوارع قرطبة . من أجل ذلك اعتزم ابن هانىء الهجرة إلى عدوة المغرب حيث الدولة الفاطمية الجديدة ، وهى دولة قامت على دعاية باطنية واسعة النطاق ، تتسع لكل مفكر أياً كان اعتقاده ونوع تفكيره .

كانت إجازة ابن هانىء إلى عدوة المغرب فى السنة السابعة والعشرين من حياته ، أى فى سنة ٣٤٧ على تقدير من يقول إنه ولد سنة ٣٢٠ ، أو سنة ٣٥٣ على رأى من يجعل مولده سنة ٣٢٦ هـ ، وعلى كلا الأمرين لقى ابن هانىء جوهراً الصقلى ، إما فى حملته الحربية الأولى على المغرب الأقصى ، أو رحلته الثانية إليه بقصد تمهيد أموره قبل أن يسيره المعز إلى مصر لفتحها ؛ وقد مدح ابن هانىء جوهراً لأول التقائه به بقصيدة لم يجزه عليها القائد

الكبير إلا بمبلغ زهيد من المال لم يرض الشاعر ؛ وسأل عن رجل بالمغرب يكون أكرم منه ، فدل على جعفر بن على بن حمدون صاحب كورة الزاب بأفريقية ، فشد رحاله إليه ونزل عليه وعلى أخيه يحيى بن على ، ومدحهما بغرر قصائده ، فكافآه على ذلك بالأموال السنية ؛ وعلا صيته ، وأخمل شعراء المغرب لعهده على الإطلاق ثم نمى خبره إلى الخليفة المعز لدين الله الفاطمى ، فاستهداه من جعفر فسيره إليه مع تحف وهدايا كان أبو القاسم أنفسها فى نظر الخليفة . وربما كان بدء اتصال ابن هانىء بالمعز حوالى سنة ٣٥٤ ، وانقطع ابن هانىء من ذلك الوقت حتى وفاته لمدح المعز وكبار رجال دولته ، وجعل يشيد بمجد الدولة الفاطمية ويهجو أعداءها . فلما أزمع المعز الانتقال إلى مصر سنة ٣٦١ بعد فتح جوهر لها خرج ابن هانىء لتشييعه ، قالوا ثم استأذنه فى العود إلى المغرب ليأخذ عياله ويلحق به ، فأذن له فى ذلك . وعاد ابن هانىء وتجهز ثم تبع الخليفة ، فلما كان ببرقة استضافه رجل من أهلها ، فنزل عليه فى رفاق ؛ فيقال إنهم عربدوا عليه فى مجلس أنس فقتلوه ، وقيل فى موته غير ذلك . ومهما يكن من شىء فقد كانت وفاته فى سنة ٣٦٢ بالغاً من العمر اثنتين وأربعين سنة أو ستاً وثلاثين سنة تبعاً لسنة ميلاده كما تقدم . ويأبى الدكتور زاهد على الهندى الذى نشر ديوان ابن هانىء من سنوات إلا أن يجعل لأمويى الأندلس يداً فى موته ، مع أن كل الروايات الواردة فى موته لا تشير إلى شىء من ذلك ، ويقنعنا الدكتور فساد سيرة الشاعر التى كانت السبب الأول فى موته غير الطبيعى

ولقد أجمع نقاد الشعر ورواته على أن ابن هانىء أعظم شعراء المغرب على الإطلاق ، وأنه عندهم نظير معاصره المتنبى عند أهل المشرق . ولما بلغت وفاته المعز أسف لذلك كثيراً ، وقال : هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق ، فلم يقدر لنا ذلك .

* * *

ومع أن كل الشواهد تدل على أن ابن هانىء كان مبكر الشاعرية ، ومن الشعراء المكثرين ، وأن قريحته كانت وقادة ، وطبعه سخياً بالشعر ، فإن ما وصل إلينا من شعره ليس بالشىء الكثير . فلم يصلنا إلا شعر السنوات التسع الأخيرة من حياته ، إذا أخذنا بقول من يجعل حياته ستاً وثلاثين سنة فقط ، أو شعر الخمس عشرة سنة الأخيرة ، إذا قلنا

بالرأى الذى يجعلها اثنتين وأربعين سنة . وعلى كلا الأمرين لم يصلنا شىء ألبتة من شعره الذى قاله وهو فى الأندلس ، مع أن الأندلس وطنه الأول ، فيها ولد ، وفيها نشأ ، وفيها تعلم ، وفيها ترعرع ، وفيها ظهر ذكره . وبأشبيلية استمتع بصحبة ملكها وعاملها لبنى أمية ؛ فأين غرامياته ، ووجدانياته ، وإخوانياته ؟ بل أين مدائحه فى صاحب أشبيلية الذى رعاه مارعاه ثم هيأ له سبيل الهجرة إلى المغرب ؟ لا شىء من ذلك ألبته . ويفسر الدكتور زاهد على الهندى ذلك النقص فى ديوان ابن هانئ تفسيراً عجباً ، فيحمله على أن الشاعر لم يشتهر فى وطنه ، بل اشتهر فى المغرب ، وأن هذا حال أكثر الفضلاء « لأن الرجل فى وطنه لا يكون معروفاً ، فاذا اغترب عرف فضله ، وقديماً قالوا ليس لنبى كرامة فى وطنه » (مقدمة الديوان ص٢٠) ولكن ابن هانىء عرف بالأندلس فعلا ، وقال الشعر فى ذلك الطور من حياته ؛ وأكبر الظن أنه اصطحب نسخة أشعاره الأندلسية ، فأين ذهب ذلك ؟ ثم إنه لم يصلنا كل شعره الذى قاله بعد هجرته إلى المغرب . ونستشهد على ذلك بحادث واحد : فى سنة ٣٦٠ خلع جعفر بن على وأخوه يحيى وعشيرتهما ثوب التشيع ونكثا بيعة المعز ، وخرجا من المغرب بعد أهوال ، ولحقا بالحكم المستنصر الأموى بالأندلس ، فاهتزت الأندلس لمقدمهما وتقبلتهما بأعظم القبول . فإذا عرفنا أن هذين الأميرين لهما من الأيادى على ابن هانىء مالهما فهل يعقل أن يمر هذا الحادث دون أن يترك فى نفس ابن هانىء أثراً يظهر فى شعره إن قليلاً وإن كثيراً ؟ ومع ذلك فليس فى ديوانه شىء عن ذلك الحادث الخطير من الناحية العامة ، ومن ناحية ابن هانىء خاصة ! إن السبب الصحيح فى ضياع الجانب الأندلسى من شعر ابن هانىء ، والشعر الذى قاله فى حادث ابنى على هو أن جامع ديوانه أراد ألا يثبت من شعر الشاعر إلا ما قاله فى الدولة الفاطمية فقط . وإذاً فنحن بإزاء ديوان شعر شيعى لشاعر شيعى إسمعيلى ألم فيما وصل إلينا من شعره بكثير من حوادث عصره وصورها فى شعره . فلننظر إلى ما تناوله من تلك الحوادث لنرى كيف ألم به ، وكيف صوره .

٢ - الناحيــة التاريخية

من شعر ابن هانىء الأندلسى (*)

نصور للقارئ العصر الذى عاش فيه ابن هانئ الأندلسى ، فنقول : ولد شاعرنا نحو سنة ٣٢٠ هـ وتوفى سنة ٣٦٢ هـ ؛ فقد عاش إذاً فى صميم القرن الرابع الهجرى ، وهو عصر حافل بالأحداث الجسام التى وقعت فى العالم الإسلامى ، كما كان عصر تبدل واضح فى علاقة الشرق الإسلامى بالغرب الأوربى المسيحى . وحسبنا فى هذا المقام أن نقول فى وصف العالم الإسلامى لذلك العهد إنه كانت تتقسمه ثلاث دول متقاطعة ، وتتوزعه ثلاث خلافات متنافسة إلى حد بعيد : أولاها الدولة العباسية بالمشرق ، وكانت أحوالها قد صارت إلى اضمحلال وفساد لغلبة الترك والديلم على خلفائها واستبدادهم بالأمر دونهم ، مما أضعف السلطة المركزية ببغداد ، وأضاع هيبة الخلافة ، وذهب برونقها ، وجر إلى تجزؤ الدولة إلى دويلات عدة كان بأسها بينها شديداً . ثم الدولة الأموية بالأندلس ، وكانت حالها إذ ذاك على النقيض من حال الدولة العباسية . كانت فى عصرها الذهبى ، عصر عاهليها العظيمين : عبد الرحمن الناصر ، وابنه الحكم المستنصر ؛ وقد قامت فيها خلافة سنية ابتعثها الناصر عند ما رأى ما آلت إليه الخلافة العباسية من الاضمحلال والفساد . ثم الدولة الفاطمية التى قامت بأفريقية فى أخريات القرن الثالث الهجرى ، وسرعان ما عم نفوذها شمال أفريقية كله تقريباً ، ووقع الصدام بينها وبين الدولة العباسية فى مصر والشام والحجاز ، وبينها وبين الدولة الأموية الأندلسية فى المغرب الأقصى .

وكان القرن الرابع الهجرى زمن تبدل فى العلاقة بين الشرق الإسلامى والغرب الأوربى المسيحى ، ففيه نبتت وقويت فكرة الحرب الصليبية فى أوربا عامة وعند أباطرة الروم خاصة . وكان السبب فى ذلك ضعف الدولة العباسية ، حتى لقد أقدم الروم على غزو الشام ، وطمعوا فى امتلاكها والزحف منها إلى نفس الحجاز . على أن عدوان الروم فى الشرق على البلاد الإسلامية كان يعاصره عدوان مثله فى الغرب من الفواطم على بقية ملك الروم فى جزيرة صقلية .

(*) الثقافة : العدد ٦١ سنة ١٩٤٠

عاش ابن هانىء فى ذلك العصر ، وانغمس فى البيئة الفاطمية السياسية كل انغماس ، وصور فى شعره نواحى الحياة السياسية الفاطمية ، وعلاقة الدولة العبيدية بالعباسيين والأمويين والروم ؛ وهو فى أثناء ذلك كله يورد البيت أو البيتين يضمنهما شيئاً من تعاليم الشيعة الإسمعيلية لذلك العهد .

* * *

يصور ابن هانىء المعز الفاطمى خليفة مهيباً ، حكيماً ، يضع الندى فى موضعه ، والسيف فى موضعه ، نافذ الأمر فى أقطار المغرب .

ملك أناخ على الزمان بكلكل   فأذل صعباً فى القياد جموحا
يمضى المنايا والعطـايا وادعاً   تعبت له عزماته وأريحـا
قل للجبـابرة الملوك تغنموا   سلماً ، كفى الحرب العوان لقوحا
بعيونكم رهج الجنود قوافلا   بالأمس تقتعل الدم المسفوحا

وهو يلقى ضوءاً على النظام الذى جرت عليه الدولة الفاطمية فى عهدها الأفريقى ، وهو النظام الإقطاعى الذى عم الشرق والغرب فى العصور الوسطى ؛ وذلك واضح فى قصائده التى امتدح بها رجالات الدولة الفاطمية ، فيقول فى جعفر بن على صاحب الزاب :

سد الإمام بك الثغور وقبـله   هَزَمَ النبىُّ بقومكَ الأحـزابا
أنتم ذوو التيجان من يمن إذا   عد الشريف أرومة ونصابا
إن تمتثل منها الملوك قصـوركم   فلطالما كانوا لها حجابا

ويقول فى أخيه يحيى بن على :

وسـيد سـادات إذا ما رأيته   عرفت يمانىَّ النِّجار متوّجا
تألّق فى أوضاحه وحجوله   فلم ترعينى منظراً كان أبهجا
نحا المغرب الأقصى بسطوة بأسه   فغادره رهواً وقد كان مرتجا

ويقول فى أبى الفرج الشيبانى ، ذاكراً بلاءه فى التمكين للدولة الفاطمية شرقاً وغرباً :

تشوّق المشرق الأقصى إليك وما   تركت فى الشرق من مأثورة عجب
وكم تخلف فى أوراس من سير   سارت بذكرك فى الأسماع والكتب

قد كنت تملؤه خيلاً مضمَّرة ... يحملن كل عتيد البأس والغضب
كن كيف شئت بأرض المشرقين تكن ... بها الشهاب الذى يعلو على الشهب
فأنت مَن أقطع الأقطاع واصطنع الـ ... معروف فيها ولم تظلم ولم تحب

ويقول فى نظام الجيش الذى دخل به جوهر مصر :

وقد رتبت فيه الملوك مراتباً ... فمن بين متبوع وآخر يتبع
تسير على أقدارها فى مجاجة ... ويقدمها منه العزيز الممنع

فهذا وصف عمال لهم أحساب وأنساب ، و بأس وسطوة ، وليسوا مجرد عمال إداريين بالمعنى المألوف .

ويصف بحرية الدولة الفاطمية ، فيقول فى الأسطول وفى استعماله النار الإغريقية فى حرب الروم خاصة :

لك البر والبحـــر العظيم عبابه ... فسيان أغمار تخاض وبيد
أما والجوارى المنشآت التى سرت ... لقـد ظاهرتها عدة وعديد
قباب كما تزجي القباب على المها ... ولـكنَّ من ضمت عليه أسود
أطاع لها أن الملائك خلفها ... كما وقفت خلف الصفوف ردود
وأن الرياح الذاريات كتائب ... وأن النجوم الطالعات سعود
مواخر فى طامى العباب كأنها ... لعزمك بأس أو لـكفك جود
من القادحات النار تضرم للصلى ... فليس لها يوم اللقاء خمود
إذا زفرت غيظاً ترامت بمارج ... كما شب من نار الجحيم وقود
فأفواههن الحاميات صواعق ... وأنفاسهن الزافرات حـديد
يشب لآل الجاثليق سعيرها ... وما هى من آل الطريد بعيد

يعنى بآل الطريد بنى أمية الأندلسيين .

ويقول فى ضخامة الجيش الذى فتح به جوهر مصر :

رأيت بعينى فوق ما كنت أسمع ... وقد راعنى يوم من الحشر أروع
غداة كأن الأفق سد بمثـــله ... فعاد غروب الشمس من حيث تطلع

تسير الجبال الجامدات لسيره ... وتسجد من أدنى الحفيف وتركع
إذا حل فى أرض بناها مدائناً ... وإن سار عن أرض ثوت وهى بلقع

ويجلو لنا ابن هانىء ناحية هامة من تاريخ المغرب لعهده ، فيذكر لنا وجود المذهب الخارجي فى المغرب الأقصى وإفريقية فى ذلك الزمن ، وأن الخوارج كانوا يعملون لحساب الدولة الأموية ، ويبين جد الخليفة المعز وعماله فى قتال هذا المذهب المناقض للتشيع من جهة والمشايع لدولة معادية من جهة أخرى ؛ فيقول فى أخذ جعفر بن على قلعة حصينة كانت بأيدى الخوارج بإقليم الزاب .

حرورية ما كبر الله خاطب ... عليها ولا حيّا بها ملكاً وفد
وكانت شجا للملك ستين حجة ... وما طيب وصل لم يكن قبله صد
وعادت بهم حرب الأزارق لاحقاً ... وإن لم يكن فيها المهلب والأزد

ويقول فى حرب أبى الفرج الشيبانى مع خوارج المغرب الأقصى :

كل السيوف اللواتى جردت كذب ... وهو المجرد للسيف الحقيقىّ
لم يجهلوا ما ألاقى فى التشيع من ... تحريض شارية أو بأس شارىّ
وما يذلل من أهل العناد لهم ... وما يدارى من الدين الأباضى
من يصطلى حر نار أنت موقدها ... وهى الحرور على الشعب الحرورى

هذا من حيث أحوال الدولة الفاطمية الداخلية ، فأما من حيث علاقاتها الخارجية ، فالشاعر يبدىء القول ويعيده فى بيان العداوة بين الفواطم والأمويين وهو متأثر فى ذلك بعوامل بعضها شخصى كما يؤخذ من قوله يصف فراره من بنى أمية إلى إفريقية ؟

ولو علقته من أميـــة أحبل ... لجب سنام من بنى الشعر تامك
ولما التقت أسيافها ورماحها ... شراعاً وقد سدت علىّ المسالك
أجزت عليهم عابراً وتركتها ... كأن المنايا تحت جنبى أرائك
وما نقموا إلا قـــديم تشيعى ... فنجى ليبياً شده المتـــدارك

و بعضها عام راجع إلى ما كان بين الأمويين والفاطميين من العداوة فيقول :

وأميـــة تحفى السؤال وما لمن أودى به الطوفان يذكر نوحا ؟

بهتوا فهم يتوهمونك بارزاً والتاج مؤتلقاً عليـــك لموحا

لبسوا معايبهم وزرء فقيـــدهم كاللابسات على الحداد مسوحا

وقد يحمله فرط تعصبه للفواطم على أن يصف الأمويين بالجبن وعدم البصر بالحرب :

وما عرفت كر الجياد أميـــة ولا حملت بز القنا وهو شابك

ولا جردوا نصلاً تخاف شباته ولـكنّ فولاذاً غـدا وهو آنك

ولم تدم فى حرب دروع أميـــة ولـكنهم فيها الإماء العوارك

٣ - الناحية التاريخية

من شعر ابن هانئ الأندلسى (*)

ومن العجيب أن ادعاء ابن هانئ جبن أمويى الأندلس على بطلانه ، يكرره داعية فاطمى آخر ، هو الرحالة أبو القاسم بن حوقل المغربى المعاصر لابن هانئ ؛ فيقول فى كتابه « صورة أقاليم الأرض » . « ومن أعجب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هى فى يده ، مع صغر أحلام أهلها وضعة نفوسهم ونقص عقولهم و بعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ، ومراس الأنجاد والأبطال ، وعلم موالينا عليهم السلام بمحلها فى نفسها ومقدار جباياتها ، ومواقع نعمها ولذاتها » . والشاعر والجغرافى كلاهما يرميان إلى غرض واحد ، هو حمل المعز على غزو الأندلس ؛ ولكن المعز كان أبعد منهما نظراً ، فلم يتورط فى حرب جدية مع الأندلس ، بل صرف قوته إلى المشرق ، على ما هو معروف .

وليست حملة الشاعر على الأمويين بأقل من حملته على العباسيين ؛ وهو متأثر فى ذلك بالفكرة السياسية الشيعية القائلة بأن الخلافة حق لأبناء على بن أبى طالب دون غيرهم فيقول مخاطبا بنى العباس :

أبناء نثلة ما لكم ولمعشر ... هم دوحة الله الذى يختار ؟
ردوا إليهم حقهم وتنكبوا ... وتحملوا فقد استحم بوار
يلهيهمو زمر المثانى كلما ... ألهاكم المثنى والمزمار

ويعرض باستخزاء الخلفاء العباسيين وغلبة الأعاجم عليهم .

فقد سئمت بيض الظبى من جفونها ... وكانت متى تألف سوى الهام تسأم
وقد غضبت للدين باسط كفه ... إليهن فى الآفاق كالمتظلم
وللعرب العرباء ذلت خدودها ... وللفترة العمياء فى الزمن العمى

(*) الثقافة : العدد ٦٢ سنة ١٩٤٠ .

وللملك فى بغـــداد أن رد حكمه ... إلى عضـــد فى غير كف ومعصم
إلى شلو ميت فى ثياب خليفـــة ... وبضـــع لحام فى إهاب مورم
فإن يكن العبـــــد اللئيم نجاره ... فما هو من أهل العراق بألأم
سوام رتاع بين جهل وحيرة ... وملك مضاع بين ترك وديلم

ولما غلب عاهل الروم نقفور فوقاس الثانى على الثغور الإسلامية ، وأوغل فى الجزيرة ونازل أنطاكية ، واستولى أسطوله على قبرس ، وعجز سيف الدولة الحمدانى عن مدافعته لاشتغاله بحرب الطامعين فى ملكه من جهة مصر والعراق ، كان لذلك أثر عميق فى نفوس المسلمين عامة ، لم يخفف منه إلا ضغط جيوش المعز الفاطمى على قوى الروم بصقلية . وفى سنة ٣٥١ استولت تلك الجيوش على قلعة طبرمين من أيدى الروم ورمطة فى سنة ٣٥٣ ؛ وفى عام ٣٥٥ عقد صلح بين المعز و بين الامبراطور نقفور فوقاس ، وقد تجاوبت أقطار العالم الإسلامى بأصداء هذه الهزائم وتلك الانتصارات ؛ وقد سجل ابن هانئ فى شعره تلك الأصداء ، فيقول فى وصف إلحاح الروم على مدن الشام ، وعجز المشارقة عن مدافعتهم :

ما لى رأيت الدين قل نصيره ... بالمشرقين وذل حتى حرفا ؟
هم صيروا خدماً تسوس أمورهم ... يا للزمان السوء كيف تصرفا !
عبدانُ عبدانٍ وتبع تبع ... فالفاضل المفضول والوجه القفا
يا ويلكم أفما لكم من صارخ ... إلا بثغر ضاع أو دين عفا ؟
فمدينة من بعد أخرى تستبى ... وطريقة فى إثر أخرى تقتفى
حتى لقد رجفت ديار ربيعة ... وتزلزلت أرض العراق تخوفا
فالشام قد أودى وأودى أهله ... إلا قليلاً والحجاز على شفا
أيسرُّ قوماً أن مكة غودرت ... بمجر جيش الروم قاعاً صفصفا ؟
أو أن ملحود النبى ورمسه ... بمدارج الأقدام ينسف منسفا ؟
فتربصوا فالله منجز وعده ... قد آن للظلماء أن تتكشفا
هذا المعز ابن النبى المصطفى ... سيذب عن حرم النبى المصطفى

ويقول فى مدح المعز وفى الفتح الذى تم له على الروم ، ويصف كيف تلقى المعز نبأ ذلك الفتح :

يوم عريض فى الفخار طويل ما تنقضى غرر له وحجول
مسحت ثغور الشام أدمعها به ولقد تبل الترب وهى همول
وجلا ظلام الدين والدنيا به ملك لما قال الكرام فعول
لله عينا من رأى إخباته لما أتاه بريدها الأجفيل
وسجوده حتى التقى عفر الثرى وجبينه والنظم والأكليل
لو أبصرتك الروم يومئذ درت أن الإله بما تشاء كفيل
أنت الذى ترث البلاد لديهم فالأرض فأل والسجود دليل

* * *

وقد يكون أهم من كل ما تقدم ، تلك الناحية من شعر ابن هانئ التى تصف عقائد التشيع الإسمعيلى فى العهد الأفريقى من حياة الدولة الفاطمية(١) . وابن هانئ شديد الحمية للتشيع ، فهو عنده المذهب الحق ، فيقول فى مدح أبى الفرج الشيبانى :

ركن لعمرك من أركان دولتهم وعروة من عرى الدين الحنيفىّ
كل السيوف اللواتى جردت كذب وهو المجرد للسيف الحقيقى

وعنده أن الأدب الحق والخلق الحق هو الأدب الشيعى والخلق الشيعى :

لله من علوىّ الرأى منتسب إلى العلى وائلىّ الأصل سرىّ
شيعى أملاك بكر إن هم انتسبوا ولست تلقى أديبا غير شيعىّ

ويتعرض ابن هانئ لنظرية الإمامة عند الإسمعيلية . فيقول بضرورتها :

إذا كان أمن يشمل الأرض كلها فلا بد فيها من دليل مقدم
إذا كان تفريق اللغات لعلة فلا بد فيها من وسيط مترجم
وآية هذا أن دحا الله أرضه ولكنها لم ترسُ من غير معلم

---

(١) راجع مقدمة الدكتور زاهد على لديوان ابن هانئ ص ٥٢ — ٥٨ .

وإمامة الإمام لا تثبت بالاجتهاد ، ولكن بالنص ممن قبله :

وما ذاك أخذاً بالفراسة وحدها ولا أنه فيها من الظن مضطر

ولكن موجوداً من الأثر الذى تلقاه عن حبر ضنين به حبر

والإمام مظهر نور الله :

وما كنه هذا النور نور جبينه ولكنّ نور الله فيه مشارك

والإمام موئل علم التأويل ، وهو العلم الذى تعرف به معانى القرآن الحقيقية :

قد كاد ينذر بالوعيد لطول ما أصغى إليك ويعلم التأويلا

وعلم التأويل مقصور على الإمام مكتوم عن العامة :

إذا كانت الألباب يقصر شأوها فظلم لسر الله إن لم يكتم

والإمام معصوم من الخطأ :

من كان سيما القدس فوق جبينه فأنا الضمين بأنه لا يجهل

وابن هانئ يعبر فى رأى الدكتور زاهد على عن معنى التوحيد عند الإسمعيلية بقوله مخاطباً الخليفة المعز :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

يقول الدكتور إن الإسمعيلية تنزه الخالق عن الصفات مطلقا ، وتوقعها على المبدَع الأول وهو الأمر والكلمة . ولما كان الإمام قائماً مقام الأمر والكلمة فى هذا العالم ، فجميع صفات البارى واقعة عليه ، فلا عجب أن أطلق الشاعر « الواحد القهار » على المعز . ولكن يظهر أن قول الشاعر : « ما شئت لا ما شاءت الأقدار » يضعف هذا التفسير ، لذلك عاد الدكتور فعقب على تفسيره المذكور بقوله إن الشعراء كثيراً ما يبالغون فيما يقولون . . . وقد قيل : « أحسن الشعر أكذبه » فليكن إذاً هذا القول الأخير هو وحده الذى يعتذر به عن إسراف الشاعر وغلوه .

* * *

نتبين من كل ما تقدم أن ابن هانىء عرض فى شعره لأهم حوادث العالم الإسلامى فى عصره : صور النظم الأساسية للدولة الفاطمية ، وبين من الوجهة الشيعية علاقة هذه الدولة بالدول المعاصرة لها ، ثم ألم بطائفة هامة من عقائد الشيعة الإسمعيلية . وكأنى به ، يقول : إن السر العظيم فى قوة الدولة الفاطمية وسرعة تكونها ، إنما هو فى سياستها الحكيمة التى جرت عليها : سياسة العدل والإحسان والنظام فى الداخل ، والانتصار لقضية الإسلام العامة بإزاء أعدائه فى الخارج ، وإن فواطم إفريقية كانوا بنائين ولم يكونوا هدامين كالقرامطة والحشيشية والملاحدة الذين ينتمون إلى المذهب الإسمعيلى . وليت شعرى هل يستطيع أكثر المؤرخين تعمقاً لفهم الحوادث ، أن يصل إلى أعمق وأصدق مما وصل إليه هذا الشاعر ؟

بنو فِراس بن غَنْم (*)

يروى أنه لما تواترت الأخبار على الإمام على بن أبى طالب باستيلاء أصحاب معاوية على البلاد بعد وقعة صفين ، قام على المنبر ضجراً بتثاقل أصحابه عن الجهاد ومخالفتهم له فى الرأى ، فخطب الناس خطبة قوية جاءت فيها هذه العبارة : « أما والله لوددت أن لى بكم ألف فارس من بنى فراس بن غنم » وهذا العدد الذى تمناه الإمام على قليل جداً بالنسبة إلى جيشه الذى بلغ فى وقعة صفين خمسين ألف مقاتل على أقل تقدير . فمن بنو فراس هؤلاء الذين يعدل الرجل الواحد منهم خمسين رجلا من أصحاب الإمام ؟

قال ابن أبى الحديد فى شرحه على كتاب « نهج البلاغة » . « قال القطب الراوندى : بنو فراس بن غنم هم الروم » . ويخطئ ابن أبى الحديد بحق هذ التفسير ويقول : الصحيح أنهم بنو فراس بن غنم بن ثعلبة بن مالك بن كنانة ، حى مشهور بالشجاعة ، منهم علقمة بن فراس وهو جذل الطعان ، ومنهم ربيعة بن مُكَدَّم حامى الظعن حياً وميتاً ، ولم يحم الحريم وهو ميت أحد غيره . عرض له فرسان من بنى سُليم ومعه ظعائن من أهله يحميهم وحده ، فطاعنهم ، فرماه أحدهم بسهم أصاب قلبه ، فنصب رمحه فى الأرض واعتمد عليه وهو ثابت فى سرجه لم يزل ولم يمل ، وأشار إلى الظعائن بالرواح ، فسرن حتى بلغن بيوت الحى ، و بنو سليم قيام إزاءه لا يقدمون عليه ويظنونه حياً ، حتى قال قائل منهم إنى لا أراه إلا ميتاً ولو كان حياً لتحرك ؛ إنه والله لمائل راتب على هيئة واحدة لا يرفع يده ولا يحرك رأسه ، فلم يقدم أحد على الدنو منه حتى رموا فرسه بسهم فشب من تحته ، فوقع وهو ميت وفاتتهم الظعائن .

* * *

ومما يجرى مجرى الموازنة بين بنى فراس وأشباههم ، ما يروى من أن المنصور بن

(*) الثقافة ، عدد ٣١٢ سنة ١٩٤٤ .

عامر الأندلسى كان فى غزاة له فوقف على نشز من الأرض فرأى جيوشه قد ملأت السهل والجبل ، فأعجبه ذلك ، والتفت إلى مقدم المعسكر ، ويعرف بابن المصحفى ، وجرى بينهما هذا الحوار :

المنصور — لا يعجزنا أن يكون فى هذا الجيش ألف مقاتل من أهل الشجاعة والبسالة ؟

ابن المصحفى — يطرق ساكتاً .

المنصور — وما سكوتك ؟ أليس فى هذه الجيوش ألف مقاتل ؟

ابن المصحفى — لا !

المنصور (متعجباً) — أليس فيهم خمسمائة رجل من الأبطال المعدودين ؟

المصحفى — لا !

المنصور (مغضباً) — أفيهم مائة رجل من الأبطال ؟

ابن المصحفى — لا !

المنصور — أفيهم خمسون من الأبطال ؟

ابن المصحفى — لا !

عند ذلك استشاط المنصور غضباً وأمر بمقدم العسكر فأخرج على أقبح صفة .

فلما توسطوا بلاد العدو وتصاف الجمعان ، برز علج من صفوف الأعداء شاك فى سلاحه يكر ويفر وهو ينادى : هل من مبارز ؟ فبرز إليه رجل من المسلمين ، فتجاولا ساعة فقتله العلج . فصاح المشركون وذل المسلمون ، وكادت تكون كسرة . فقيل للمنصور ، مالها غير ابن المصحفى ! فبعث إليه ، فحضر . فقال له المنصور : ألا ترى ما يصنع هذا العلج الكلب منذ اليوم ؟ قال : بعينى جميع ما جرى ! قال فما الحيلة فيه ؟ قال وما الذى تريد ؟ قال أن تكفى المسلمين شره ، قال : نعم ، الآن !

ثم قصد ابن المصحفى إلى رجال يعرفهم ، فاستقبله رجل من أهل الثغور على فرس قد نشزت أوراكها هزالا ، وهو يحمل قربة ماء بين يديه على الفرس . فقال له ابن المصحفى : ألا ترى ما يصنع هذا العلج منذ اليوم ؟ قال : قد رأيته ! فماذا ترى فيه ؟ قال : أريد رأسه الآن ! قال نعم !

فحمل الرجل القربة إلى رحله ، ولبس لأمة حربه ، وبرز إليه ، فتجاولا ساعة ، فلم ير الناس إلا المسلم خارجا يركض ولا يدرون ما هنالك ، وإذا الرجل يحمل رأس العلج ، فألقى الرأس بين يدى المنصور .

عند ذلك قال ابن المصحفى للمنصور : أخبرتك أنه ليس فى عسكرك من مثله ألف ، ولا خمسمائة ، ولا خمسون ، ولا عشرون ، ولا عشرة . فرده المنصور إلى منزلته وأكرمه .

***

وبعد ، فيقال إن عدة المسلمين فى جميع أنحاء العالم تبلغ اليوم زهاء ثلثمائة مليون من الأنفس . ترى كم فيهم من يشبه بنى فراس ، ويشبه هـذا الفارس الأندلسى المغوار ؟ لسنا نجيب عن هذا السؤال الدقيق . ولـكننا ، ونحن فى مستهل عام هجرى جديد ، نبتهل إلى المولى عز وجل أن يكثر فيهم أمثالهم ، أو أن يجعلهم جميعاً على شاكلة بنى فراس ، وما ذلك عليه سبحانه بعزيز .

قرطبة الإسلامية

تقع بين الجبل المنسوب إليها وهو جبل قرطبة من ناحية الشمال ، و بين الوادى الـكبير من ناحية الجنوب . وتحتل بقعة خصبة غنية بالمراعى والـكروم وشجر الزيتون وغير ذلك مما يجود فى هذه المنطقة من الزروع والثمار .

وهى مدينة عادية قديمة ، لا ندرى أوليتها على التحقيق ، غير أنها ورد ذكرها فى الحرب البونية الثانية . ونبه اسمها على عهد الروم والبيزنطيين ، ثم اضمحل شأنها زمن القوط الذين اتخذوا طليطلة قاعدة لملكهم .

فتحها عنوة مغيث الرومى ، أحد رجال طارق بن زياد ، وذلك بعقب وقعة البحيرة التى كانت فى سنة ٩٢ هـ . واتخذها الوالى العربى السمح بن مالك الخولانى قاعدة لأمارة الأندلس وانتقل إليها من إشبيلية سنة ١٠٠ هـ ومما يدل على سوء حال المدينة عند فتح العرب لها ما كتب به السمح إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز « يستشيره ويعلمه أن مدينة قرطبة تهدمت من ناحية غربها ، وكان لها جسر يعبر عليه نهرها ، ووصفه بحمله وامتناعه من الخوض فى الشتاء عامة ، فإن رأى أمير المؤمنين بنيان سور المدينة فعلت ، فإن قبلى قوة على ذلك من خراجها بعد عطايا الجند ونفقات الجهاد ، وإن أحب صرفت صخر ذلك السور فبنيت جسرهم . فيقال إن عمر أمر ببنيان القطرة بصخر السور ، وأن يبنى السور باللبن ، إذ لا يجد له صخراً ، فوضع يداً فبنى القنطرة فى سنة إحدى ومائة » (أخبار مجموعة ص ٢٤) .

هكذا ابتدأ العهد العربى الإسلامى من حياة قرطبة وهو أزهى عهودها على الإطلاق . بلغت فيه قرطبة من النمو والازدهار ما عفى على تاريخها القديم والحديث ، فقد تتابع أمراء العرب وملوك بنى أمية وخلفاؤهم على عمارتها وتوسعتها وتجميلها ، حتى أصبحت فى القرن الرابع الهجرى أعظم مدن المغرب الإسلامى قاطبة ، ومن أمهات العواصم الإسلامية ، وكانت تعدل فى اتساعها أحد جانبى بغداد .

اتخذها السمح بن مالك كما قدمنا قاعدة و بنى جسرها ورم سورها ، وابتنى عبد الرحمن الداخل قصرها ومسجدها الجامع ، كما ابتنى فى شمالها قصر الرصافة لنزله خاصة وزاد عبد الرحمن الأوسط فى مسجدها الجامع ، وجر إلى قرطبة الماء العذب من الجبل الشمالى فى أنابيب الرصاص ، وزاد عبد الرحمن الناصر فى المسجد وابتنى الزهراء غربى قرطبة ، وزاد الحكم المستنصر فى المسجد الجامع وجمله وفخمه ، وأتم بناء الزهراء ؛ فلما كان زمن المنصور بن أبى عامر زاد فى مساحة المسجد الجامع و بنى الزاهرة والعامرية شرق قرطبة ، كما عقد جسراً آخر على الوادى الكبير . وبذلك بلغت قرطبة فى القرن الرابع الهجرى أو العاشر الميلادى غاية اتساعها وعمرانها . و يفصل المقرى فى كتابه « نفح الطيب » الكلام على هذا العمران وذلك الاتساع فيقول « أحصيت دور قرطبة التى بها وأرباضها ، أيام ابن أبى عامر فكانت مائتى ألف وسبعين داراً . وهذه دور الرعية . وأما دور الأكابر والوزراء والكتاب والأجناد وخاصة الملك فستون ألف دار وثلاثمائة دار سوى مصارى (أى غرف) الكراء ، والحمامات ، والخانات وعدد الحوانيت ثمانون ألف حانوت وأر بعمائة وخمسة وخمسون حانوتاً » . وينقل المقرى كذلك « إن عدة مساجد قرطبة عند تناهيها فى مدة ابن أبى عامر ألف وستمائة مسجد ، والحمامات تسعماية حمام » ويقول « إنها تحدق بها البساتين ، والزيتون ، والقرى ، والحصون والمياه ، والعيون ، من كل جانب ، وبها المحرث العظيم الذى ليس له فى بلاد[1] الأندلس نظير ، ولا أعظم منه بركة » .

أما الشريف الإدريسى الذى تثقف فى قرطبة فى أوائل القرن السادس ، فيقول فى كتابه « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » « وهى فى ذاتها مدن خمس يتلو بعضها بعضا ، بين المدينة والمدينة سور حاجز ، وفى كل مدينة ما يكفيها من الأسواق والفنادق والحمامات وسائر الصناعات . . . ومدينتها الوسطى هى التى فيها باب القنطرة وفيها المسجد الجامع الذى ليس بمساجد المسلمين مثله بنية وتنميقاً وطولا وعرضاً » . ويستفاد من كلام الشريف الإدريسى أن مركز قرطبة « مدينتها الوسطى » هى ما يعرف « بالقصبة » أو « المدينة » وهى التى فيها المسجد الجامع وقصر الأمارة ، ثم امتدت غرباً فبنى الناصر مدينة الزهراء ،

(١) هو محرث الكنبانية الممتد جنوبى قرطبة على الضفة اليسرى للوادى الكبير .

واتصلت العمارة بينها وبين « المدينة » فنشأ ما يعرف بالجانب الغربي ، كما امتدت من ناحية الشرق فبنى ابن أبي عامر مدينة الزاهرة واتصلت العمارة بين المدينة المتوسطة و بينها ونشأ ما عرف بالجانب الشرقي ، فهذه هي المدن الخمس التي كانت تتألف منها قرطبة الإسلامية ، والتي يشير إليها الإدريسي في عبارته المتقدمة .

***

لقد جمع الشاعر ما امتازت به قرطبة الإسلامية من المعالم في قوله :

بأربع فاقت الأمصار قرطبة ... وهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة ... والعلم أعظم شيء وهو رابعها

ولم يعد هذا الشاعر الحقيقة التاريخية في سرد معالم قرطبة على النحو المذكور فانتبع هذا الترتيب في الكلام على هذه المعالم .

١ — أما القنطرة فقديمة ، بناها الروم على نهر الوادي الكبير ، ثم تهدمت قبيل الفتح العربي للأندلس ، فبناها السمح بن مالك كما تقدم القول . ثم تهدمت أجزاء منها بعد ذلك . فرمها الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل وأنفق في ذلك أموالا عظيمة ، وأشرف على بنائها بنفسه ، وقد شاهدها الشريف الإدريسي في القرن السادس الهجري ووصفها في كتابه بالضخامة والمتانة و بأن أقواسها سبع عشرة و بأن تحتها في قاع النهر أرحاء يديرها انصباب ماء النهر ، ولا تزال هذه القنطرة قائمة إلى اليوم على الهيئة التي وصفها الإدريسي ، وكانت تلك القنطرة واسطة الاتصال بين قرطبة والأرباض الجنوبية ومن ثم عناية ولاة الأمور الأمويين بأمرها .

أما المسجد الجامع فهو أعظم معالم قرطبة وأشهرها « وليس له مثيل في مساجد المسلمين بنية وتنميقاً وطولا وعرضاً » كما يقول الإدريسي . وكان قبل الفتح العربي للأندلس كنيسة يقال لها كنيسة القديس فنسنت . ويحكي مؤرخو العرب في تحويل هذه الكنيسة إلى مسجد نفس القصة التي يحكونها في تحويل كنيسة القديس يوحنا إلى الجامع الأموي المشهور بدمشق . فيقولون إن الفاتحين استولوا أول الأمر على نصف الكنيسة وحولوه إلى مسجد جامع لهم ، فلما جاء عبد الرحمن الداخل ورأى ضيق المسجد بالمصلين ساوم نصارى قرطبة في النصف الآخر الذي بأيديهم ، واشتراه منهم بثمن ارتضوه ، وفوق ذلك أجاز لهم إعادة

الكنائس الأخرى التى هدمت وقت الفتح . ثم بنى عبد الرحمن الداخل المسجد من جديد من أخماس الغنائم ، وذلك سنة ١٧٠ هـ . ولقد تتابع ملوك بنى أمية وخلفاؤهم على المسجد بالزيادة فى مساحته ، وتنميقه وزخرفته فزاد فيه عبد الرحمن الأوسط زيادة كبيرة من الناحية القبلية المواجهة للنهر ، و بنى الأمير محمد مقصورته ، ومد الأمير عبد الله بين القصر و بينه ساباطا مسقوفا يمر منه من القصر إلى المسجد . وابتنى الناصر المئذنة ذات الدرجين المعروفة بالصومعة و بالمنارة . على أن أبدع أجزاء المسجد وأروعها الزيادة التى زادها الخليفة الحكم المستنصر فى المسجد من الجهة القبلية ، لاسيما المحراب والمنبر والمقصورة ، وقد استعان الحكم فى زخرفة هـذا الجزء بصانع يونانى ماهر فى الزخرفة بالفسيفساء ، أرسله إليه الامبراطور البيزنطى نقفور فوقاس مع مقادير ضخمة من الفسيفساء ، وكان ذلك بطلب من الحكم نفسه أسوة بما صنعه جده الوليد بن عبد الملك عندما أراد تجديد الجامع الأموى بدمشق . فلما كان زمن المنصور بن أبى عامر ، ورأى ضيق المسجد بالمصلين لتوافد البربر من المغرب زاد فى المسجد من الجهة الشرقيـة زيادة بلغت ثلث مساحة المسجد كله ، و بذلك كمل المسجد وأصبح أكبر وأفخم مساجد العالم الإسلامى ، وكان طوله ١٨٠ متراً وعرضه ١٣٠ متراً وكان ثلث مساحته صحناً مكشوفاً ، و بقية المسجد مسقوفة و يشتمل على أكثر من ألف سارية تجعل المسجد أشبه بغابة من النخيل — وقد أورد ابن عذارى فى تاريخه تفصيلات طريفة عن الزيادة التى زادها ابن أبى عامر كما أورد إحصاء لما كان المسجد يشتمل عليه من عدد السوارى والثريات والمصابيح ، وما كان مرتباً له من مقادير الزيت والشمع والبخور ، وعدد أئمته ، ومقرئيه ، ومؤذنيه ، وسدنته ، وخدامه ، وهو شىء كثير (جـ ٢ ص ٣٠٨)

ومع أن المسجد قد حول إلى كنيسة بعد استيلاء الأسبان على قرطبة ، فإنه برغم ذلك و برغم القدم ، لا يزال حافظا لروعته وجلاله القديمين .

* * *

والـكلام على « الزهراء » يقتضى أولا التعريف بقصر الإمارة بقرطبة .

لقد كان حكام قرطبة من القوط ينزلون قصراً يقع غربى كنيسة القديس فنسنت ، فلما صارت قرطبة قاعدة إمارة الأندلس عقب الفتح العربى ، اتخذ أمراء العرب هذا القصر

مقراً لهم ، فلما جاء عبد الرحمن الداخل جدد بناءه فى سنة ١٦٨ وانتقل إليه من قصر الرصافة ، وأصبح القصر من ذلك الحين مقراً لأمراء بنى أمية يديرون منه شئون الأندلس كلها ، كما كان جانب منه مدفناً لمن يتوفى منهم . وقد تأنق الأمويون فى بناء مجالس هذا القصر وتنسيق مبانيه ومن هذه المجالس فيما يروى المؤرخون « الكامل ، والروضة ، والبديع ، والمعشوق ، والتاج . . . الخ » وكان يحيط بكل القصر سور مانع فيه أبواب كبار منها باب الجامع الذى كان مقابلا للمسجد الجامع .

فلما كان زمن عبد الرحمن الناصر ورأى أن القصر أصبح واغلا فى مدينة يتكاثر سكانها وتتزايد مساحتها أحب أن ينتحى لنفسه وحرمه ودواوينه وخدمه وحشمه وحرسه ، مكاناً خارج قرطبة يختط فيه مدينة خاصة على نحو ما صنع المنصور العباسى عند ما اختط المدينة المدورة ببغداد ، فشرع فى سنة ٣٢٥ هـ فى بناء مدينة الزهراء ، وقد سماها باسم جارية كانت حظية لديه ونقش صورتها على بابها فيما يروى ، ثم انتقل الناصر إلى مدينته الجديدة فى سنة ٣٤٧ وقد توفى الناصر ولم يكن قد تم بناؤها . فأتمها من بعده ابنه الحكيم المستنصر (٣٥٠ — ٣٦٦) فكأن بناءها استغرق نحو أربعين عاماً .

وتقع مدينة الزهراء غربى قرطبة بخمسة كيلو مترات فى منحدر من الأرض بين جبل العروس من جهة الشمال والوادى الكبير من جهة الجنوب وكانت على شكل مستطيل عظيم طوله ١٥٠٠ متر وعرضه ٧٥٠ متراً ، وقد أفاض المؤرخون ، لا سيا المقرى ، فى وصف مدينة الزهراء وما اشتملت عليه من قصور وروضات و بساتين ، وما كانت تضم من حرم وخدم وحشم وحرس ، وما أنفق عليها من أموال جسام أثار إنفاقها اعتراض المعترضين ونقد الناقدين من علماء قرطبة . ووصفها الشريف الإدريسى ، وقد دب إليها الخراب فقال « وهى فى ذاتها مدينة عظيمة ، مدرجة البنية ، مدينة فوق مدينة ، سطح الثلث الأعلى يوازى على الجزء الأوسط ، وسطح الثلث الأوسط يوازى على الثلث الأسفل ، وكل ثلث منها له سور ، فكان الجزء الأعلى منها قصوراً يقصر الوصف عن صفاتها ، والجزء الأوسط بساتين وروضات ، والجزء الثالث فيه الديار والجامع » ثم يقول « وهى الآن خراب وفى حال الذهاب » .

ويرجع اضمحلال الزهراء ثم خرابها الذى تشير إليه عبارة الإدريسى إلى أمرين :

(١) اتخاذ المنصور بن أبي عامر ، عند ما استبد بأمر الأندلس ، مدينة اختطها شرق قرطبة فى بعض منعطفات الوادى الكبير وسماها « الزاهرة » فكان ذلك مما أخمل « الزهراء » وأدى إلى اضمحلال أمرها ، (٢) ثم الفتن الكبيرة التى كانت قرطبة مسرحها من مطلع القرن الخامس والتى أطاحت بالدولة الأموية وأدت إلى تخريب الزاهرة والزهراء واضمحلال قرطبة والأندلس بوجه عام .

ولقد دلت أعمال الحفر والتنقيب التى أجراها علماء الآثار الإسبان فى مطلع القرن الحالى فى موقع الزهراء ، على أن ما ذكره مؤرخو العرب عن فخامة الزهراء وروعة بنائها لم يكن مبالغاً فيه .

* * *

لقد بلغ عدد سكان قرطبة فى أزهى عهودها ، أى فى القرن الرابع الهجرى ، نحو نصف مليون نسمة على تقدير المستشرق الكبير دوزى وكانوا يتألفون من عناصر شتى من العرب والمولدين والبربر والصقالبة ، وظهر فى أيام الفتن التى وقعت فى أواخر الدولة الأموية عنصر السودان ، وكان إلى جانب هؤلاء جميعاً جاليتان من النصارى واليهود لهما شأن فى الحياة الاقتصادية والعامة بقرطبة . ولم تكن هذه العناصر مؤتلفة بل كانت مختلفة الأهواء . وأظهر ما كان هذا الاختلاف فى الفتن والاضطرابات السياسية . ثم إن أهل قرطبة على وجه العموم كانوا طبقتين عامة وخاصة . أما العامة فكانوا السواد الأعظم من السكان وكانوا يتألفون غالباً من أرباب الحرف والصناعات . وكان فيهم نزوع عجيب إلى الشغب ، وميل شديد إلى الفتنة وينقل المقرى عن ابن سعيد قوله فيهم « إلا أن عامتها أكثر الناس فضولا ، وأشدهم تشغيباً ، ويضرب بهم المثل بين أهل الأندلس فى القيام على الملوك والتشنيع على الولاة ، وقلة الرضا بأمورهم ، حتى أن السيد أبا يحيى أخا السلطان يعقوب المنصور قيل له لما انفصل عن ولايتها ، كيف وجدت أهل قرطبة ؟ فقال مثل الجمل : إن خففت عنه الحمل صاح ، وإن أثقلته به صاح ، ما ندرى أين رضاهم فنقصده ، ولا أين سخطهم فنجتنبه ، وما سلط الله عليهم حجاج الفتنة حتى كان عامتها شراً من عامة العراق ! ! »

وعلى العكس من العامة كانت الخاصة أو الطبقة الأرستقراطية من أهل قرطبة ، وكانت تتألف من أعيان الدولة ورجال القصر من عرب وبربر وصقالبة ، يسكنون منيات بديعة

تحيط بها الحدائق والبساتين إما فى أطراف المدينة أو فى أرباضها ، كما تتألف من كبار التجار ذوى الثراء الواسع والمتجر العريض ، ومن العلماء والفقهاء والأدباء ومن لهم ميل إلى العلوم والمعارف ، ويصف المؤرخون هذه الطبقة بأجمل الصفات وينعتونهم بأحسن النعوت ، وهم المعنيون بقول الإدريسى « وفضائل أهل قرطبة أكثر وأشهر من أن تذكر ، ومناقبهم أظهر من أن تستر ، وإليهم الانتهاء فى السناء والبهاء ، بل هم أعلام البلاد ، وأعيان العباد ، ذكروا بصحة المذهب ، وطيب المكسب ، وحسن الزى فى الملابس والمراكب ؛ وعلو الهمة فى المجالس والمراتب ، وجميل التخصص فى المطاعم والمشارب ، مع جميل الخلائق ، وحميد الطرائق ! ! »

* * *

لا شك أن قرطبة الإسلامية كانت مجالا لحياة عامة قوية نشطة كالتى نجدها فى بغداد والقاهرة والقسطنطينية فى العصر الوسيط ، ففى مجال التجارة كانت أسواقها حافلة بشتى العروض الصادرة والواردة ، يقوم على تصريفها طائفة من التجار المياسير الذين لهم اتصال تجارى وثيق بالممالك المطيفة بالبحر الأبيض المتوسط . وفى مجال الدبلوماسية والعلاقات الدولية كانت قرطبة كثيراً ما تتبادل السفارات والوفادات مع أكبر الممالك الأوربية ، لا سيا القسطنطينية ورومية وجرمانيا ، فضلا عن الممالك الإسبانية المسيحية الشمالية . وكثيراً ما كان قدوم وفود هذه الممالك فرصة طيبة لأن تعقد لهم حفلات استقبال فخمة فى قصر قرطبة أو فى مدينة الزهراء . وقد ألم المقرى بوصف بعض هذه الحفلات فى شىء من التفصيل . كما أنه قلما كان يمر عام دون أن تشهد قرطبة عرض الجيوش الأندلسية عند تحركها للغزو ، أو عند عودها مظفرة منصورة .

ومن حيث مظهر الحياة الدينية كان لأهل قرطبة فى مسجدهم الأعظم مناظر فخمة متنوعة طوال العام ، ففى كل يوم جمعة كان الأمير أو الخليفة فى الغالب يؤدى فيه فريضة الجمعة ، ويؤديها معه عدا رجال الدولة وأعيان الناس ، ثلاثة آلاف من لابسى القلانس ، وكان هؤلاء المقلسون هم الذين لهم حق الفتيا فى الأحكام والشرائع فى القرى التى تقع خارج قرطبة ، كل فى قريته . فكانوا يأتون يوم الجمعة إلى قرطبة للصلاة مع الخليفة ، والتسليم عليه ، ومطالعته بأحوال بلدهم . ولكن المسجد كان أحفل ما يكون ، وأبهى ما يكون ،

فى ليالى شهر رمضان والعيدين ، إذ يلتج بقصاده وعماره ، ويغمره فيض من سنا ثرياته ، وشموعه ، ومصابيحه ، وتتعطر أرجاؤه بشذا ما كان يطلق فيه من البخور والطيوب .

* * *

بيد أن ناحية هامة من هـذه الحيوية العجيبة ، وذلك النشاط الجم ، نلحظها فى بيئة العلماء ، والفلاسفة ، والأدباء ، بيئة العلم الذى هو أعظم شىء وهو رابع معالم قرطبة كما رتبها الشاعر فى بيتيه المذكورين فى مطلع هذا المقال . لقد استحال المسجد الجامع جامعة تزخر بالطلاب الذين وفدوا إليها للأخذ عن أئمة اللغة والبيان والفلسفة والأدب . وازدانت قرطبة بنخبة من الطراز الأول من العلماء والمفكرين خلدها التاريخ فى صحائفه ، أمثال ابن عبد ربه وأبى على القالى ، وابن زيدون ، وابن حزم ، وابن رشد ، وابن ميمون ، وكانت الراهبة الشاعرة السكسونية « هروزفيتا » شديدة الأعجاب بقرطبة ، وكانت تسميها « جوهرة الدنيا » كما ذكر العلامة دوزى .

وكان لأهل قرطبة ولع شديد بالـكتب وغرام باقتناء النادر منها حتى عدت قرطبة أكثر بلدان الأندلس كتباً وحتى كانت الـكتب من أروج متاجرها . ولقد سن لهم هذه السنة الحميدة ملوك بنى أمية وخلفاؤها لاسيما الحـكم المستنصر الذى جمع فى مكتبته الآلاف المؤلفة من الـكتب المصنفة فى مختلف العلوم والفنون والآداب . وينقل المقرى فى كتابه نفح الطيب « أنه جرت مناظرة بين يدى يعقوب المنصور الموحـدى ، وكانت بين الفقيه أبى الوليد بن رشد والوزير أبى بكر بن زهر ، وكان الأول قرطبياً والثانى إشبيلياً ، فقال ابن رشد لابن زهر فى تفضيل قرطبة ما أدرى ما تقول ، غير أنه إذا مات عالم بأشبيلية ، فأريد بيع كتبه ، حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها . وإن مات مطرب بقرطبة ، فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية » . ونقل المراكشى عن ابن فياض أنه « كان بالربض الشرقى من قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الـكوفى ، هذا ما فى ناحية من نواحيها فـكيف بجميع جهاتها ! » .

* * *

ظلت قرطبة عاصمة الأندلس وأم مدائن المغرب الإسلامى ثلاثمائة سنة (١٠٠ — ٤٠٠ هـ)

ثم فقــدت زعامتها السياسية بزوال الدولة الأموية فى سنة ٤٢٢ هـ . وتتابعت عليها الفتن والمحن السياسية فى أخريات العهد الأموى وزمن الطوائف والمرابطين والموحدين و إن ظلت متماسكة محتفظة بمكانتها الأدبية ، و إلى تلك الحال يشير الإدريسى بقوله « ومدينة قرطبة فى حين تأليفنا لهذا الـكتاب طحنتها رحى الفتنة ، وغيرها حلول المصائب والأحداث ، مع اتصال الشدائد على أهلها ، فلم يبق بها منهم الآن إلا الخلق اليسير » .

كان ذلك إيذاناً بالنهاية ، ففى ٢٣ شوال سنة ٦٣٣ استولى عليها الأسبان و بذلك طويت صحيفتها من حيث هى مدينة إسلامية جليلة القدر اضطلعت بالزعامة السياسية للمغرب الإسلامى أتم اضطلاع ، وأدت رسالتها الثقافية للمشرق والمغرب عامة أحسن الأداء .

لفتـــة نحو الأندلس (*)

هناك فى القسم الجنوبى من إسبانيا ثلاث مدن عظام هن « قرطبة ، وإشبيلية ، وغرناطة . فإذا ما عرجت على جبل طارق سفينة رائحة أو غادية ، وكان بعقبها بعد يومين أو ثلاثة سفينة أخرى تقصد قصدها ، فكثيراً ما يغنم المتشوفون المتطلعون من أهل السفينة الأولى فرصة ما بين الميعادين فيزورون « المثلث » ، وما المثلث هنا إلا خطوط موهومة ثلاثة تصل بين المدائن الثلاث .

ولقد أسعدنى الحظ فزرت ذلك المثلث منذ عام و بعض عام زيارة باحث مستفيد ، لا زيارة راكب مجتاز .

وأنا امرؤ عاش بالذاكرة والذكرى والخيال فى تلك المدائن منذ أعوام طوال ، ولكنى لم أظفر بالعيش فيها حقاً إلا تلك المرة ، وذلك ما أرجو وآمل أن يكون بداية عهدى بها لا آخره .

* * *

طوفت فى أنحاء قرطبة ، وأشبيلية ، وغرناطة ، وشهدت معالمها ، وقفت فى دمنها وآثارها ، واتصلت بأهلها بقدر ما يسمح الخاطر المشغول والوقت المحدود ، فخلصت من كل ذلك إلى أن هذا الثالوث لايزال أبلغ مايعبر عن مقاطع التاريخ الأندلسى الثلاثة : الخلافة ، والطوائف ، وغرناطة .

أما قرطبة فإنها بنهرها المتحدر الوئيد ، وجسرها العجيب ، ومسجدها الفخم ، وزهرائها الدارسة ، وأزقتها الصاعدة الهابطة العربية الأسماء ، وأهلها الذين يغلب عليهم حسن السمت وتمام الوقار ، تصور لعين الباحث المتأمل سذاجة عصر الخلافة وقوته ، وفخامته وروعته . كما ترمز باجتماع المسجد والقصر إلى اجتماع الدين والسياسة فى النظام السياسى الإسلامى ، وهو اجتماع كان مدار الدولة الإسلامية نشوءاً ، واكتمالاً ، وهرماً ، وزوالا .

* * *

(*) « مجلى » العدد ٤٨ سنة ١٩٣٧ .

زالت الخلافة ، وانفرط عقد الدولة ، وعاد أمر الأندلس جاهلية كما بدأ . سيف ودرع ، وشعر وسجع ، وطاس وكاس ، وجارية وغلام . تلك معالم الحياة العامة على عهد الطوائف ، عهد ابن عباد ، وابن جهور ، وابن حجاج ، وعهد ابن زيدون ، وابن عبدون ، وابن عمار ، وعهد سيف ، وولادة ، واعتماد ، وقمر . فإن شئت أن تتمثل ذلك العصر ، وتنشق عبيره ، وتحس نشوته ، فجل جولة فى طرق إشبيلية ، وقف وقفة بفناء قصرها ، واغش أنديتها فى أى وقت شئت من نهار أو ليل ، فستجدها على طول العمر ، وتقادم العهد ، لا تزال أمرح البلدان ، وأجملها ، وأطربها ، وآنقها . فهى بلد الرياض الضاحكة ، والقصور الناعمة ، والبيوت الشرقية الوادعة ، و بلد الرقصة الفلمنكية الرشيقة ، واصطراع الإنسان والثيران الذى يجيل القلوب فى الصدور ، ثم هى بلد ذوات الحسن والخفر من النساء .

* * *

ولكن وا أسفاه ! فما برحت لذة هذه الدنيا إلى ألم ، ونعيمها إلى بؤس ، وفرحها إلى حزن . وما برح ثمر الخلاف مراً مريرا ، وعاقبة التفرق ويلا وثبورا . لقد أسلم الإسلام بالأندلس الروح إلا ذماء استبقته غرناطة إلى أجل مسمى .

فى غرناطة تجمع ما كان متفرقاً فى طول الجزيرة وعرضها ، من حرص على الخلاف ، وتهافت على الترف .

أما الخلاف فلا يزال أثره ملحوظاً فى حى البيازين ، بأزقته الضيقة ، و بيوته العابسة ، وأهله المعروفين بحدة الطبع وشكاسة الخلق . وأما الترف فحسبك دليلا عليه قصر الحمراء بأسواره وأبراجه ، وردهاته وأبهائه ، وغرفه ومقاصيره ، وسقفه المرفوعة ، وعمده المنصوبة . وتزاويقه المونقة ، وتهاويله الرائعة ، ومياهه الجارية ، ورياضه الناضرة . فهو صنع قوم تعجلوا فى الدنيا جنة الآخرة ، فالتوى عليهم القصد ، وانعكس الغرض .

خلاف وترف ! ألا لقد حق قوله تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

مسجد قرطبة ، وقصر إشبيلية ، وحمراء غرناطة ! كم فيك من عظات وعبر ! ولكن أين من يتعظ ويعتبر ؟ أما أنا فأشهد لقد رأيت ، وفكرت ، واعتبرت . . . ولكن من أنا ؟

فلما قضيت حق القلب والفكر من المدائن الثلاث ، آذنتها بالرحيل ، وأنا على مثل حال الشريف الرضى حين قال :

ولقــد وقفت على ديارهم　　وطلولها بيــد البلى نهب
فبكيت حتى ضج من لغب　　نضوى ولج بعذلى الركب
وتلفتت عينى فمذ خفيت　　عنى الطلول تلفت القلب

وانطلق القطار بى وبأصحابى نحو مدريد ، فودعت حر الجنوب واستقبلت برد الشمال .

* * *

دير الاسكوريال ومكتبته(*)

الاسكوريال اسم يطلق على بناء ضخم فخم يضم ديرا وكنيسة ، وقصرا ومدفنا كانا لملوك الأسبان . وهو يبعد عن مدريد بنحو أربعين كيلو متراً ، ويقوم على رابية موحشة قاحلة من ربى جبل وادى الرملة ، ويقال إن مساحة الأرض التى يشغلها البناء تبلغ بضعة أفدنة ، وأن للبناء خمسة عشر مدخلا وبه سبعة أبراج وما لا يقل عن اثنى عشر ألفاً بين نافذة وباب .

شيده عاهل الأسبان فيليب الثانى وفاء لنذر نذره والحرب قائمة بينه وبين فرنسا ، وقضى فى تشييده وإحكامه إحدى وعشرين سنة وأنفق فى ذلك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة فجاء من أضخم وأعظم ما بنى الإنسان وهو من قبيل المنشآت الشخصية الهائلة التى لا يتيسر القيام بها إلا فى أزمان الاستبداد والجبروت فهو يشبه من هذه الناحية هيكل بعلبك وكثيراً من مبانى المصريين القدماء .

زرت الاسكوريال لثمان سنين خلت ، وقضيت أياما معدودات باحثا منقبا فى مكتبته القيمة ، وكنت أقسم الأيام المذكورة قسمين فأجعل للاسكوريال النهار ولمدريد الليل ، ذلك بأن نهار الاسكوريال وإن يكن متاعا للنفس أى متاع ، فإن ليله لا يطاق وحشة ، وسكونا ، ورهبة ، وشدة برد وبخاصة إذا كان الزمن شتاء .

***

والكنيسة أفخم أقسام الاسكوريال ، فهى وحدها تستغرق أكثر من خمس الأرض التى تقوم عليها جملة البناء ، وبها الشىء الكثير من روائع الفن على هيئة قباب ، وتماثيل وصور أبدعتها ريشة أعظم مصورى الأسبان أمثال الجريكو وفلسكويز . ويقع أسفل الكنيسة مما يلى المحراب مدفن الأسرة التى ملكت الأسبان عصرا طويلا ، وهو مدفن رهيب هابط فى الأرض ينتظم نواويس ضخاماً من المرمر فيها رفات الملوك الغابرين مرتبة ترتيب مجيئهم إلى هذه الدنيا وخروجهم منها ، وأحدثها وآخرها ناووس كان أعد لجثمان الملك الذى خلع منذ سنوات .

(*) مجلة الرابطة العربية سنة ١٩٣٦

وفوق الرواق الرئيسى للمكتبة تقع مكتبة الأسكوريال الشهيرة ، وهى قسمان ، قسم أوربى عام يشتمل على مجموعة الملك الذى أنشأ الأسكوريال وما ضم إليها من مكاتب الأديرة والكنائس ، والمدن ، والمكاتب الخاصة . وهذا مأذون بزيارته للأجانب ، وقد زرته فى صحبة بعض رهبان الدير .

والقسم الآخر عربى مخطوط ولا يؤذن لأجنبى أن يدخله ، وكل من أراد الاطلاع على بعض كتبه فينبغى أن يطلب ما يريد الاطلاع عليه إلى الراهب المختص بذلك القسم فيحضر له ما أراد فى الغرفة الخاصة بالمطالعة . ورهبان الدير يحتفلون عادة بالزوار ولا يقصرون فى إحضار الكتب التى يريدونها .

يحتوى القسم العربى المذكور على نحو ألفى كتاب عربى مخطوط بعضها فى غاية النفاسة ومعدوم النظير ، أذكر من ذلك على سبيل المثال قطعة من قاموس عربى يونانى ألف فى القرن السابع الهجرى ، وكتاب الأنساب لابن الكلبى ، ونسخة من ديوان أبى تمام برواية أبى على القالى ومرتبة ترتيبا يختلف عن ترتيب النسخة المطبوعة .

وهذه المجموعة العربية هى البقية الباقية من مجموعة أكبر منها ترجع على أرجح الأقوال إلى أصلين :

(١) بقايا المكاتب الأندلسية القديمة التى سلمت مما أصاب آثار مسلمى الأندلس من الضياع والتلف فى حروبهم مع الأسبان . وقد جمع شتات هذه البقايا فيما يقال فيليب الثانى وخلفاؤه من بعده وأودعوها ناحية من الأسكوريال .

(٢) مكتبة الأشراف الحسنيين من سلاطين مراكش (٩٥١ — ١٠٦٩ هـ) وذلك أنه فى أوائل القرن الحادى عشر الهجرى وقعت فتنة بين مولاى زيدان سلطان مراكش (١٠١٢ — ١٠٣٨) وبين أخيه أبى فارس الثائر عليه ، واضطر مولاى زيدان إلى التحول عن مراكش — فاستأجر سفينة فرنسية تحمله هو وأهل بيته وكتبه من بعض ثغور المغرب الأقصى إلى أكادير ، فلما حصل بأكادير ، وقع خلاف بينه وبين ربان السفينة على مبلغ الأجرة المستحقة ، فما كان من الربان إلى أن انسل بالكتب تحت جنح الليل يؤم مرسيليا .

فلما كان ببعض الطريق عرضت له سفينة أسبانية غصبته الكتب وانطلقت بها إلى أسبانيا وكان خاتمة مطاف تلك الكتب أن أودعت هى أيضاً دير الأسكوريال .

كانت مكتبة الأسكوريال أول الأمر من أعظم مكاتب أوربا كثرة كتب ونفاسة قيمة ، ولكن شبت النار فى مبانى الأسكوريال كلها فى عام ١٧٦١ م فاحترق من المكتبة نحو ثلاثة أرباعها وسلم الربع فقط ولا تزال آثار الحريق ماثلة فيما سلم حتى اليوم .

وأول من درس محتويات القسم العربى ووضع لها فهرساً باللاتينية راهب مارونى اسمه ميخائيل الغزيرى ، وذلك فى منتصف القرن الثامن عشر (١٧٤٩ — ١٧٥٣) وقد ظل ذلك الفهرس الدليل المعتمد للمكتبة إلى أن شرع فى أواخر القرن التاسع عشر المستشرق الفرنسى هرتويغ درنبورغ فى وضع فهرس جديد بالفرنسية . وقد ظهر الجزء الأول من الفهرس المذكور فى عام ١٨٨٤ وظهر الثانى فى عام ١٩٠٥ ثم توفى هذا المستشرق قبل تمام عمله . غير أن الجزء الثالث من فهرسه ظهر أخيراً فى عام ١٩٢٧ بإشراف مستشرق فرنسى آخر هو الأستاذ ليفى بروفنسال .

وقد أخبرنى قيم المكتبة الأب ملخور أنطونا أنه هو وزملاءه يعدون فهرساً علمياً مطولا للقسم العربى من مكتبة الأسكوريال ، ولكن أرجح أنه لم ينشر منه شىء حتى الآن .

تلك مكتبة الأسكوريال التى يقال إن حكومة مدريد نقلتها من الدير إلى مكان آخر حريز خوفاً عليها من أخطار الحرب القائمة بينها و بين الخارجين عليها فى هذه الأيام .

بلاد عربية تحتضر فيها العروبة (*)

لست أقصد أيها القارئ الكريم بتلك البلاد إلا المغرب الإسلامى الذى يمتد من حدود مصر شرقا إلى أمواه المحيط الأطلسى غربا ، ومن سواحل بحر الروم شمالا إلى مجاهل السودان جنوبا ، والذى تنزله من الخلائق من لا يحصيهم سوى خالقهم ورازقهم .

* * *

كان المغرب ولا يزال ميدانا عظيما من ميادين الصراع الأزلى الأبدى العنيف بين الشرق والغرب ، فيه تصاولت وتطاحنت قرطجنة الشرقية السامية ورومية الغربية الآرية ، فكتب الفوز للثانية على الأولى . وعبر المغرب قرونا عدة وهو قطر رومانى حائل اللون لم ترسخ فيه المدنية الرومانية ولا تقررت فيه أصولها . فلما نهض الشرق نهضته الكبرى فى ظل الإسلام والعروبة ، وطما سيل الفتوح العربية وعب عبابه ، وغلب الغرب تجاهه على أمره ، عاد المغرب أرضا شرقية ولكن فى صورة جديدة قوامها العروبة والإسلام ، غير أن النزاع القديم بين الشرق والغرب لم ينقطع ، ففى أخريات العصور الوسطى تهاوت جموع الصليبيين على المغرب فلم تثبت لهم به قدم وباءوا بخسران مبين . ثم تجدد الصراع فى العصر الحديث ، فكتب الفوز مرة أخرى للغرب على الشرق ، وأصبح المغرب بجملته مستعمرات أوربية ، ووقف الأمر عند ذلك حتى اليوم .

وفى أثناء تلك المحاولات والمساجلات نبغ بالمغرب رجال أصبحوا مضرب الأمثال فى البطولة والشجاعة والتضحية ، منهم فى الزمن القديم هملكار ، وأسدروبال ، وهنيبال ، ومنهم فى العصر الوسيط عقبة ، والكاهنة ، وكسيلة ، وحسان ، وموسى بن نصير ، ويوسف ابن تاشفين ، وعبد المؤمن بن على وسلالته العظيمة من أمراء الموحدين ، ومنهم فى العصر الحديث الأمير عبد القادر الجزائرى ، والسيد السنوسى الكبير ، والأمير عبد الكريم

(*) مجلة الرابطة العربية ، فى ١٤ أبريل سنه ١٩٣٧ والعجيب أن الأحداث الجارية الآن فى تونس ومراكش تدل على أن مضى ستة عشر عاما لم يغير شيئاً من الحال التى يصفها هذا المقال !

الخطابى بطل الريف وقريع أسبانيا وفرنسا ، والذى لا تزال وقائعه مع هاتين الدولتين معقوداً غبارها بأرجاء المغرب الأقصى ، وصداها يدوى فى الإسماع .

وينبغى أن ننبه إلى أن المغرب أصبح غداة الفتح العربى أرضاً عربية ، وإن شئت الدقة فى القول فقل إن أجزاءه الشرقية استحالت أرضاً عربية ، فى حين أن أجزاءه الغربية أصبحت وقد استعربت ، وقديماً قسم القدماء عرب الجزيرة نفسها قسمين عاربة ومستعربة فلم يقدح ذلك فى عروبة من استعرب ولا وجد فيه غضاضة على نفسه .

لقد صار المغرب عربيا بأمرين : بهجرة العرب إليه واستعراب البربر أنفسهم . أما الهجرة فابتدأت بالجموع التى تدفقت على المغرب من الجزيرة فى القرنين الأول والثانى الهجريين وانتهت بهجرة العرب الهلالية فى القرن الرابع ، وأما الاستعراب فتم باعتناق البربر الإسلام وتكلمهم العربية وارتباطهم بالفاتحين برباط الصهر والزواج بحيث لم يبتدىء القرن الرابع حتى كانت قد استعربت قبائل البربر الكبرى أمثال كتامة وزناتة وصنهاجة ، وأصبح جميع سكان المغرب من عرب وبربر يداً واحدة على كل من داهم بلادهم إبان الحروب الصليبية والزمن الحديث كما سبقت الإشارة . وبتمام هذه الوحدة الرائعة أمكن ازدهار المدنية الإسلامية فى ربوع المغرب ، وعدت القيروان وتونس وفاس ومراكش مواطن للثقافة الإسلامية العربية وغدا جامع الزيتونة وجامع القرويين من مدارس الإسلام الجامعة ، ونبغ بالمغرب من العلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة عدد عظيم يشار إلى نفر منهم بالبنان . وتعدى أثر هذه الثقافة الإسلامية العربية إلى صقلية فكان لقاحاً هيأ إيطاليا للنهضة الأدبية العظيمة التى ظهرت بها فى القرن الخامس عشر الميلادى .

ذلك القطر العربى أخذ نجم حياته المستقلة النشطة القوية المثمرة فى الأفول منذ وضع الترك العثمانيون أيديهم عليه فى القرن السادس عشر مع استثناء المغرب الأقصى . فلما عجز الترك أنفسهم عن الدفاع عن أطرافهم فى القرن التاسع عشر تداعت بل تعاوت ذئاب الاستعمار الأوربى على المغرب . فالتقمت اسبانيا لقيمات من المغرب الأقصى ، وتحاملت فرنسا على الجزائر وتونس ومراكش فازدردتها ازدراداً . ثم انقضت إيطاليا على طرابلس بغياً وعدواناً فاستولت عليها بعد أن أبلى أهلها عذراً .

ولا يظن القارئ أن الاستعمار الأوربي دخل المغرب وهو يريد أن يسوسه على أساس الاحتفاظ بتقاليده وعاداته وإنماء موارده وترقية مرافقه والنهوض به لخير أهله واكتساب مودتهم وصداقتهم ثم الجلاء عن بلادهم فيكون بذلك قد أسدى إلى الإنسانية يداً عظيمة ومنة باقية على الزمن . كلا ثم كلا ! إن خطته التي جرى هي محو شخصية تلك البلاد وإفناؤها في الدول المستعمرة بهدم مقوماتها الجوهرية من لغة ، ودين ، وعزة قومية . وللاستعمار في الوصول إلى تلك الغاية طرق شتى : منها أنه يعمل على عزل المغرب عن سائر العالم العربي بتصعيب أسباب الاتصال بين المغرب والأقطار العربية الأخرى ، وتشديد المراقبة على العربي الذي يدخل المغرب فلا يسمح له بالاتصال بالأهلين إلا بقدر معلوم ، وطريقة أخرى أبلغ في الوصول إلى الغرض الاستعماري المنشود هي القطع بين حاضر المغرب وماضيه وذلك بإضعاف اللغة العربية ونشر لغة المستعمرين ، والحد من الثقافة الإسلامية والتمكين للثقافة الأجنبية ، ومن ثم ذلك التهالك الذي نلحظه على ترجمة الكتب العربية القديمة الخاصة بتاريخ المغرب وأدبه وفقهه إلى لغة المستعمرين وخاصة الفرنسية وذلك ليقرأ أهل المغرب تاريخهم وماضيهم باللغة الفرنسية دون العربية . وطريقة ثالثة هي تحبيب التجنس الأجنبي إلى نفوس المغاربة وإثارة النعرة الجنسية البربرية في نفوس البربر ، وما نبأ الظهير الذي صدر في مراكش بوجوب اتباع العرف البربري في دور القضاء ببعيد .

أما العمل على إماتة العزة القومية فحسبنا التدليل عليه بأمرين أو ثلاثة . فمنذ سنوات ست احتفلت فرنسا في نفس المغرب بمرور مائة سنة على فتحها الجزائر وخمسين سنة على فتحها تونس ، ومن عهد قريب نقلت رفات المارشال ليوتي قاهر المغرب الأقصى إلى مراكش ودفنته بها باحتفال مشهود . هذا ولا تفتأ إيطاليا منذ استولت على طرابلس ترنو بعينيها غرباً وشرقاً وتعرض بأنها وارثة الرومان القدماء في البحر الأبيض المتوسط فينبغي أن يؤول إليها ميراث الرومان في هذا البحر كاملا غير منقوص .

الحق أن العروبة والإسلام ماتا في الأندلس بالسيف ، أما في المغرب فإنهما يقضيان صبراً ، إلا أن يتوجه أهل المغرب إلى الله بقلوبهم وعزائمهم ، ويتداركهم الله بنصره ورحمته « ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوي عزيز » ؟

فهرس الموضوعات

صفحة

القسم الأول : عصر الدولة العباسية

صفحة

القسم الثانى : المغرب والأندلس



القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٧٣ هـ — ١٩٥٣ م